****

**تفسير سورة البقرة (1)**

**(من أول السورة حتى الآية 40)**

**سلسلة تدبر معاني**

**وبلاغة القرآن الكريم**

**الفقير إلى عفو ربه/**

**د. محمد عبد المعطي محمد**

**نظرة موضوعية عامة على سورة البقرة**

# أسماؤها ونبذة عنها

سورة البقرة أطول سور القرآن العظيم، وفيها أطول آياته (آية الدين) وهى وحدها تعتبر دستور الدولة الإسلامية الأسمى؛ ولذلك ورد في موطأ الإمام مالك أن الصحابي الجليل عبد الله بن عمر ظل ثماني سنوات يدارسها ويتعلم أحكامها.. وهذه السورة الكريمة تتعرض لمواضيع شتى، وتناقش تفاصيل بناء الدولة المؤمنة في مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتدعم أساساتها وأساسات كل دولة للإسلام إلى يوم القيامة بما يحتف بها من أعداء ومن منافسين دينيين وحضاريين..

فقد جادلت السورة الكفار والمشركين وأهل الكتاب، ورسمت خطوطا واضحةً للطابور الخامس من المنافقين تبيِّن خطورتهم على دولة الإسلام.. ثم تناقش السورة طرفاً كبيراً من أحكام العبادات وأحكام الأسرة المسلمة.. لتصير هذه السورة في النهاية مجموعة من وجباتٍ إيمانيةٍ دسمة في سبيل إنشاء الضمير الإيماني، والأسرة المؤمنة، والدستور الإيماني، والدولة المؤمنة..

سُمِّيَتْ هَذِهِ السُّورَةُ (سُورَةَ الْبَقَرَةِ)، فَقَدْ وَرَدَ فِي «الصَّحِيحِ» أَنَّ النَّبِيءَ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «مَنْ قَرَأَ الْآيَتَيْنِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ كَفَتَاهُ»، وَفِيهِ عَنْ عَائِشَةَ: «لَمَّا نَزَلَتِ الْآيَاتُ مِنْ آخِرِ الْبَقَرَةِ فِي الرِّبَا قَرَأَهُنَّ رَسُولُ اللَّهِ ثُمَّ قَامَ فَحَرَّمَ التِّجَارَةَ فِي الْخَمْرِ»، وسميت البقرة بسبب أظهر الحوادث التي ذكرتها، وأغربها، وهي بقرة بني إسرائيل التي لجوا في السؤال عنها، وما تدل على أخلاقهم من اللجاجة والجدل العقيم والسفاهة في الفكر والقول والعمل، وإرادة التلبيس في الأمر الواضح المبين، وردهم شرع الله وأمره بأسفه الحجج وأسخف السؤالات، وقد كانوا كلما زادت لجاجتهم زاد الأمر تعقيدا عليهم، وتلبيسا؛ حتى قام عليهم من الله تعالى الحجة والبرهان أنهم لا يستحقون التشريف برسالة هداية البشرية لتنتقل المهمة لأمة محمد صلى الله عليه وسلم وليحذروا ما وقع فيه هؤلاء المغفلون..

وَفِي «الْمُسْتَدْرك» عن عبد الله بن مسعود موقوفا ومرفوعا أَن النَّبِي صلى الله عليه وسلم قَالَ: « إن لكل شيء سناما، وسنام القرآن سورة البقرة، وإن الشيطان إذا سمع سورة البقرة تقرأ، خرج من البيت الذي يقرأ فيه سورة البقرة »[[1]](#footnote-1)، وَسَنَامُ كُلِّ شَيْءٍ أَعْلَاهُ، وَهَذَا وَصْفُ تَشْرِيفٍ يدل على مكانتها من سور القرآن العظيم.

وَقد سماها بعض العلماء (فسطاط القرآن) - وفيها حديث لا يصح عن ابن مسعود – وذلك أن الفسطاط يحيط بالبلد كما يحيط بها السور العالي.. ولعله لاحتوائها على أحكام كثيرة وعظيمة ومواضيع شتى تشتمل عليها (حتى قال بعض الأشياخ: إن فيها ألف أمر وألف نهي وألف خبر.. قيل: وفيها خمسة عشر مثلاً من أمثال القرآن.. ولهذا أقام ابن عمر رضي الله تعالى عنهما ثماني سنين على تعلمها )..

وعدد آياتها مائتان وست وثمانون آية.. وعدد كلماته ستَّة آلاف كلمة، ومائة وإِحدى وعشرون كلمة. وحروفها خمس وعشرون أَلفاً وخَمْسمائة حرف.

مجموع فواصل ( نهايات) آياتها (ق م ل ن د ب ر) ويجمعها (قم لندّبر). وعلى اللاَّم آية واحدة {فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ السبيل}، وعلى القاف آية واحدة {وَمَا لَهُ فِي الآخرة مِنْ خَلاَقٍ} آخر الآية المائتين.

**فضائلها**

روى مالك في الموطأ، أن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما مكث على سورة البقرة ثماني سنين يتعلمها. أي يتعلم فرائضها وأحكامها، مع حفظه لها.

وروى ابن حبان في صحيحه عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « إن لكل شيء سناما، وإن سنام القرآن سورة البقرة من قرأها في بيته ليلا لم يدخل الشيطان بيته ثلاث ليال، ومن قرأها نهارا لم يدخل الشيطان بيته ثلاثة أيام»...[[2]](#footnote-2)

وعَنْ أَبِي أُمَامَةَ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسلم يَقُول: «اقْرَءُوا الْقُرْآنَ فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعًا لِأَصْحَابِهِ اقْرَءُوا الزَّهْرَاوَيْنِ الْبَقَرَةَ وَسُورَةَ آلِ عِمْرَانَ فَإِنَّهُمَا تَأْتِيَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ أَوْ كَأَنَّهُمَا غَيَايَتَانِ أَو فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ تُحَاجَّانِ عَنْ أَصْحَابِهِمَا اقْرَءُوا سُورَةَ الْبَقَرَةِ فَإِنَّ أَخْذَهَا بَرَكَةٌ وَتَرْكَهَا حَسْرَةٌ وَلَا تستطيعها البطلة». رَوَاهُ مُسلم..

وقال ابن كثير في تفسيره: قال الإمام أحمد في المسند – بسنده – عن النَّوَّاس بْنَ سَمْعَانَ الْكِلَابِيَّ يَقُولُ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ «يُؤْتَى بِالْقُرْآنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَهْلُهُ الَّذِينَ كَانُوا يَعْمَلُونَ بِهِ تَقْدُمُهُمْ سُورَةُ الْبَقَرَةِ وَآلُ عِمْرَانَ» وَضَرَبَ لَهُمَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثَلَاثَةَ أَمْثَالٍ مَا نَسِيتُهُنَّ بَعْدُ.. قَالَ صلى الله عليه وسلم: «كَأَنَّهُمَا غمامتان أو ظلتان سوداوان بينهما شرق كأنهما فرقان من طير صواف يحاجان عن صاحبهما» ورواه مسلم في صحيحه...

الزهراوان: أى المنيرتان، وَالْغَيَايَةُ: مَا أَظَلَّكَ مِنْ فَوْقِكَ، وَالْفِرْقُ: الْقِطْعَةُ مِنَ الشَّيْءِ، وَالصَّوَافُّ: الْمُصْطَفَّةُ الْمُتَضَامَّةُ، وَالْبَطَلَةُ: هم السَّحَرَةُ، وَمَعْنَى لَا تَسْتَطِيعُهَا: أَيْ لَا يُمْكِنُهُمْ حِفْظُهَا؛ وَقِيلَ: لَا تَسْتَطِيعُ النُّفُوذَ فِي قَارِئِهَا.. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وعن خالد بن معدان قال: سورة البقرة تعلمها بركة، وتَرْكها حسرة ولا تستطيعها البطلة، وهي فسطاط القرآن.

وَعَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ يَزِيدَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: " اسْمُ اللَّهِ الْأَعْظَمُ فِي هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ: (وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحيمُ)، وفاتحة (آل عمرانَ): (آلم اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ)...[[3]](#footnote-3)

وفي سورة البقرة أعظم آية في القرآن.. آية الكرسي.. فقد روى أبو داود بسند صحيح على شرط مسلم.. عن أبي بن كعب قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: {أبا المنذر أي آية معك من كتاب الله أعظم؟}، قال: قلتُ الله ورسوله أعلم.. قال:{ أبا المنذر أي آية معك من كتاب الله أعظم؟}، قال: قلتُ (الله لا إله إلا هو الحي القيوم)، قال: فضرب في صدري، وقال:{ ليهن لك يا أبا المنذر العلم}.

**مناسبتها للفاتحة قبلها، ولماذا جاءت الأولى بعد أم الكتاب**

ووجه مناسبة سورة البقرة لسورة الفاتحة قبلها أن الفاتحة مشتملة على بيان وصوف الربوبية أولا، وأحكام العبودية ثانيا، وطلب الهداية في الدنيا والآخرة لسبيل الفالحين وصراط المهتدين ثالثا.. وكذلك سورة البقرة مشتملة على بيان معرفة الرب؛ وأدب المعاملة معه سبحانه؛ والأمر بتوحيده والتحذير من الكفر به، وتشتمل على العبادات وتفصيلها وما يتعلق بها، وعلى بيان ما يحتاج العبد إليه في الدنيا والآخرة لهدايته الصراط المستقيم الذي يطلبه المؤمنون في آخر سورة الفاتحة، وفي أول البقرة يومئ السياق القرآني الحكيم إلى ذلك في قوله تعالى: " ذك الكتاب لا ريب فيه هُدىً لِلْمُتَّقِينَ " [البقرة: 2]..

ولما افتتح سبحانه الفاتحة بالأمر الظاهر المحكم الذي يلتبس " الحمد لله رب العالمين "؛ وكان وراء كل ظاهرٍ في عالم الشهادة غيب وباطنٌ يجب على المتقين الإيمان به.. افتتح الله تعالى هذه السورة بما بطن سره وخفي أمره إلا على من شاء الله تعالى فقال سبحانه: " الم " وهى الحروف المقطعة التي يجب الايمان بحكمتها وتفويض معانيها للرب العلى إيمانا بالغيب الذي امتحن الله تعالى المتقين به ومدحهم على الإيمان به وبأمثاله من الغيب... ولهذا قال الصديق رضي الله تعالى عنه: لكل كتاب سر وسر القرآن أوائل السور، وقال الشعبي: سر الله تعالى فلا تطلبوه.)[[4]](#footnote-4)

( وَإِذا كَانَ نُزُولُ هَذِهِ السُّورَةِ فِي أَوَّلِ عَهْدٍ بِإِقَامَةِ الدولة الْإِسْلَامِيَّةِ وَاسْتِقْلَالِ أَهْلِ الْإِسْلَامِ بِمَدِينَتِهِمْ كَانَ مِنْ أَوَّلِ أَغْرَاضِ هَذِهِ السُّورَةِ تَصْفِيَةُ هذه الدولة الْإِسْلَامِيَّةِ مِنْ أَنْ تَخْتَلِطَ بِعَنَاصِرَ مُفْسِدَةٍ فاسدة حاسدة.. تفسد مَا أَقَامَ اللَّهُ لَهَا مِنَ الصَّلَاحِ الذي تسعى فيه لِتَكْوِينِ الْمَدِينَةِ الْفَاضِلَةِ النَّقِيَّةِ مِنْ شَوَائِبِ الدَّجَلِ وَالدَّخَلِ.

وَإِذْ كَانَتْ سورة البقرة أَوَّلَ سُورَةٍ نَزَلَتْ بَعْدَ الْهِجْرَةِ فَقَدْ عُنِيَ بِهَا الْأَنْصَارُ وَأَكَبُّوا عَلَى حِفْظِهَا، يَدُلُّ لِذَلِكَ مَا جَاءَ فِي السِّيرَةِ أَنَّهُ لَمَّا انْكَشَفَ الْمُسْلِمُونَ يَوْمَ حُنَيْنٍ قَالَ النَّبِيءُ صلى الله عليه وسلم لِلْعَبَّاسِ: «اصْرُخْ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ يَا أَهْلَ السَّمُرَةِ (يَعْنِي شَجَرَةَ الْبَيْعَةِ فِي الْحُدَيْبِيَةِ) يَا أَهْلَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ» فَقَالَ الْأَنْصَارُ: لَبَّيْكَ لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَبْشِرْ. وَفِي «الْمُوَطَّأِ» قَالَ مَالِكٌ إِنَّهُ بَلَغَهُ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ مَكَثَ عَلَى سُورَةِ الْبَقَرَةِ ثَمَانِيَ سِنِينَ يَتَعَلَّمُهَا )...[[5]](#footnote-5)

ولعل هذا يدلك دلالة صريحة على اهمية ومكانة سورة البقرة ما يجعلها السورة الثانية بعد الفاتحة...

**ترتيبها في النزول**

هذه السورة من أوائل ما نزل من السور بعد الهجرة. وهي أطول سور القرآن على الإطلاق.

وَقَدْ عُدَّتْ سُورَةُ الْبَقَرَةِ السَّابِعَةَ وَالثَّمَانِينَ فِي تَرْتِيبِ نُزُولِ السُّوَرِ نَزَلَتْ بَعْدَ سُورَةِ الْمُطَفِّفِينَ وَقَبْلَ آلِ عِمْرَانَ.

[ نَزَلَتْ سُورَةُ الْبَقَرَةِ بِالْمَدِينَةِ بِالِاتِّفَاقِ وَهِيَ أَوَّلُ مَا نَزَلَ فِي الْمَدِينَةِ، وَحَكَى ابْنُ حَجَرٍ فِي «شَرْحِ الْبُخَارِيِّ» الِاتِّفَاقَ عَلى ذلك، وَقِيلَ نَزَلَتْ سُورَةُ الْمُطَفِّفِينَ قَبْلَهَا بِنَاءً عَلَى أَنَّ سُورَةَ الْمُطَفِّفِينَ مَدَنِيَّةٌ، وَلَا شَكَّ أَنَّ سُورَةَ الْبَقَرَةِ فِيهَا فَرْضُ الصِّيَامِ، وَالصِّيَامُ فُرِضَ فِي السَّنَةِ الْأُولَى مِنَ الْهِجْرَةِ، فُرِضَ فِيهَا صَوْمُ عَاشُورَاءَ ثُمَّ فُرِضَ صِيَامُ رَمَضَانَ فِي السَّنَةِ الثَّانِيَةِ لِأَنَّ النَّبِيءَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَامَ سَبْعَ رَمَضَانَاتٍ أَوَّلُهَا رَمَضَانُ مِنَ الْعَامِ الثَّانِي مِنَ الْهِجْرَةِ، فَتَكُونُ سُورَةُ الْبَقَرَةِ نَزَلَتْ فِي السَّنَةِ الْأُولَى مِنَ الْهِجْرَةِ فِي أَوَاخِرِهَا أَوْ فِي الثَّانِيَةِ.

وَفِي الْبُخَارِيِّ عَنْ عَائِشَةَ «مَا نَزَلَتْ سُورَةُ الْبَقَرَةِ إِلَّا وَأَنَا عِنْدَهُ» (تَعْنِي النَّبِي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) وَكَانَ بِنَاءُ رَسُولِ اللَّهِ عَلَى عَائِشَةَ فِي شَوَّالٍ مِنَ السَّنَةِ الْأُولَى لِلْهِجْرَةِ، وَقِيلَ فِي أَوَّلِ السَّنَةِ

الثَّانِيَةِ، إِلَّا أَنَّ اشْتِمَالَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ عَلَى أَحْكَامِ الْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ وَعَلَى أَحْكَامِ الْقِتَالِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ والبلد الْحَرَام ينبىء بِأَنَّهَا اسْتَمَرَّ نُزُولُهَا إِلَى سَنَةِ خَمْسٍ وَسَنَةِ سِتٍّ كَمَا سَنُبَيِّنُهُ عِنْدَ آيَةِ: " فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ " [الْبَقَرَة: 196]..

وَقَدْ يَكُونُ مُمْتَدًّا إِلَى مَا بَعْدَ سَنَةِ ثَمَانٍ كَمَا يَقْتَضِيهِ قَوْلُهُ تعالى: " الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُوماتٌ "- الْآيَاتِ إِلَى قَوْلِهِ- " لِمَنِ اتَّقى" [الْبَقَرَة: 197- 203]. عَلَى أَنَّهُ قَدْ قِيلَ إِنَّ قَوْلَهُ تعالى:" وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ "[الْبَقَرَة: 281] الْآيَةَ هُوَ آخِرُ مَا نَزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ، وَقَدْ بَيَّنَّا أَنَّهُ قَدْ يَسْتَمِرُّ نُزُولُ السُّورَةِ فَتَنْزِلُ فِي أَثْنَاءِ مُدَّةِ نُزُولِهَا سُوَرٌ أُخْرَى.]..[[6]](#footnote-6)

[.. وإن المعول عليه في ترتيب السور من حيث النزول هو سبق نزول أوائلها- لا جميعها- وفي هذه السورة آيات في أواخر ما نزل من القرآن كآيات الربا، في حين أن الراجح أن مقدماتها كانت من أول ما نزل من القرآن في المدينة.

فأما تجميع آيات كل سورة في السورة، وترتيب هذه الآيات، فهو توقيفي موحى به..

روى الترمذي- بإسناده- عن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: قلت لعثمان بن عفان: ما حملكم أن عمدتم إلى الأنفال وهي من المثاني وإلى براءة وهي من المئين، وقرنتم بينهما ولم تكتبوا سطر: بسم الله الرحمن الرحيم، ووضعتموها في السبع الطوال؟ وما حملكم على ذلك؟ فقال عثمان: كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم- كان مما يأتي عليه الزمان وهو ينزل عليه السور ذوات العدد فكان إذا نزل عليه الشيء دعا بعض من كان يكتب، فيقول: ضعوا هذه الآية في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا. وكانت الأنفال من أول ما نزل بالمدينة، وكانت براءة من آخر ما نزل من القرآن وكانت قصتها شبيهة بقصتها، وخشيت أنها منها وقبض رسول الله - صلى الله عليه وسلم- ولم يبين لنا أنها منها. فمن أجل ذلك قرنت بينهما، ولم أكتب بينهما سطر: بسم الله الرحمن الرحيم، ووضعتها في السبع الطوال.

فهذه الرواية تبين أن ترتيب الآيات في كل سورة كان بتوقيف من رسول الله - صلى الله عليه وسلم- وقد روى الشيخان عن ابن عباس رضي الله عنهما قال كان النبي - صلى الله عليه وسلم- أجود الناس بالخير وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل. وكان جبريل عليه السلام يلقاه كل ليلة في رمضان حتى ينسلخ يعرض عليه النبي - صلى الله عليه وسلم- القرآن، وفي رواية - فيدارسه القرآن، فإذا لقيه جبريل عليه السلام كان أجود بالخير من الريح المرسلة. ومن الثابت أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم- وقد قرأ القرآن كله على جبريل- عليه السلام- كما أن جبريل قد قرأه عليه.. ومعنى هذا أنهما قرآه مرتبةً آياته في سوره بوحىٍ من الله تعالى.

ومن ثم يلحظ من يعيش في ظلال القرآن أن لكل سورة من سوره شخصية مميزة! شخصية لها روح يعيش معها القلب كما لو كان يعيش مع روح حي مميز الملامح والسمات والأنفاس! ولها موضوع رئيسي أو عدة موضوعات رئيسية مشدودة إلى محور خاص. ولها جو خاص يظلل موضوعاتها كلها ويجعل سياقها يتناول هذه الموضوعات من جوانب معينة، تحقق التناسق بينها وفق هذا الجو. ولها إيقاع موسيقي خاص- إذا تغير في ثنايا السياق فإنما يتغير لمناسبة موضوعية خاصة.. وهذا طابع عام في سور القرآن جميعا.

ولا يشذ عن هذه القاعدة طوال السور كهذه السورة.]..[[7]](#footnote-7)

**خصوص النزول وعموم اللفظ وروعة النظم.. إعجاز عظيم**

قرأت في كتاب (التفسير ورجاله) للفاضل ابن عاشور قوله:

[ إن القرآن لم ينزل دفعة واحدة، وإنما كان نزوله وتبليغه في ظرف زمني متسع جداً: قدره أكثر من عشرين عاماً، فكان ينزل منجماً على أجزاء مع فواصل زمنية متراخية بين تلك الأجزاء، وكان نزوله في تقدم بعض أجزائه وتأخر البعض الآخر، على ترتيب معروف يختلف عن ترتيبه التعبدي، لأن ترتيب تاريخ النزول كان منظوراً فيه إلى مناسبة الظروف والوقائع، مناسبة ترجع إلى ركن من أركان مطابقة الكلام لمقتضى الحال.

وترتيب التلاوة، أو الترتيب التعبدي، كان منظوراً فيه إلى تسلسل المعاني وتناسب أجزاء الكلام بعضها مع بعض، وذلك يرجع إلى ركن آخر من أركان مطابقة الكلام لمقتضى الحال، وكلا الترتيبين راجعٌ إلى الوحي، وكلاهما وقع به التحدي الإعجازي] ا.ه.

قلتُ: وهو منحىً عظيمٌ من مناحي إعجاز القرآن الكريم هو ذلك التناسق الرائع والاتزان الحكيم المحكم في النظم والترتيب بين خصوص تنزيلات القرآن وشمولية ترتيبه النهائي في المصحف الشريف..

فتجد العظمة تكتنفه وهو يعالج القضايا الآنيّة الحاليّة للمجتمع الإسلامي الناشئ في عهد النبوة حينما يتنزل مُنَجَّماً (مُفَرَّقاً) على حسب الحوادث والظروف.. ثم يتسع نظمه في هذه التنزيلات ( النجوم) المباركات ليعم لفظه كل ما يشبه ما نزل فيه إلى يوم القيامة؛ بل يتعداه بلفظه العام إلى شمول معانٍ أعم وأعمق تناقش كثيرا من القضايا على مر العصور..

ونضرب لهذا مثلا واحدا في الآية (222 ) من سورة البقرة: " وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ "..

فعن قتادة قوله تعالى:" ويسألونك عن المحيض" حتى بلغ:" حتى يطهرن" فكان أهلُ الجاهلية لا تساكنهم حائضٌ في بيت، ولا تؤاكلهم في إناءٍ، فأنزل الله تعالى ذكره في ذلك، فحرَّم فرْجها ما دامت حائضًا، وأحل ما سوى ذلك: أن تصبغ لك رأسك، وتؤاكلك من طعامك، وأن تضاجعك في فراشك، إذا كان عليها إزارٌ محتجزةً به دونك[[8]](#footnote-8).

قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ- بسنده، عَنْ أَنَسٍ: أَنَّ الْيَهُودَ كَانُوا إِذَا حَاضَتِ الْمَرْأَةُ مِنْهُمْ لَمْ يُؤَاكلوها وَلَمْ يُجَامِعُوهَا فِي الْبُيُوتِ، فَسَأَلَ أصحابُ النَّبِيِّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ} حَتَّى فَرَغَ مِنَ الْآيَةِ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: "اصْنَعُوا كُلَّ شَيْءٍ إِلَّا النِّكَاحَ". فَبَلَغَ ذَلِكَ الْيَهُودَ، فَقَالُوا: مَا يُرِيدُ هَذَا الرَّجُلُ (يعنون النبى صلى الله عليه وسلم ) أَنْ يَدع مِنْ أَمْرِنَا شَيْئًا إِلَّا خَالَفَنَا فِيهِ! فَجَاءَ أُسَيْدُ بْنُ حُضَير وعبَّاد بْنُ بِشْرٍ فَقَالَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ الْيَهُودَ قَالَتْ كَذَا وَكَذَا، أَفَلَا نُجَامِعُهُنَّ؟ فَتَغَيَّرَ وَجْهُ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم حَتَّى ظَنَنَّا أَنْ قَدْ وَجَدَ عَلَيْهِمَا ( غضب منهما لأنهما همَّا بالتذبذب اتباعاً لشبهة يهود)، فَخَرَجَا، فَاسْتَقْبَلَتْهُمَا هَدِيَّةٌ مِنْ لَبَنٍ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فَأَرْسَلَ فِي آثَارِهِمَا، فَسَقَاهُمَا، فَعَرَفَا أَنْ لَمْ يَجدْ عَلَيْهِمَا.. رَوَاهُ مُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ حَمَّادِ بْنِ سَلَمَةَ.

فَقَوْلُهُ: {فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ} يَعْنِي المجامعة فِي الفَرْج، لِقَوْلِهِ: "اصْنَعُوا كُلَّ شَيْءٍ إِلَّا النِّكَاحَ"؛ وَلِهَذَا ذَهَبَ كَثِيرٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ أَوْ أَكْثَرِهِمْ إِلَى أَنَّهُ تَجُوزُ مُبَاشَرَةُ الْحَائِضِ فِيمَا عَدَا الْفَرْجِ[[9]](#footnote-9).

فنتأمل معاً كيف أن الآية الكريمة نزلت على سببٍ..إجابةً لسؤالٍ وحادثةٍ خاصةٍ، ثم اتسعت لتشمل حكماً فقهياً إسلاميا عظيماً في تحريم اتيان الحائض لما في ذلك من الأذى والضرر الصحي والنفسي والاجتماعي الجسيم الناتج عن ذلك.. ثم اتسع المقام ليشمل في سياقه علاجاً لداءٍ اجتماعيٍ وخيم تمثل في انتقاص المرأة واعتبارها قذراً وابعادها بغير مبرر فجاء الاسلام ليعلم الانسانية جمعاء كيف يرتقي الدين الحق بالنفوس ويساوي بين الرجال والنساء ويعلمهم أن الحيض فيهن من دواعي الخلقة التي لا نقص فيها.. وهكذا ترى التناسق الرائع بين عموم اللفظ وخصوص السبب في تنزيلات المباركة وتوقيعاته المتجددة الاعجاز دائما...

ولكن إعجابنا يصل إلى ذروته إذا أدركنا أن هذه الأجزاء المبعثرة من الآيات قد اتبعت في نزولها تخطيطا تربويا دقيقا يبدأ بالجزء و ينتهى إلى الكل , وما علينا إلا أن نستعرض المراحل التدريجية للغرض الديني على مدى ثلاث وعشرين سنة لتتضح لنا هذه الحقيقة.

فنبدأ من النبوة إلى الرسالة من "اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1)" في بسورة العلق إلى " قُمْ فَأَنْذِرْ (2)" في سورة المدثر.

و من الدعوة السرية إلى الدعوة الجهرية وإعلان الدعوة "فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (94)".

و من دعوة الرسول لأقاربه " وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ (214)"..إلى دعوة مكة بأسرها

" وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آَيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ (59)".. ثم القرى المجاورة " وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا".. ثم البشرية جمعاء

" وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ (107)".

ومن ارساء القواعد الأساسية للإسلام في السور المكية إلى التطبيق العملي في السور المدنية, و من التبغيض في شرب الخمر:" يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآَيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (219)".. إلى تحريمها صراحة:" إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (90)".

و من الدعوة إلى الصبر و احتمال الأذى:" أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآَتُوا الزَّكَاةَ"..إلى المقاومة المسلحة: " وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (190)".

وتزداد عجباً وتقف مشدوهاً حينما تصطدم بسرٍ معجزٍ جديد في ترتيب سور القرآن وتناسقها ووحدة وتكامل منهجها الرباني العظيم...

يقول السيوطي في الاتقان:

[ قَالَ بَعْضُ الْأَئِمَّةِ: وَسُورَةُ الْفَاتِحَةِ تَضَمَّنَتِ الْإِقْرَارَ بِالرُّبُوبِيَّةِ وَالِالْتِجَاءَ إِلَيْهِ فِي دِينِ الْإِسْلَامِ وَالصِّيَانَةَ عَنْ دِينِ الْيَهُودِيَّةِ وَالنَّصْرَانِيَّةِ، وَسُورَةُ الْبَقَرَةِ تَضَمَّنَتْ قَوَاعِدَ الدِّينِ، وَآلِ عِمْرَانَ مُكَمِّلَةٌ لِمَقْصُودِهَا.. فَالْبَقَرَةُ بِمَنْزِلَةِ إِقَامَةِ الدَّلِيلِ عَلَى الْحُكْمِ، وَآلُ عِمْرَانَ بِمَنْزِلَةِ الْجَوَابِ عَنْ شُبُهَاتِ الْخُصُومِ، وَلِهَذَا وَرَدَ فِيهَا ذِكْرُ الْمُتَشَابِهِ لِمَا تَمَسَّكَ بِهِ النَّصَارَى وَأَوْجَبَ الْحَجَّ فِي آلِ عِمْرَانَ.. وَأَمَّا فِي الْبَقَرَةِ فَذَكَرَ أَنَّهُ مَشْرُوعٌ، وَأَمَرَ بِإِتْمَامِهِ بَعْدَ الشُّرُوعِ فِيهِ.. وَكَانَ خِطَابُ النَّصَارَى فِي آلِ عِمْرَانَ أَكْثَرَ، كَمَا أَنَّ خِطَابَ الْيَهُودِ فِي الْبَقَرَةِ أَكْثَرُ لِأَنَّ التَّوْرَاةَ أَصْلٌ وَالْإِنْجِيلَ فَرْعٌ لَهَا.. وَالنَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا هَاجَرَ إِلَى الْمَدِينَةِ دَعَا الْيَهُودَ وَجَاهَدَهُمْ، وَكَانَ جِهَادُهُ لِلنَّصَارَى فِي آخِرِ الْأَمْرِ.. كَمَا كَانَ دُعَاؤُهُ لِأَهْلِ الشِّرْكِ قَبْلَ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَلِهَذَا كَانَتِ السُّوَرُ الْمَكِّيَّةُ فِيهَا الدِّينُ الَّذِي اتَّفَقَ عَلَيْهِ الْأَنْبِيَاءُ فَخُوطِبَ بِهِ جَمِيعُ النَّاسِ، وَالسُّوَرُ الْمَدَنِيَّةُ فِيهَا خِطَابُ مَنْ أَقَرَّ بِالْأَنْبِيَاءِ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُؤْمِنِينَ فَخُوطِبُوا بِ" يَا أَهْلَ الْكِتَابِ، يَا بَنِي إسرائيل، يأيها الَّذِينَ آمَنُوا"..

وَأَمَّا سُورَةُ النِّسَاءِ فَتَضَمَّنَتْ أَحْكَامَ الْأَسْبَابِ الَّتِي بَيْنَ النَّاسِ، وَهِيَ نَوْعَانِ: مَخْلُوقَةٌ لِلَّهِ، وَمَقْدُورَةٌ لَهُمْ كَالنَّسَبِ وَالصِّهْرِ وَلِهَذَا افْتَتَحَتْ بِقَوْلِهِ: {اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا} ثُمَّ قَالَ: {وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ}.. فَانْظُرْ هَذِهِ الْمُنَاسَبَةِ الْعَجِيبَةِ فِي الِافْتِتَاحِ وَبَرَاعَةِ الِاسْتِهْلَالِ؛ حَيْثُ تَضَمَّنَتِ الْآيَةُ الْمُفْتَتَحُ بِهَا الذي تحدثت أَكْثَرُ السُّورَةِ فِي أَحْكَامِهِ مِنْ نِكَاحِ النِّسَاءِ وَمُحْرَّمَاتِهِ وَالْمَوَارِيثِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِالْأَرْحَامِ.. وَأَنَّ ابْتِدَاءَ هَذَا الْأَمْرِ كَانَ بِخَلْقِ آدَمَ ثُمَّ خَلْقِ زَوْجِهِ مِنْهُ ثُمَّ بَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا وَنِسَاءً فِي غَايَةِ الْكَثْرَةِ.

وَأَمَّا الْمَائِدَةُ فَسُورَةُ الْعُقُودِ تَضَمَّنَتْ بَيَانَ تَمَامِ الشَّرَائِعِ وَمُكَمِّلَاتِ الدِّينِ وَالْوَفَاءِ بِعُهُودِ الرُّسُلِ، وَمَا أُخِذَ عَلَى الْأُمَّةِ وبها تمام الدِّينُ.. فَهِيَ سُورَةُ التَّكْمِيلِ لِأَنَّ فِيهَا تَحْرِيمَ الصَّيْدِ عَلَى الْمُحْرِمِ الَّذِي هُوَ مِنْ تَمَامِ الْإِحْرَامِ، وَتَحْرِيمَ الْخَمْرِ الَّذِي هُوَ مِنْ تَمَامِ حِفْظِ الْعَقْلِ وَالدِّينِ، وَعُقُوبَةَ الْمُعْتَدِينَ مِنَ السُّرَّاقِ وَالْمُحَارِبِينَ الَّذِي هُوَ مِنْ تَمَامِ حِفْظِ الدِّمَاءِ وَالْأَمْوَالِ، وَإِحْلَالَ الطَّيِّبَاتِ الَّذِي هُوَ مِنْ تَمَامِ عِبَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى.. وَلِهَذَا ذُكِرَ فِيهَا مَا يَخْتَصُّ بِشَرِيعَةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَالْوُضُوءِ وَالتَّيَمُّمِ، وَالْحُكْمِ بِالْقُرْآنِ عَلَى كُلِّ دين.. ولهذا كثر فِيهَا مَنْ لَفْظِ الْإِكْمَالِ وَالْإِتْمَامِ وَذَكَرَ فِيهَا أَنَّ مَنِ ارْتَدَّ عوّض الله خير مِنْهُ، وَلَا يَزَالُ هَذَا الدِّينُ كَامِلًا.. وَلِهَذَا وَرَدَ أَنَّهَا آخِرُ مَا نَزَلَ لِمَا فِيهَا مِنْ إِشَارَاتِ الْخَتْمِ وَالتَّمَامِ وَهَذَا التَّرْتِيبُ بَيْنَ هَذِهِ السُّوَرِ الْأَرْبَعِ الْمَدَنِيَّاتِ مِنْ أَحْسَنِ التَّرْتِيبِ ]انتهى.

الوحدة العضوية في القرآن الكريم.. وعلم المناسبة القرآنية المعجزة.

تنقسم السور القرآنية إلى قسمين: قسم تكوّن من موضوع واحد و هو غالب في السور القصيرة كسورة النبأ و النازعات و الانشقاق و الفيل و قريش و غيرها.

و قسم تكون من موضوعات شتى و هو القسم الغالب على السور الطوال: كالبقرة و آل عمران و المائدة و غيرها.

ولقد وصم الواصمون السور القرآنية بأن ليس فيها هذه الوحدة في عرضها فهى تنتقل من فن إلى فن دون رابط, و ما نراهم إلا المريدين للنيل من القرآن بتوجيه المطاعن إليه.

ولكن في الحقيقة فإن السور الطوال ومع تعدد مواضيعها وتنقل فنونها وأساليبها وخطاباتها تجدها عند التأمل الدقيق والتدبر العميق مشدودة إلى روح واحدة ووحدة متماسكة تربط أجزائها ومواضيعها بكل جمال وروعة..

ولا ينكر ذلك إلا سطحي لم يخالج تدبر القرآن شغاف روحه وعقله أو مغرض يريد أن يشكك في كلام الله أو يوهن من مدى مصداقيته وإعجازه في النفوس...

كما أن التنقل في أسلوب القرآن من معنى إلى معنى له مغزى بلاغي هو نقل القارئ من شعور إلى شعور , و من تفكير إلى تفكير وفى ذلك متعة للعقل و الوجدان معا, متعة ينشدها القارئ الفاهم و يتأثر بها و لكن هل هذا التنقل يخل بالوحدة العضوية في السورة؟ كلا: إن القرآن وحدة متكاملة متكافلة في التعبير و التفسير..

إن فكرة التناسب القرآني قديمة قدم القرآن نفسه، ولطالما لفت النبي ‏صلى الله عليه وسلم‏ المسلمين إلى التعامل مع القرآن ‏الكريم باعتباره وحدة واحدة، وتنبه الصحابة ومَن بعدهم إلى أهمية السياق في التوصل إلى الفهم الصحيح ‏للنص القرآني؛ والمعاني الإضافية التي يفيدها ترتيب آي القرآن وسوره، وانطلقوا في تفسيراتهم وتأويلاتهم ‏منها، ولعل ضعف السليقة العربية في العصور التالية من جهة، وتركيز الكثيرين على التفصيلات والتفريعات ‏النحوية والفقهية وغيرهما، مما أدى إلى غياب النظرة الكلية لآيات القرآن الكريم وسوره. ‏

وإن في تفسير الطبري كثيراً من الوقفات في الربط بين أجزاء السورة من خلال أدوات الربط وعلى رأسها ‏حروف العطف، أو من خلال ما أسماه الكلام المحذوف الذي ترك لظهوره، وإن لم يستخدم مصطلح التناسب ‏أو مرادفاته.

‏  
‏والواقع أن الفخر الرازي في تفسيره (الكبير= مفاتح الغيب) هو أبرز من فتح الباب واسعاً لفهم النظم القرآني، ولم يقارب جهوده أحد حتى جاء ‏البقاعي (المتوفى: 885هـ) واستوعب ما قيل قبله، وكان عمله في كتابه نظم الدرر هو الأوسع والأشمل؛ حيث تحدث عن النظم بدءاً ‏من أجزاء الآية الواحدة وصولاً إلى الحديث عن التناسب في القرآن الكريم جميعه بوصفه كتاباً واحداً، مروراً ‏بالتناسب بين الآيات ثم التناسب بين أجزاء السورة، فالتناسب بين السور.[[10]](#footnote-10)

جاء في كتاب الاتقان للسيوطي:

وَعِلْمُ الْمُنَاسَبَةِ عِلْمٌ شَرِيفٌ قَلَّ اعْتِنَاءُ الْمُفَسِّرِينَ بِهِ لِدِقَّتِهِ وَمِمَّنْ أكثر فيه الإمام فخر الدين وقال فِي تَفْسِيرِهِ أَكْثَرُ لَطَائِفِ الْقُرْآنِ مُودَعَةٌ فِي التَّرْتِيبَاتِ وَالرَّوَابِطِ.

وَقَالَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ فِي "سِرَاجِ الْمُرِيدِينَ": ارْتِبَاطُ آيِ الْقُرْآنِ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ حَتَّى تكون كَالْكَلِمَةِ الْوَاحِدَةِ مُتَّسِقَةَ الْمَعَانِي مُنْتَظِمَةَ الْمَبَانِي عِلْمٌ عَظِيمٌ.

وَقَالَ غَيْرُهُ: أَوَّلُ مَنْ أَظْهَرَ عَلِمَ الْمُنَاسَبَةِ الشَّيْخُ أَبُو بَكْرٍ النَّيْسَابُورِيُّ وَكَانَ غَزِيرَ الْعِلْمِ فِي الشَّرِيعَةِ وَالْأَدَبِ وَكَانَ يَقُولُ عَلَى الْكُرْسِيِّ إِذَا قُرِئَ عَلَيْهِ لِمَ جُعِلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ إِلَى جَنْبِ هَذِهِ؟ وَمَا الْحِكْمَةُ فِي جَعْلِ هَذِهِ السُّورَةِ إِلَى جَنْبِ هَذِهِ السُّورَةِ وَكَانَ يُزْرِي عَلَى عُلَمَاءِ بَغْدَادَ لِعَدَمِ عِلْمِهِمْ بِالْمُنَاسَبَةِ.)انتهى[[11]](#footnote-11)

ثم يلمح العلامة السيوطي إلى رأى بعض المتحفظين على الولوج في هذا العلم الشريف فينقل رأى العلامة المجتهد العز بن عبد السلام فيقول:

قَالَ الشَّيْخُ عِزُّ الدِّينِ بْنُ عَبْدِ السَّلَامِ: الْمُنَاسِبَةُ عِلْمٌ حَسَنٌ لَكِنْ يُشْتَرَطُ فِي حُسْنِ ارْتِبَاطِ الْكَلَامِ أَنْ يَقَعَ فِي أَمْرٍ مُتَّحِدٍ مُرْتَبِطٍ أَوَّلُهُ بِآخِرِهِ فَإِنْ وَقَعَ عَلَى أَسْبَابٍ مُخْتَلِفَةٍ لَمْ يَقَعْ فِيهِ ارْتِبَاطٌ وَمَنْ رَبَطَ ذَلِكَ فَهُوَ مُتَكَلِّفٌ بِمَا لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ إِلَّا بِرَبْطٍ رَكِيكٍ يُصَانُ عَنْ مِثْلِهِ حَسَنُ الْحَدِيثِ فَضْلًا عَنْ أَحْسَنِهِ فَإِنَّ الْقُرْآنَ نَزَلَ فِي نَيِّفٍ وَعِشْرِينَ سَنَةً فِي أَحْكَامٍ مُخْتَلِفَةٍ شُرِّعَتْ لِأَسْبَابٍ مُخْتَلِفَةٍ وَمَا كَانَ كَذَلِكَ لَا يَتَأَتَّى رَبْطُ بَعْضِهِ بِبَعْضٍ.)

ثم يورد السيوطي رد العلماء عليه فيقول:

( وَقَالَ الشَّيْخُ وَلِيُّ الدِّينِ الْمَلَّوِيُّ: قَدْ وَهِمَ مَنْ قَالَ لَا يُطْلَبُ لِلْآيِ الْكَرِيمَةِ مُنَاسَبَةٌ لِأَنَّهَا عَلَى حَسَبِ الْوَقَائِعِ الْمُفَرَّقَةِ.. وَفَصْلُ الْخِطَابِ أَنَّهَا عَلَى حَسَبِ الْوَقَائِعِ تَنْزِيلًا، وَعَلَى حَسَبِ الْحِكْمَةِ تَرْتِيبًا وَتَأْصِيلًا فَالْمُصْحَفُ عَلَى وَفْقِ مَا فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ مرتَّبةٌ سوره كلها وآياته بِالتَّوْقِيفِ؛ كَمَا أُنْزِلَ جُمْلَةً إِلَى بَيْتِ الْعِزَّةِ.. وَمِنَ الْمُعْجِزِ الْبَيِّنِ أُسْلُوبُهُ وَنَظْمُهُ الْبَاهِرُ؛ وَالَّذِي يَنْبَغِي فِي كُلِّ آيَةٍ أَنْ يُبْحَثَ أَوَّلُ كُلِّ شَيْءٍ عَنْ كَوْنِهَا مُكَمِّلَةً لِمَا قَبْلَهَا أَوْ مُسْتَقِلَّةً ثُمَّ الْمُسْتَقِلَّةُ مَا وَجْهُ مُنَاسَبَتِهَا لِمَا قَبْلَهَا، فَفِي ذَلِكَ عِلْمٌ جَمٌّ، وَهَكَذَا فِي السُّوَرِ يُطْلَبُ وَجْهُ اتِّصَالِهَا بِمَا قَبْلَهَا وَمَا سِيقَتْ لَهُ.. انْتَهَى.[[12]](#footnote-12)

ولا يخفى عند المتأمل المعتدل في بحثه صحة بعض التحفظ والتأني من الانسياق وراء التأويل المتعسف لبعض المناسبات بين الآيات في حين لا تلتئم تلك المناسبات بغير تكلفٍ ملحوظ.. ولعل الله الذي اودع في القرآن العظيم الأسرار التي لا تنقضي على مر الدهور ان يكشف على مدى الدهور للعلماء سر تناسبها ولذا لا يحسن التكلف فيما لم يظهر بعلم جلى ويفتح الله تعالى به...

* ويقول العلامة البقاعي يبين المنهجية الشاملة لفهم الوحدة العضوية والتماسك الموضوعي داخل سور القرآن:

الأمر الكلي المفيد لمعرفة مناسبات الآيات في جميع القرآن هو أنك تنظر الغرض الذي سبقت له السورة، وتنظر ما يحتاج إليه ذلك الغرض من المقدمات، وتنظر إلى مراتب تلك المقدمات في القرب والبعد من المطلوب، وتنظر عند انجرار الكلام في المقدمات إلى ما يستتبعه من الأحكام واللوازم التابعة له.. فهذا هو الأمر الكلي المهيمن على حكم الربط بين جميع أجزاء القرآن، وإذا فعلته تبيَّن لك إن شاء الله وجه النظم مفصلا بين كل آية وآية في كل سورة، وبين السور.. وقد ظهر لي باستعمالي لهذه القاعدة بعد وصولي إلى سورة سبأ في السنة العاشرة من ابتدائي في عمل هذا الكتاب أن اسم كل سورة مترجم عن مقصودها لأن اسم كل شيء تظهر المناسبة بينه وبين مسماه..) انتهى.[[13]](#footnote-13)

وأما العلامة السيوطي فيفصل في منهجية شبه دقيقة مفهوم الوحدة العضوية في القرآن فيقول رحمه الله ما ملخصه:

[ الْمُنَاسِبَةُ فِي اللُّغَةِ: الْمُشَاكَلَةُ وَالْمُقَارَبَةُ؛ وَمَرْجِعُهَا فِي الْآيَاتِ وَنَحْوِهَا من الجُمل والمقاطع والسور إِلَى مَعْنًى رَابِطٍ بَيْنَهَا عَامٍّ أَوْ خَاصٍّ..سواء كان عَقْلِيٍّ أَوْ حِسِّيٍّ أَوْ خَيَالِيٍّ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَنْوَاعِ الْعَلَاقَاتِ أَوِ التَّلَازُمِ الذِّهْنِيِّ؛ كَالسَّبَبِ وَالْمُسَبِّبِ وَالْعِلَّةِ وَالْمَعْلُولِ وَالنَّظِيرَيْنِ وَالضِّدَّيْنِ وَنَحْوِهِ..

وَفَائِدَتُهُ: جَعْلُ أَجْزَاءِ الْكَلَامِ بَعْضِهَا آخِذًا بِأَعْنَاقِ بَعْضٍ؛ فَيَقْوَى بِذَلِكَ الِارْتِبَاطُ، وَيَصِيرُ التَّأْلِيفُ حَالُهُ حَالُ الْبِنَاءِ الْمُحْكَمِ الْمُتَلَائِمِ الْأَجْزَاءِ..

فَنَقُولُ: ذِكْرُ الْآيَةِ بَعْدَ الْأُخْرَى إِمَّا أَنْ يَكُونَ ظَاهِرَ الِارْتِبَاطِ لِتَعَلُّقِ الْكَلِمِ بَعْضِهِ بِبَعْضٍ وَعَدَمِ تَمَامِهِ بِالآية أو الجملة الأُولَى فَذلك وَاضِحٌ، وَكَذَلِكَ إِذَا كَانَتِ الآية أو الجملة الثَّانِيَةُ لِلْأُولَى عَلَى وَجْهِ التَّأْكِيدِ أَوِ التَّفْسِيرِ أَوِ الِاعْتِرَاضِ أَوِ الْبَدَلِ...وغيره، وَهَذَا الْقِسْمُ لَا كلام فيه ([[14]](#footnote-14))..

* وإما إلا يَظْهَرَ الِارْتِبَاطُ؛ بَلْ يَظْهَرُ أَنَّ كُلَّ جُمْلَةٍ مُسْتَقِلَّةٍ عَنِ الْأُخْرَى، وعلاقة التفسير والارتباط بينهما غير جلية..

1. فَإِمَّا أَنْ تَكُونَ الآية الثانية مَعْطُوفَةً عَلَى الْأُولَى بِحَرْفٍ مِنْ حُرُوفِ الْعَطْفِ الْمُشْتَرِكَةِ فِي الْحُكْمِ أَوْ لَا.

فَإِنْ كَانَتْ مَعْطُوفَةً فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ بَيْنَهُمَا جِهَةٌ جَامِعَةٌ (مفهوم دلالي يجمعهما عَلَى وَجْهِ التَّأْكِيدِ أَوِ التَّفْسِيرِ أَوِ الِاعْتِرَاضِ أَوِ الْبَدَلِ...وغيره) عَلَى مَا سَبَقَ تَقْسِيمُهُ: كَقَوْلِهِ تَعَالَى: {يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا} وَقَوْلِهِ: {وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}.. فإن في التَّضَادِّ بَيْنَ الْقَبْضِ وَالْبَسْطِ وَالْوُلُوجِ وَالْخُرُوجِ وَالنُّزُولِ وَالْعُرُوجِ، وَشِبْهِ التَّضَادِّ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ما يجمع الآيتين ويضربهما مثل الفصاحة والبلاغة الأعلى..

وَمِمَّا الْكَلَامُ فِيهِ أيضاً التَّضَادُّ ذِكْرُ الرَّحْمَةِ بَعْدَ ذِكْرِ الْعَذَابِ، وَالرَّغْبَةِ بَعْدَ الرَّهْبَةِ..

وَقَدْ جَرَتْ عَادَةُ الْقُرْآنِ إِذَا ذَكَرَ أحْكَامًا ذَكَرَ بَعْدَهَا وَعْدًا وَوَعِيدًا لِيَكُونَ بَاعِثًا عَلَى الْعَمَلِ بِمَا سَبَقَ بيانه من الأحكام؛ ثُمَّ يَذْكُرُ آيَاتِ تَوْحِيدٍ وَتَنْزِيهٍ لِيَعْلَمَ الناس عظمةَ الْآمِرِ النَّاهِي سبحانه..

وَتَأَمَّلْ سُورَةَ الْبَقَرَةِ وَالنِّسَاءِ وَالْمَائِدَةِ تَجِدْهُ كَذَلِكَ..

1. وَإِنْ لَمْ تَكُنْ الآيات مَعْطُوفَةً فَلَا بُدَّ مِنْ دِعَامَةٍ تُؤْذِنُ بِاتِّصَالِ الْكَلَامِ، وَهِيَ قَرَائِنُ مَعْنَوِيَّةٌ تُوحِي بِالرَّبْطِ بينها وَلهذا الربط أَسْبَابٌ:

أَحَدُهَا: إِلْحَاقُ النَّظِيرِ بِالنَّظِيرِ كَقَوْلِهِ: {كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ} عَقِبَ قَوْلِهِ: {أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً} فَإِنَّهُ تَعَالَى أَمَرَ رَسُولَهُ أَنْ يَمْضِيَ لِأَمْرِهِ فِي الْغَنَائِمِ عَلَى كُرْهٍ مِنْ أَصْحَابِهِ كَمَا مَضَى لِأَمْرِهِ فِي خُرُوجِهِ مِنْ بَيْتِهِ لِطَلَبِ الْعِيرِ أَوْ لِلْقِتَالِ وَهُمْ لَهُ كَارِهُونَ؛ وَالْقَصْدُ أَنَّ كَرَاهَتَهُمْ لِمَا فَعَلَهُ مِنْ قِسْمَةِ الْغَنَائِمِ كَكَرَاهَتِهِمْ لِلْخُرُوجِ؛ وَقَدْ تَبَيَّنَ فِي الْخُرُوجِ الْخَيْرُ مِنَ الظَّفَرِ وَالنَّصْرِ وَالْغَنِيمَةِ وَعَزِّ الْإِسْلَامِ؛ فَكَذَا يَكُونُ فِيمَا فَعَلَهُ عليه الصلاة والسلام فِي الْقِسْمَةِ؛ فَلْيُطِيعُوا مَا أُمِرُوا بِهِ وَيَتْرُكُوا هَوَى أَنْفُسِهِمْ.

الثَّانِي: الْمُضَادَّةُ والمقابلة كَقَوْلِهِ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ} الْآيَةَ.. فَإِنَّ أَوَّلَ السُّورَةِ كَانَ حَدِيثًا عَنِ الْقُرْآنِ وَأَنَّ مِنْ شَأْنِهِ الْهِدَايَةَ لِلْمتقين.. فَلَمَّا أَكْمَلَ وَصْفَ الْمُؤْمِنِينَ عَقَّبَ بعده بِحَدِيثٍ عن الْكَافِرِينَ.. فَبَيْنَ الحديثين جَامِعٌ بِالتَّضَادِّ ومقابلة حال بحال، وَحِكْمَتُهُ التَّشْوِيقُ وَالثُّبُوتُ عَلَى حال المهتدين كَمَا قِيلَ: "وَبِضِدِّهَا تَتَبَيَّنُ الْأَشْيَاءُ".. وَلِهَذَا لَمَّا فَرَغَ مِنْ ذَلِكَ قَالَ: {وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا} فَرَجَعَ إِلَى الحديث عن القرآن.

الثَّالِثُ: الِاسْتِطْرَادُ.. كَقَوْلِهِ تَعَالَى: {يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشاً وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ}..

قَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ: هَذِهِ الْآيَةُ وَارِدَةٌ عَلَى سَبِيلِ الِاسْتِطْرَادِ عَقِبَ ذِكْرِ ظهور السَّوْءَاتِ وَخَصْفِ الْوَرَقِ عَلَيْهِمَا - (أى حين عصى آدم وحواء وبدت سوءاتهما ) – وردت الآية إظهاراً للمنة فيما خَلَقَ مِنَ اللِّبَاسِ، وَلِمَا فِي الْعُرْيِ وَكَشْفِ الْعَوْرَةِ مِنَ الْمَهَانَةِ وَالْفَضِيحَةِ، وَإِشْعَارًا بِأَنَّ السَّتْرَ بَابٌ عَظِيمٌ مِنْ أَبْوَابِ التَّقْوَى..

وَقَدْ خَرَّجْتُ ( أى السيوطي) عَلَى الِاسْتِطْرَادِ أيضاً قَوْلَهُ تَعَالَى: {لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْداً لِلَّهِ وَلا الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ}.. فَإِنَّ أَوَّلَ الْكَلَامِ ذُكِرَ لِلرَّدِّ عَلَى النَّصَارَى الزاعمين نبوة الْمَسِيحِ؛ ثُمَّ اسْتَطْرَدَ لِلرَّدِّ عَلَى الْعَرَبِ الزَّاعِمِينَ بُنُوَّةَ الْمَلَائِكَةِ..

الرابع: وَيَقْرُبُ مِنَ الِاسْتِطْرَادِ حَتَّى لَا يَكَادَانِ يَفْتَرِقَانِ ( حُسْنُ التَّخَلُّصِ)؛ وَهُوَ أَنْ يَنْتَقِلَ مِمَّا ابْتُدِئَ بِهِ الْكَلَامُ إِلَى الْمَقْصُودِ عَلَى وَجْهٍ سَهْلٍ يَخْتَلِسُهُ اخْتِلَاسًا دَقِيقَ الْمَعْنَى.. بِحَيْثُ لَا يَشْعُرُ السَّامِعُ بِالِانْتِقَالِ مِنَ الْمَعْنَى الْأَوَّلِ إِلَّا وَقَدْ وَقَعَ عَلَيْهِ المعنى الثَّانِي لِشِدَّةِ الِالْتِئَامِ والترابط بَيْنَهُمَا..

فَفِي القرآن مِنَ ( التَّخَلُّصَاتِ ) الْعَجِيبَةِ مَا يُحَيِّرُ الْعُقُولَ.

وَانْظُرْ إِلَى سُورَةِ الْأَعْرَافِ كَيْفَ ذُكِرَ فِيهَا الْأَنْبِيَاءُ وَالْقُرُونُ الْمَاضِيَةُ وَالْأُمَمُ السَّالِفَةُ ثُمَّ ذُكِرَ مُوسَى إِلَى أَنْ قَصَّ حِكَايَةَ السَّبْعِينَ رَجُلًا وَدُعَائِهِ لَهُمْ وَلِسَائِرِ أُمَّتِهِ بِقَوْلِهِ: {وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ} وَجَوَابُهُ تَعَالَى عَنْهُ...

ثُمَّ تَخَلَّصَ بِمَنَاقِبِ سَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ بَعْدَ ذكره لِأُمَّتِهِ بِقَوْلِهِ: {قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ} إلخ الآيات... مِنْ صِفَاتِهِمْ كَيْتَ وَكَيْتَ، وَهُمُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ... وَأَخَذَ فِي صِفَاتِهِ - صلى الله عليه وسلم - الْكَرِيمَةِ وَفَضَائِلِهِ...

وَفِي سُورَةِ الشُّعَرَاءِ حَكَى قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ: {وَلا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ} فَتَخَلَّصَ مِنْهُ إِلَى وَصْفِ الْمَعَادِ بِقَوْلِهِ: {يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ} الخ...

وَفِي سُورَةِ الْكَهْفِ حَكَى قَوْلَ ذِي الْقَرْنَيْنِ فِي السَّدِّ بَعْدَ دَكِّهِ ( سقوطه) الَّذِي هُوَ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ ثُمَّ ذكر النَّفْخ فِي الصُّورِ وَذَكَرَ الحشر، ووصف مآل الكفار وَالْمُؤْمِنِينَ.

وَقَالَ بَعْضُهُمُ: الْفَرْقُ بَيْنَ التَّخَلُّصِ وَالِاسْتِطْرَادِ أَنَّكَ فِي التَّخَلُّصِ تَرَكْتَ مَا كُنْتَ فِيهِ بِالْكُلِّيَّةِ، وَأَقْبَلْتَ عَلَى مَا تَخَلَّصْتَ إِلَيْهِ.. وَفِي الِاسْتِطْرَادِ تَمُرُّ بِذِكْرِ الْأَمْرِ الَّذِي اسْتَطْرَدْتَ إِلَيْهِ مُرُورًا كَالْبَرْقِ الْخَاطِفِ ثُمَّ تَتْرُكُهُ وَتَعُودُ إِلَى مَا كُنْتَ فِيهِ كَأَنَّكَ لَمْ تَقْصِدْهُ وَإِنَّمَا عَرَضَ عُرُوضًا (أي جاء هكذا في سياق الكلام لغرضٍ اقتضاه).

قِيلَ: وَبِهَذَا يَظْهَرُ أَنَّ مَا فِي سُورَتَيِ الْأَعْرَافِ وَالشُّعَرَاءِ مِنْ بَابِ الِاسْتِطْرَادِ لَا التَّخَلُّصِ لِعَوْدِهِ فِي الْأَعْرَافِ إِلَى قِصَّةِ مُوسَى بِقَوْلِهِ: {وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ} إلى آخره، وَفِي الشُّعَرَاءِ إِلَى ذِكْرِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْأُمَمِ.

* وَيَقْرُبُ مِنْ حُسْنِ التَّخَلُّصِ الِانْتِقَالُ مِنْ حَدِيثٍ إِلَى آخَرَ تَنْشِيطًا لِلسَّامِعِ مَفْصُولًا بِهَذَا الحديث الآخر.. كَقَوْلِهِ فِي سُورَةِ (ص) بَعْدَ ذِكْرِ الْأَنْبِيَاءِ: {هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ}.. لِمَا انْتَهَى ذِكْرُ الْأَنْبِيَاءِ؛ أَرَادَ أَنْ يَذْكُرَ نَوْعًا آخَرَ وَهُوَ ذِكْرُ الْجَنَّةِ وَأَهْلِهَا، ثُمَّ لَمَّا فَرَغَ قَالَ: {هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ} فَذَكَرَ النَّارَ وَأَهْلَهَا. قَالَ ابْنُ الْأَثِيرِ: هَذَا فِي هَذَا الْمَقَامِ مِنَ الْفَصْلِ الَّذِي هُوَ أَحْسَنُ مِنَ الْوَصْلِ وَهِيَ عَلَاقَةٌ أَكِيدَةٌ بَيْنَ الْخُرُوجِ مِنْ كَلَامٍ إِلَى كلامٍ آخَرَ..
* وَيَقْرُبُ مِنْ ذلك أَيْضًا (حُسْنُ الْمَطْلَبِ): وَهُوَ أَنْ يَخْرُجَ إِلَى الْغَرَضِ بَعْدَ تَقَدُّمِ الْوَسِيلَةِ والمدخل إليه كَقَوْلِهِ: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} فإنه قدّم العبادة التي هى وسيلة العبد إلى ربه على الاستعانة التي هى مطلوب العبد من ربه سبحانه..

قَالَ الطِّيبِيُّ: وَمِمَّا اجْتَمَعَ فِيهِ حُسْنُ التَّخَلُّصِ وَحسن الْمَطْلَبِ مَعًا قَوْلُهُ تعالى حِكَايَةً عَنْ إِبْرَاهِيمَ- عليه السلام: {فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ} (ثم شرع يصف ربه تعالى بما يليق به وينشر رسالته في تعليم الناس التوحيد) إِلَى قَوْلِهِ: {رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ}، (وهكذا فقد انتقل من وصف ربه وتسبيحه وحمده بصفاته إلى مطلبه ودعائه.. وهنا اجتمع حسن التخلص من ذكر براءته عليه السلام من الشرك وأهله إلى وصف ربه وذكر رسالته، ومنها إلى حسن المطلب والدعاء)..

[ فصل]

ومِنَ الْآيَاتِ مَا أَشْكَلَتْ مُنَاسَبَتُهَا لِمَا قَبْلَهَا... وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: { يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } (189 البقرة) فَقَدَ يُقَالُ أَيُّ رَابِطٍ بَيْنَ أَحْكَامِ الْأَهِلَّةِ وَبَيْنَ حُكْمِ إِتْيَانِ الْبُيُوتِ من أبوابها؟

وَأُجِيبَ: بِأَنَّهُ مِنْ بَابِ (الِاسْتِطْرَادِ ) (هو أن يذكر المتكلم غرضا و ينتقل منه إلى غرض أخر يناسب الغرض الأول , ثم يرجع إلى إتمام الغرض الأول.).. قيل: لِمَا ذَكَرَ أَنَّهَا مَوَاقِيتُ لِلْحَجِّ وَكَانَ هَذَا مِنْ أَفْعَالِهِمْ فِي الْحَجِّ كَمَا ثَبَتَ فِي سَبَبِ نُزُولِهَا ذَكَرَ مَعَهُ مِنْ بَابِ الزِّيَادَةِ فِي الْجَوَابِ عَلَى مَا فِي السُّؤَالِ [[15]](#footnote-15)؛ كَمَا سُئِلَ عَنْ مَاءِ الْبَحْرِ فَقَالَ: "هُوَ الطَّهُورُ مَاؤُهُ الْحِلُّ مَيْتَتُهُ" ( فتحليل ميتة البحر زائد على أصل السؤال عن حكم طهورية ماء البحر ولكنها الرحمة الربانية بزيادة العلم والخير )..] انتهى

هذه وجوه من أفانين المناسبات بين الآيات القرآنية وتنقلاتها بين غرضٍ وغرض.. وبين أسلوبٍ وأسلوب.. وخبرٍ وانشاءٍ.. وبين وصفٍ ووصفٍ.. ذكرها العلامة السيوطي مُفتّحاً للمتأملين آفاقاً رحيبةً لهذا العلم القرآني العظيم...

ثم يعود السيوطي ليواصل استعراض بعض هذه النواحي الاعجازية الرائعة في علم المناسبة القرآنية فيقول في باب مناسبات السور ووحدتها العضوية الإعجازية:

[ مِنْ هَذَا النَّوْعِ مُنَاسِبَةُ فَوَاتِحِ السُّوَرِ وَخَوَاتِمِهَا وَقَدْ أَفْرَدْتُ فِيهِ جُزْءًا لَطِيفًا سَمَّيْتُهُ: "مَرَاصِدَ الْمَطَالِعِ فِي تَنَاسُبُ الْمَقَاطِعِ وَالْمَطَالِعِ"

وَانْظُرْ إِلَى سُورَةِ الْقَصَصِ كَيْفَ بُدِئَتْ بِأَمْرِ مُوسَى وَنُصْرَتِهِ وَقَوْلِهِ بعد توبته إلى ربه: {فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ} وَخُرُوجِهِ مِنْ وَطَنِهِ.. وَخُتِمَتْ بِأَمْرِ النَّبِيِّ صَلَّى الله عليه وسلم بألا يَكُونَ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ وَتَسْلِيَتِهِ عَنْ إِخْرَاجِهِ مِنْ مَكَّةَ وَوَعْدِهِ بِالْعَوْدِ إِلَيْهَا لِقَوْلِهِ: فِي أَوَّلِ السُّورَةِ عن موسى عليه السلام {إِنَّا رَادُّوهُ إليك وجاعلوه من المرسلين}..

قَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ: وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ فَاتِحَةَ سُورَةِ {قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ} وَأَوْرَدَ فِي خَاتِمَتِهَا {إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ} فَشَتَّانَ مَا بَيْنَ الْفَاتِحَةِ وَالْخَاتِمَةِ! (يعني مقارنة ومقابلة حال المؤمنين وحال الكافرين ومآل كلٍ منهم)..

وَذِكَرَ الْكِرْمَانِيُّ فِي الْعَجَائِبِ مِثْلَهُ: وَقَالَ فِي سُورَةِ "ص" بَدَأَهَا بِالذِّكْرِ { ص، والقرآن ذي الذكر} وَخَتَمَهَا بِهِ فِي قَوْلِهِ: {إنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ}..

* وَمِنْ باب علم المناسبة مُنَاسَبَةُ فَاتِحَةِ السُّورَةِ لِخَاتِمَةِ السورة قَبْلَهَا..

حَتَّى إِنَّ مِنْهَا مَا يَظْهَرُ تَعَلُّقُهَا بِهِ لَفْظًا كَمَا فِي {فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ} {لِإِيلافِ قُرَيْشٍ}.. ( أى أنَّ ما حدث في وقعة الفيل ونصرة الله تعالى لبيته إنما كان لأجل رفع مكانة قريش بين الناس لأنهم ألفوا رحلتا الشتاء والصيف لمعاشهم فجعل الله هذه الحادثة ليثبت مكانهم بين العرب فيكون معاشهم وتجارتهم على أمنٍ من الناس ومكانةٍ.. فهى من باب تعليل افتتاح سورة قريش لسورة الفيل.. وهو من عظيم المناسبة للمتأملين)...

وَقَالَ الْكَوَاشِيُّ فِي تَفْسِيرِ الْمَائِدَةِ: لَمَّا خَتَمَ سورة النساء أمرا بِالتَّوْحِيدِ وَالْعَدْلِ بَيْنَ الْعِبَادِ { يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا}... الآيات إلى قوله تعالى { يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } (176 النساء).. أَكَّدَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ}..

وَقَالَ غَيْرُهُ: إِذَا اعْتَبَرْتَ افْتِتَاحَ كُلِّ سُورَةٍ وَجَدْتَهُ فِي غَايَةِ الْمُنَاسَبَةِ لِمَا خُتِمَ بِهِ السُّورَةُ قَبْلَهَا، ثُمَّ هُوَ يَخْفَى تَارَةً، وَيَظْهَرُ أُخْرَى.. كَافْتِتَاحِ سُورَةِ الْأَنْعَامِ بِالْحَمْدِ؛ فَإِنَّهُ مُنَاسِبٌ لِخِتَامِ الْمَائِدَةِ مِنْ فَصْلِ الْقَضَاءِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: {وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}..

وَكَافْتِتَاحِ سُورَةِ الْحَدِيدِ بِالتَّسْبِيحِ فَإِنَّهُ مُنَاسِبٌ لِخِتَامِ سُورَةِ الْوَاقِعَةِ بِالْأَمْرِ بِهِ..

وَكَافْتِتَاحِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ بِقَوْلِهِ: {الم ذَلِكَ الْكِتَابُ} فَإِنَّهُ إِشَارَةٌ إِلَى الصِّرَاطِ فِي قَوْلِهِ: {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ} كَأَنَّهُمْ لَمَّا سَأَلُوا الْهِدَايَةَ إِلَى الصِّرَاطِ قِيلَ لَهُمْ ذَلِكَ الصِّرَاطُ الَّذِي سَأَلْتُمُ الْهِدَايَةَ إِلَيْهِ هُوَ الْكِتَابُ وَهَذَا مَعْنًى حَسَنٌ يَظْهَرُ فِيهِ ارْتِبَاطُ سُورَةِ الْبَقَرَةِ بِالْفَاتِحَةِ..

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لِتَرْتِيبِ وَضْعِ السُّوَرِ فِي الْمُصْحَفِ أَسْبَابٌ تُطْلِعُ عَلَى أَنَّهُ تَوْقِيفِيٌّ صَادِرٌ عَنْ حَكِيمٍ:

أَحَدُهَا: بِحَسَبِ الْحُرُوفِ كَمَا في الحواميم..

الثاني: لموافقة أَوَّلُ السُّورَةِ لِآخَرِ مَا قَبْلَهَا كَآخِرِ الْحَمْدِ فِي الْمَعْنَى وَأَوَّلِ الْبَقَرَةِ كما بيّنا.

الثَّالِثُ: لِلتَّوَازُنِ فِي اللَّفْظِ كَآخِرِ "سورة المسد"، وَأَوَّلِ "الْإِخْلَاصِ"..{في جيدها حبل من مسد} { قل هو الله أحد}.

الرَّابِعُ: لِمُشَابِهَةِ جُمْلَةِ السُّورَةِ لِجُمْلَةِ الْأُخْرَى كالضحى وألم نَشْرَحْ.. ففيهما الخطاب متصل لرسول الله صلى الله عليه وسلم في بيان خصائصه الشريفة وفضل الله عليه.

حَكَى الْخَطَّابِيُّ أَنَّ الصَّحَابَةَ لَمَّا اجْتَمَعُوا عَلَى الْقُرْآنِ وَضَعُوا سُورَةَ الْقَدْرِ عَقِبَ الْعَلَقِ اسْتَدَلُّوا بِذَلِكَ عَلَى أَنَّ المراد بهاء الْكِنَايَةُ فِي قَوْلِهِ: {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ} الْإِشَارَةُ إِلَى قوله: "اقرأ" قال القاضي أبو بكر ابن الْعَرَبِيِّ: وَهَذَا بَدِيعٌ جِدًّا..

* وَمِنْ هَذَا النَّوْعِ مُنَاسَبَةُ أَسْمَاءِ السُّوَرِ لِمَقَاصِدِهَا..

وَفِي عَجَائِبِ الْكِرْمَانِيِّ إِنَّمَا سُمِّيَتِ السُّوَرُ السَّبْعُ حم عَلَى الِاشْتِرَاكِ فِي الِاسْمِ لِمَا بَيْنَهُنَّ مِنَ التَّشَاكُلِ الَّذِي اخْتُصَّتْ بِهِ، وَهُوَ أَنَّ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا اسْتَفْتَحَتْ بِالْكِتَابِ أَوْ صِفَةِ الْكِتَابِ مَعَ تَقَارُبِ الْمَقَادِيرِ فِي الطُّولِ وَالْقِصَرِ وَتُشَاكُلِ الْكَلَامِ فِي النِّظَامِ ].

ثم يطالعنا العلامة السيوطي بلطائف بارعة في تأمل مناسبات القرآن الاعجازية فيقول:

[ فِي تَذْكِرَةِ الشَّيْخِ تَاجِ الدِّينِ السبكي ومن خطه نقلتُ سُئل الْإِمَامُ: مَا الْحِكْمَةُ فِي افْتِتَاحِ سُورَةِ الْإِسْرَاءِ بِالتَّسْبِيحِ وَالْكَهْفِ بِالتَّحْمِيدِ؟

وَأَجَابَ: بِأَنَّ التَّسْبِيحَ حَيْثُ جَاءَ مُقَدَّمٌ عَلَى التَّحْمِيدِ نَحْوَ: {فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ} {سُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ} جاءت سورة الاسراء المُفتتَحة بالتسبيح مُقدَّمة في الترتيب على الكهف المفتتحة بالتحميد.. وَأَجَابَ ابْنُ الزَّمَلْكَانِيِّ: بِأَنَّ "سُورَةَ الاسراء" لَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَى الْإِسْرَاءِ الَّذِي كَذَّبَ الْمُشْرِكُونَ بِهِ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَتَكْذِيبُهُ تَكْذِيبٌ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، أَتَى "بِسُبْحَانَ الذي أسرى بعبده "؛ لِتَنْزِيهِ اللَّهِ تَعَالَى عَمَّا نُسِبَ إِلَى نَبِيِّهِ مِنَ الْكَذِبِ..

وَسُورَةُ الْكَهْفِ لَمَّا أُنْزِلَتْ بَعْدَ سُؤَالِ الْمُشْرِكِينَ عَنْ قِصَّةِ أَصْحَابِ الْكَهْفِ وَتَأَخُّرِ الْوَحْيِ؛ نَزَلَتْ مُبَيِّنَةً أَنَّ اللَّهَ لَمْ يَقْطَعْ نِعْمَتَهُ عَنْ نَبِيِّهِ وَلَا عَنِ الْمُؤْمِنِينَ بَلْ أَتَمَّ عَلَيْهِمُ النِّعْمَةَ بِإِنْزَالِ الْكِتَابِ فَنَاسَبَ افْتِتَاحَهَا بِالْحَمْدِ عَلَى هَذِهِ النِّعْمَةِ.

قلتُ: وهذا من بديع التدبر لكتاب الله تعالى...

فِي العجائب الكرماني: إِنْ قِيلَ: كَيْفَ جَاءَ "يَسْأَلُونَكَ" أَرْبَعَ مَرَّاتٍ بِغَيْرِ وَاوٍ {يَسْأَلونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ} {يَسْأَلونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ} {يَسْأَلونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ} {يَسْأَلونَكَ عَنِ الْخَمْرِ}.. ثُمَّ جَاءَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ بِالْوَاوِ: {وَيَسْأَلونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ} {وَيَسْأَلونَكَ عَنِ الْيَتَامَى} {وَيَسْأَلونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ}.. قُلْنَا لِأَنَّ سُؤَالَهُمْ عَنِ الْحَوَادِثِ الْأُوَلِ وَقَعَ مُتَفَرِّقًا وَعَنْ الْحَوَادِثِ الْأُخَرِ وَقَعَ فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ فجئ بِحِرَفِ الْجَمْعِ دَلَالَةً عَلَى ذَلِكَ..

فَإِنْ قِيلَ: كَيْفَ جَاءَ {وَيَسْأَلونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ} وعادة القرآن مجئ "قُلْ" فِي الْجَوَابِ بِلَا فَاءٍ؟ أجاب الْكِرْمَانِيُّ بِأَنَّ التَّقْدِيرَ: "لَوْ سُئِلَتْ عَنْهَا فَقُلْ"..

فَإِنْ قِيلَ: كَيْفَ جَاءَ {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ} وعادة السؤال يجئ جَوَابُهُ فِي الْقُرْآنِ "بِقُلْ"؟ قُلْنَا: حُذِفَتْ لِلْإِشَارَةِ إِلَى أَنَّ الْعَبْدَ في حالة الدُّعَاءِ فِي أَشْرَفِ الْمَقَامَاتِ لَا وَاسِطَةَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَوْلَاهُ سبحانه... انتهى [[16]](#footnote-16)

انتهى كلام العلامة السيوطي من كتابه الرائع الاتقان وقد اختصرته، وشرحته، وحذفت ما رأيت فيه التكلف، وزدت عليه لتسهيل مادته العلمية ونشرها.. ولعل هذا المبحث طال ولكن لأهميته في سورة البقرة الطويلة المتشعبة المختلفة الموضوعات المتفننة في التنقلات بين المواضيع والأساليب والأحكام ومناحي الخطاب...ولقد منَّ الله سبحانه علينا بمادةٍ جيدةٍ فيه دهشت كثيراً من روعتها، ولعل باحثين ومؤلفين آخرين يمن الله عليهم فيزدادوا بحثا عن أسرار هذه العلوم الشريفة في القرآن ليبينوا للناس أوجهاً من عظمة هذا القرآن المجيد...

ما هو سر ترتيب سورة البقرة بعد الفاتحة مباشرة في المصحف الشريف.. وهو ترتيب توقيفي كما هو معلوم؟

سورة البقرة هي أطول سور القرآن كلها، ولقد تضمّنت هذه السورة – بسبب طولها – مقاطع كثيرة فيها قواعد كلية وفروع تفصيلية لابدّ من الإشارة إليها إجمالاً قبل الخوض في شرح مفرداتها وتفسير معانيها.

وإن أعجب ما في هذه السورة أنها – رغم طولها وإسهابها وتنوّع أغراضها – تدور حول محور أساسي يكاد يكون ثابتاً: وهو هدى القرآن تتبايَنُ إزاءه مواقفُ الناس، من متّقين مفلحين، وكَفَرةٍ خاسرين، ومنافقين مُفْسِدين. وعلى رسم هذه المواقف وتحليل سماتها، انطوى من أول السورة مقطع غير قليل.

الحقيقة أن المحور الرئيس الذي التفت حوله هذه السورة الكريمة هو بيان ذلك ( الصراط المستقيم ) ورسم قسمات عملية واقعية واضحه له على مدى تنقلاتها الكثيرة وأحكامها المفصلة العميقة..

ومن ثم تتعرض السورة لبيان مواقف الناس من هذا الصراط فتوضح صفات الذين هداهم الله هذا الصراط المستقيم.. وتنتقل بعده لتفضح صفات الضالين عن هذا الصراط.. والمنتكسين على أعقابهم بعد هدايتهم.. وبذلك تفي الآيات بوعدها في بيان طريق الهداية والتحذير من طريق المغضوب عليهم والضالين..

هؤلاء الذين كان القرآن لهم هدى هم المتقون الذين يخافون ربهم ويتقونه بامتثال أمره واجتناب نهيه.. وكان فيهم ما به يقوم الصراط المستقيم من الأعمال القلبية والبدنية والمالية؛ فهم (الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (3) والذين يؤمنون بما أنزل إليك... إلى قوله:" هم المفلحون" (5) الآيات).. وهم على عكس تلك الفئة الهالكة الذين كفروا فلا ينفع فيهم إنذار لأنهم ختم الله على قلوبهم فلا تصلهم هداية بكفرهم وعنادهم.. أما هؤلاء الذين لم يصدقوا في إخلاصهم في اتباع الصراط المستقيم هؤلاء الدعين المنافقين الذين يقولون {.. آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ (8) } [البقرة: 8، 9].. فضح الله حالهم بما يحذر من شكهم وحيرتهم ونفاقهم.. وإنما أطال السياق في ذكر المنافقين لأنهم أخطر وأشد تشكيكا للمؤمنين في صراطهم المستقيم الذي يطلبونه..

أعقب ذلك ببيان غاية وهاية هذا الصراط وهو التوحيد الذي خلق الله لأجله العالمين، فاستدل ببديع المخلوق على توحيد الخالق.. {الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (22)} [البقرة: 22]..

ثم أعقب بابتداء الخلق وقصة بدء الخليقة وصراع آدم وإبليس اللعين.. صراعا يبين أن من أشد المعوقات في طريق اهتدائنا للصراط والسير فيه هو الشيطان اللعين: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً } [البقرة: 30].. تحذيرا من عداوة الشيطان ومكره الأبدي بنا.. وتعليما لمن يرتاد هذا الصراط المستقيم أن باب التوبة الذي فتح لآدم عليه السلام مفتوح لكل من زاغ قليلا عن الصراط..

ثم ذكر أحوال بني إسرائيل وإمهالهم على مرتكباتهم ومعاملتهم بالعفو والإقالة وذلك مبين سعة رحمته، وأعلم تعالى أن أفعالهم تلك مما أعقبهم أن "ضربت عليهم الذلة والمسكنة وباؤوا بغضب من الله " (البقرة: 61).. تحذيرا لمن طلب سلوك الطريق المستقيم من حالهم، وإعلاما لعباده أن المتقين المستجاب لهم عند قولهم "اهدنا الصراط المستقيم" ليسوا في شيء من ذلكم المتنكبين عن الصراط المستقيم من اليهود الهالكين.

ثم أعقب تعالى تفصيل أحوال آباء هؤلاء المتقين.. أهل الصراط المستقيم الأولون وقدوة كل السالكين فيه..بقوله: "وإذا ابتلى إبراهيم ربه "البقرة 124) ليبين أحوال المصطفين من أهل الصراط، فأنبأ تعالى بحال إبراهيم، وإتمام ما ابتلاه به من غير توقف ولا بحث عن علة، وهي أسنى أحوال العباد، {وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (132) } [البقرة: 132، 133].. فهذا هو الصراط المستقيم الممتد في عرض التاريخ وطوله.. صراط النبيين والصديقين والشهداء.. صراط الموحدين المتقين.. والشعار دائماً {قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (136) } [البقرة: 136، 137]..لأن اليهود والنصارى نكبوا عن الصراط وانحرفوا عن جادة الإسلام جاء التلميح بانحرافهم والتحذير منه.. والنفى القاطع لاتباعهم جادة ابراهيم وأتباعه المسلكين المفلحين.. فالصراط المستقيم حال إبراهيم عليه السلام ومن ذكر من الأنبياء والرسل.. "أولئك الذين هدى الله " (الأنعام 95) وهم المنعم عليهم.

ثم ذكّرهم بوحدانيته تعالى والتي فرط فيها الناكبون المنحرفون عن الصراط.. "وإلهكم إله واحد" الآية (البقرة: 163).. ثم نبه مرةً أخرى على الاعتبار في خلق السماوات والأرض ودلائل التوحيد، وبيّن حال من اعتمد سواه جل وتعالى فقال: "إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا" (البقرة: 166).. وبيَّن السياق سوء حال المشركين وأنهم لاحقون باليهود والنصارى في انحرافهم عن الصراط المستقيم وحيدتهم عن الجادة، والزيغ عن الهدى شامل للكل، وليسوا في شيء من الصراط المستقيم، مع أن أسوأ الأحوال حال من أضله الله على علم كاليهود والنصارى).. {ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (176) } [البقرة: 176].

ثم ذكر تعالى من أول آية "ليس البر" (177) ما لزم – المتقين من أعمال التقوى ومعالم الصراط المستقيم..

وترغيباً للناس في اتّباع سبيل المتقين المهتدين، تتمهّل السورة في عرض نماذج من الوصايا الدينية، وصور من التكاليف الشرعية: فمن دعوة إلى التحلي بخصال العابدين، وانتظار البشارة بما وعد الله أولئك السعداء من النعيم المقيم، إلى افتراض الفرائض، وتحديد الأوامر، وإلقاء التبعات على عواتق المؤمنين.

ففي سورة البقرة نتلو آيات تحضّنا على إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت، وآيات أخرى تحرّم علينا الخمر والميسر، وأكل أموال الناس بالباطل، وأكل الربا ومزاولة السحر، ومقاربة النساء في ظروف معينة، ونكاح المؤمنين المشركات وتزويج المشركين المؤمنات، وإثارة الفتن بتهديد الحرّيّات والإكراه في الدين، ومقاطع تتفاوت إطناباً وإيجازاً توضح أحكام القتال والقصاص في القتلى، والوصيّة للوالدين والأقربين، معاملة اليتامى ومخالطتهم في المعيشة، والنفقات والمستحقين لها من الناس، وقضايا الزوجية والطلاق والرضاعة والعدّة وخِطْبة المعتدّة ونفقتها ومتعة المطلّقة والإيلاء من النساء، وكتابة الدّيْن والإشهاد عليه، وأداء الرهان، ومسائل الأَيْمان والعفو عن يمين اللغو... كل ذلك بأسلوب يجمع إلى دقة الفقه والتشريع أجملَ التوجيه وأحلاه، في قصة تُحْكَى أو واقعة تُرْوَى، أو موعظة مؤثّرة تمسّ شغاف القلوب.

ويعود في خلال ذلك كله ليذكر المؤمنين مراراً ويحذرهم الذين انحرفوا عن الصراط {سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (211) زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا.. } [البقرة: 211، 212].. وما ذلك إلا لأن الصراط المستقيم على وضوحه كثير العوائق صعب على غير المتقين المثابرين فيه والأعداء على جانبيه كثير تريد من المؤمنين الزلل كل لحظة.. {أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (108) وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (109) وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (110) } [البقرة: 108 - 111].. فلعل هذه الآية تلخص كثيراً لماذا كثر ذكر المتنكبين عن الصراط من بني إسرائيل...

ولكي يتمّ التناسق بين البدء والختام، انتهت السورة بمثل ما استُهِلّت به من عرض تحليلي لخصال المؤمنين المتقين الذين وُصفوا في المطلع بأنهم يؤمنون بما أنزل إلى محمد r وما أنزل من قبله، وبالآخرة هم يوقنون، ثم وُصفوا في الخاتمة بأنهم يؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله، ولا يفرّقون بين أحد من رسله، ويقولون: "سمعنا وأطعنا، غفرانك ربنا، وإليك المصير". ويبتهلون إلى الله في دعاء ضارع مستغيث: أن يخفّف عنها التكاليف والآصار، ويكتب لها النصر على القوم الكافرين. وهكذا دارت السورة بدءاً ووسطاً وختاماً حول موضوع واحد منسجم متناغم، يصوّر بوجه عام مواقفَ الناس إزاء هداية القرآن، ويبين معالم الصراط المستقيم الذي يطلب المؤمنون من ربهم الهداية إليه كل حين.. ويعتني بوجه خاص بتصوير أدق اللمحات للمتقين الذين اهتدوا بوحي القرآن، وآمنوا بالله أخلص الإيمان، وتحملوا تكاليف الدين في خضوع وإذعان.. هذا إيمان الرسول ومن كان معه على إيمانه وأنهم قالوا:"سمعنا وأطعنا".. لا كقول بني إسرائيل "سمعنا عصينا".

فحصل من هذه السورة بأسرها بيان الصراط المستقيم على الاستيفاء والكمال.. أخذاً وتركاً، وبيان شرف من أخذ به، وسوء حال من تنكب عنه، وكأن العباد لما علّمهم الله تعالى أن يقولوا " اهدنا الصراط المستقيم "، قيل لهم عليكم بالكتاب الذي لا ريب فيه إجابة لسؤالهم، ثم - بين لهم حال من سلك ما طلبوه، فكأن قد قيل لهم أهل الصراط المستقيم وسالكوه هم الذين من شأنهم وأمرهم، والمغضوب عليهم من المتنكبين هم اليهود الذين من أمرهم وشأنهم، والضالون هم النصارى الذين من شأنهم وأمرهم.

فيجب على من رغب في سلوك الصراط المستقيم أن يحذر ما أصاب هؤلاء مما نبه عليه وأن يأخذ نفسه بكذا وكذا، وأن ينسحب إيمانه على كل ذلك، وأن يسلم الأمر لله الذي يَطلب منه الهداية ويتضرع إليه بأن لا يواخذه لما يثمره الخطأ والنسيان وألا يُحمّله ما ليس في وسعه وأن يعفو عنه.

فما أجمل ما اجتمعت عليه هذه السورة المباركة على تنوع مواضيعها وتنقلها البديع من غرض لغرض ومن معنىً لمعنى، ومن أسلوبٍ لآخر.. بلاغةً وفصاحةً وطلباً للانتباه الدائم ودفعا للملل..

القرآن المكي والمدني في النزول؟!.

اصطلح أكثر المحققين من أهل علوم القرآن أن القرآن العظيم من حيث زمن نزوله وتوجهات خطابه ينقسم إلى (القرآن المكي ) وهو ما نزل قبل هجرته صلى الله عليه وسلم إلى المدينة؛ وإن كان نزوله بغير مكة، ويتميز خطابه بإرسائه للأصول العقدية والأخلاقية الأساسية في بناء الدعوة الإسلامية إذ أن الخطاب في تلك الفترة كان موجهاً للمهد الأول لدعوة الإسلام في مكة المكرمة وما حولها، واهتم الخطاب القرآني في تلك الفترة بالدعوة المجردة إلى التوحيد وتصحيح مفاهيم الاعتقاد ونبذ خرافات الاستعباد والأخلاق والعادات الردية السائدة في المجتمع الجاهلي.

ولأن المقصودين بالخطاب هم منبع الفصاحة والبيان جاء القرآن يخاطبهم بما برعوا فيه من أفانين الفصاحة والبلاغة.. يتحداهم ببديع نظمه وعجيب تركيبه وروعة معانيه.. ليكون القرآن هو عين معجزة محمد صلى الله عليه وسلم الخالدة أبد الدهر.. لذلك نلحظ في القرآن المكي روعة البلاغة وبديع الفصاحة في آياتٍ تتميز بالايجاز والقصر والأداء البلاغي المعجز الذي تملأه القوراع والتنبيهات والتنقل السريع بين المعاني والأساليب بين انشاءٍ وخبر وقصصٍ وحجاج عقلي يواجه العقل والمنطق وصيحاتٍ خطابية تدغدغ العاطفة والوجدان..كما تكثر فيه أساليب العرب الفصيحة في الحديث من قسمٍ وأمثالٍ ووجوه بيانٍ وتشابيه من محيط بيئتهم.. وهنا نتوقف أمام إعجاز القرآن في موائمته ومناسبته الأسلوبية البيانية لطبيعة وثقافة وبيئة المقصودين بالخطاب.. حتى إذا عطفت القرآن بعضه إلى بعضٍ وتدبرته جيداً وجدته يخاطب كل أحدٍ في كل زمانٍ ومكانٍ كأنه أنزل فيه وإليه.. فما أروعه من إعجازٍ وروعة للقرآن بين خصوص خطابه وعمومه يدركها المتأملون في لغة وخطاب القرآن العظيم.

يقول العلامة الزرقاني في المناهل:

من خواص القسم المكي أنه قد كثر فيه ما يأتي:

أولا: أنه حمل حملة شعواء على الشرك والوثنية وعلى الشبهات التي تذرع بها أهل مكة للإصرار على الشرك والوثنية ودخل عليهم من كل باب وأتاهم بكل دليل وحاكمهم إلى الحس وضرب لهم أبلغ الأمثال حتى انتهى بهم إلى أن تلك الآلهة المزيفة لا تقدر أن تخلق مجتمعة أقل نوع من الذباب بل لا تستطيع أن تدفع عن نفسها شر عادية الذباب وقال: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ}.

ولما عاندوا واحتجوا بما كان عليه آباؤهم نعى عليهم أن يمتهنوا كرامة الإنسان إلى هذا الحضيض من الذلة للأحجار والأصنام وسفه أحلامهم وأحلام آبائهم الذين أهملوا النظر في أنفسهم وفي آيات الله في الآفاق وقبح إليهم الجمود على هذا التقليد الأعمى للآباد والأجداد {أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلا يَهْتَدُونَ}. وناقشهم كذلك في عقائدهم الضالة التي نجمت عن تلك الوثنية من جحود الإلهيات والنبوات وإنكار البعث والمسؤولية والجزاء.

ثانيا: أنه فتح عيونهم على ما في أنفسهم من شواهد الحق وعلى ما في الكون من أعلام الرشد ونوع لهم في الأدلة وتفنن في الأساليب وقاضاهم إلى الأوليات والمشاهدات ثم قادهم من وراء ذلك قيادة راشدة حكيمة إلى الاعتراف بتوحيد الله في ألوهيته وربوبيته والإيمان بالبعث ومسؤوليته والجزاء العادل ودقته ثم التسليم بالوحي وبكل ما جاء به الوحي من هدي الله في الإلهيات والنبوات والسمعيات في العقائد على سواء.

ثالثا: أنه تحدث عن عاداتهم القبيحة كالقتل وسفك الدماء ووأد البنات واستباحة الأعراض وأكل مال الأيتام. فلفت أنظارهم إلى ما في ذلك من أخطار وما زال بهم حتى طهرهم منها ونجح في إبعادهم عنها.

رابعا: أنه شرح لهم أصول الأخلاق وحقوق الاجتماع شرحا عجيبا كره إليهم الكفر والفسوق والعصيان وفوضى الجهل وجفاء الطبع وقذارة القلب وخشونة اللفظ وحبب إليهم الإيمان والطاعة والنظام والعلم والمحبة والرحمة والإخلاص واحترام الغير وبر الوالدين وإكرام الجار وطهارة القلوب ونظافة الألسنة إلى غير ذلك.

خامسا: أنه قص عليهم من أنباء الرسل وأممهم السابقة ما فيه أبلغ المواعظ وأنفع العبر من تقرير سننه تعالى الكونية في إهلاك أهل الكفر والطغيان وانتصار أهل الإيمان والإحسان مهما طالت الأيام وامتد الزمان ما داموا قائمين بنصرة الحق وتأييد الإيمان.

سادسا: أنه سلك مع أهل مكة سبيل الإيجاز في خطابه حتى جاءت السور المكية قصيرة الآيات صغيرة السور. لأنهم كانوا أهل فصاحة ولسن صناعتهم الكلام وهمتهم البيان فيناسبهم الإيجاز والإقلال دون الإسهاب والإطناب.

كما أن قانون الحكمة العالية قضى بأن يسلك سبيل التدرج والارتقاء في تربية الأفراد وأن يقدم الأهم على المهم. ولا ريب أن العقائد والأخلاق والعادات، أهم من ضروب العبادات ودقائق المعاملات لأن الأولى كالأصول بالنسبة للثانية لذلك كثر في القسم المكي التحدث عنها والعناية بها كما علمت في الخواص الماضية جريا على سنة التدرج من ناحية وتقديما للأهم على المهم من ناحية أخرى.ا.ه.[[17]](#footnote-17)

.. و أما (القرآن المدني) فهو ما نزل بعد هذه الهجرة؛ وإن كان نزوله بمكة.. وفي هذه الآيات التي نزلت بعد وجود كيان واضح للأمة المسلمة ولمدينتها الفاضلة ودولتها الربانية.. هنا ينتقل الخطاب من مجرد إرساء القواعد الاعتقادية والأخلاقية لهذا الدين إلى بناء الأمة المسلمة على أسس تشريعية وحضارية واضحة مفصلة.. وهنا أيضاً في مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم يحدث الاحتكاك بين الإسلام والمسلمين الأوائل وبين الديانات السابقة على الإسلام لكى تثبت الدعوة المحمدية أنها الموجة التصحيحية الأكبر والأهم لانحرافات أهل الكتاب عن حقيقة دين الإسلام الذي جاء به كل الرسل والأنبياء كما قال تعالى موضحا هذه المفاصلة بين دين الحق وبين تحريفات وانحرافات أهل الكتاب عن الحق.. {وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ (145) الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (146) الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ } [البقرة: 145-147].. وفي القرآن المدني تجد آثار هذا الجدل بين الدعوة الإسلامية وبين دعاوى ديانات أهل الكتابين المحرَّفة...

يتميز الخطاب المدني بسمةٍ واضحةٍ تعكس انتقال دعوة الإسلام من طور المحلية لمكة وما حولها الى طور العالمية.. ويتميز كذلك بوضوح تفاصيل مكتملة لملامح الشريعة الإسلامية الخاتمة..

[فمن خواص القسم المدني من القرآن أنه قد كثر فيه ما يأتي:

أولا: التحدث عن دقائق التشريع وتفاصيل الأحكام وأنواع القوانين المدنية والجنائية والحربية والاجتماعية والدولية والحقوق الشخصية وسائر ضروب العبادات والمعاملات. انظر إن شئت في سورة البقرة والنساء والمائدة والأنفال والقتال والفتح والحجرات ونحوها.

ثانيا: دعوة أهل الكتاب من يهود ونصارى إلى الإسلام ومناقشتهم في عقائدهم الباطلة وبيان جناياتهم على الحق وتحريفهم لكتب الله ومحاكمتهم إلى العقل والتاريخ. اقرأ إن شئت سورة البقرة وآل عمران والمائدة والفتح ونحوها.

ثالثا: سلوك الإطناب والتطويل في آياته وسوره. وذلك لأن أهل المدينة لم يكونوا يضاهئون أهل مكة في الذكاء والألمعية وطول الباع في باحات الفصاحة والبيان فيناسبهم الشرح والإيضاح وذلك يستتبع كثيرا من البسط والإسهاب لأن دستور البلاغة لا يقوم إلا على رعاية مقتضيات الأحوال وخطاب الأغبياء بغير ما يخاطب به الأذكياء. {وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ} ا.ه..[[18]](#footnote-18)

أحسن الشيخ ولكني اختلف معه حين قال: أن أهل المدينة لم يكونوا يضاهئون أهل مكة في الذكاء والألمعية وطول الباع في باحات الفصاحة والبيان فيناسبهم الشرح والإيضاح..

وأقول: لم يكن هناك شك في عربية أهل المدينة وفصاحتهم وفهمهم، ولكن لما كان الغرض اثبات معجزة القرآن وتحديه للمشركين من أجل إثبات صحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم في المرحلة المكية كان الخطاب أوجز وأقرب إلى التفنن في ضروب البلاغة والفصاحة لبيان الإعجاز واثبات النبوة وأدعى لكسر عنادهم وشركهم.. وأما المرحلة المدنية فكان الخطاب لأهل الإيمان في معظمه ومن ثم وافق أن يكون دستوراً مفصلاً مشروحا لحياتهم، وهنا ينتفي داعي الايجاز.. فجاءت عظمة الأسلوب وروعة الخطاب في مناسبته للمخاطبين وظروف الدعوة مناسبةً إعجازية ربانية رائعة...

ولأن القرآن بعظمته الراقية يتناسب فيه مستوى وطبيعة الخطاب مع زمان ومكان وظروف وحال المخاطبين وطبيعة المرحلة التي تمر بها الدعوة الإسلامية في عمرها.. نجد هذا التنوع والمناسبة في الخصائص العامة لموضوعات وأساليب الخطاب في كلا العهدين المكي والمدني.. " آمنا به كل من عند

ربنا ".

ما هى حكمة ترتيب سورة البقرة في النزول في أول ما نزل بعد الهجرة المباركة؟

قَالَ الْإِمَامُ الرَّازِيُّ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ [[19]](#footnote-19): وَمَنْ تَأَمَّلَ فِي لَطَائِفِ نَظْمِ هَذِهِ السُّورَةِ وَفِي بَدَائِعِ تَرْتِيبِهَا عَلِمَ أَنَّ الْقُرْآنَ كَمَا أَنَّهُ مُعْجِزٌ بِحَسْبِ فَصَاحَةِ أَلْفَاظِهِ وَشَرَفِ مَعَانِيهِ؛ فَهُوَ أَيْضًا بِسَبَبِ تَرْتِيبِهِ وَنَظْمِ آيَاتِهِ.. وَلَعَلَّ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّهُ مُعْجِزٌ بِسَبَبِ أُسْلُوبِهِ أَرَادُوا ذَلِكَ؛ إِلَّا أَنِّي رَأَيْتُ جُمْهُورَ الْمُفَسِّرِينَ معرضين عن هَذِهِ اللَّطَائِفِ غَيْرَ مُنْتَبِهِينَ لِهَذِهِ الْأَسْرَارِ.. وَلَيْسَ الْأَمْرُ فِي هَذَا الْبَابِ إِلَّا كَمَا قِيلَ:

وَالنَّجْمُ تَسْتَصْغِرُ الْأَبْصَارُ صُورَتَهُ وَالذَّنْبُ لِلطَّرْفِ لَا لِلنَّجْمِ فِي الصِّغَرِ.

قلنا واستعرضنا في جولة سريعة كيف أن سورة البقرة برمتها تبين وتفصل ذلك الصراط المستقيم الذي يطلبه المؤمنون في سورة الفاتحة قبلها.. وإن هذا ليبين سر ترتيبها في المصحف بعد الفاتحة..

وأما عن سر نزولها في أول ما نزل بعد الهجرة يقول الأستاذ سيد قطب رحمه الله في ظلال القرآن (1/ 28-34) ما مختصره:

هذه السورة تضم عدة موضوعات. ولكن المحور الذي يجمعها كلها محور واحد مزدوج يترابط الخطان الرئيسيان فيه ترابطا شديدا.. فهي من ناحية تدور حول موقف بني إسرائيل من الدعوة الإسلامية في المدينة، واستقبالهم لها، ومواجهتهم لرسولها - صلى الله عليه وسلم- وللجماعة المسلمة الناشئة على أساسها...

وسائر ما يتعلق بهذا الموقف بما فيه تلك العلاقة القوية بين اليهود والمنافقين من جهة، وبين اليهود والمشركين من جهة أخرى.. وهي من الناحية الأخرى تدور حول موقف الجماعة المسلمة في أول نشأتها وإعدادها لحمل أمانة الدعوة والخلافة في الأرض، بعد أن تعلن السورة نكول بني إسرائيل عن حملها، ونقضهم لعهد الله بخصوصها، وتجريدهم من شرف الانتساب الحقيقي لإبراهيم - عليه السلام- صاحب الحنيفية الأولى، وتبصير الجماعة المسلمة وتحذيرها من العثرات التي سببت تجريد بني إسرائيل من هذا الشرف العظيم..

وكل موضوعات السورة تدور حول هذا المحور المزدوج بخطيه الرئيسيين، كما سيجيء في استعراضها التفصيلي.

ولكي يتضح مدى الارتباط بين محور السورة وموضوعاتها من جهة، وبين خط سير الدعوة أول العهد بالمدينة، وحياة الجماعة المسلمة وملابساتها من الجهة الأخرى.. يحسن أن نلقي ضوءا على مجمل هذه الملابسات التي نزلت آيات السورة لمواجهتها ابتداء. مع التنبيه الدائم إلى أن هذه الملابسات في عمومها هي الملابسات التي ظلت الدعوة الإسلامية وأصحابها يواجهونها- مع اختلاف يسير- على مر العصور وكر الدهور من أعدائها وأوليائها على السواء. مما يجعل هذه التوجيهات القرآنية هي دستور هذه الدعوة الخالد ويبث في هذه النصوص حياة تتجدد لمواجهة كل عصر وكل طور ويرفعها معالم للطريق أمام الأمة المسلمة تهتدي بها في طريقها الطويل الشاق، بين العداوات المتعددة المظاهر المتوحدة الطبيعة.. وهذا هو الإعجاز يتبدى جانب من جوانبه في هذه السمة الثابتة المميزة في كل نص قرآني.

لقد تمت هجرة الرسول - صلى الله عليه وسلم- إلى المدينة بعد تمهيد ثابت وإعداد محكم. تمت تحت تأثير ظروف حتمت هذه الهجرة وجعلتها إجراء ضروريا لسير هذه الدعوة في الخط المرسوم الذي قدره الله لها بتدبيره..

ولقد سبق الاتجاه إلى يثرب (المدينة)، لتكون قاعدة للدعوة الجديدة، عدة اتجاهات.. سبقها الاتجاه إلى الحبشة، حيث هاجر إليها كثير من المؤمنين الأوائل... وربما كان وراء هذه الهجرة أسباب أخرى.. ولكن مثل هذه الأسباب لا ينفي احتمال أن تكون الهجرة إلى الحبشة أحد الاتجاهات المتكررة في البحث عن قاعدة حرة، أو آمنة على الأقل للدعوة الجديدة.

كذلك يبدو اتجاه الرسول - صلى الله عليه وسلم- إلى الطائف محاولة أخرى لإيجاد قاعدة حرة أو آمنة على الأقل للدعوة.. وهي محاولة لم تكلل بالنجاح لأن كبراء ثقيف استقبلوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم- أسوأ استقبال، وسلطوا عليه سفهاءهم وصبيانهم يرجمونه بالحجارة، حتى أدموا قدميه الشريفتين، ولم يتركوه حتى آوى إلى حائط (أي حديقة) لعتبة وشيبة ابني ربيعة.. وهناك انطلق لسانه بذلك الدعاء الخالص العميق: «اللهم أشكو إليك ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس. يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين وأنت ربي. إلى من تكلني؟ إلى عدو ملكته أمري! أم بعيد يتجهمني؟ إن لم يكن بك غضب عليّ فلا أبالي. ولكن عافيتك أوسع لي. أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت به الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، أن تنزل بي غضبك، أو تحل علي سخطك. لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلّا بك».

بعد ذلك فتح الله على الرسول - صلى الله عليه وسلم- وعلى الدعوة من حيث لا يحتسب، فكانت بيعة العقبة الأولى، ثم بيعة العقبة الثانية..

وأخذ المسلمون في مكة يهاجرون إلى المدينة تباعا، تاركين وراءهم كل شيء، ناجين بعقيدتهم وحدها، حيث لقوا من إخوانهم الذين تبوأوا الدار والإيمان من قبلهم، من الإيثار والإخاء ما لم تعرف له الإنسانية نظيرا قط. ثم هاجر رسول الله - صلى الله عليه وسلم- وصاحبه الصديق. هاجر إلى القاعدة الحرة القوية الآمنة التي بحث عنها من قبل طويلا.. وقامت الدولة الإسلامية في هذه القاعدة منذ اليوم الأول لهجرة الرسول- صلى الله عليه وسلم.

من أولئك السابقين من المهاجرين والأنصار تكونت طبقة ممتازة من المسلمين نوه القرآن بها في مواضع كثيرة. وهنا نجد السورة تفتتح بتقرير مقوّمات الإيمان، وهي تمثل صفة المؤمنين الصادقين إطلاقا. ولكنها أولا تصف ذلك الفريق من المسلمين الذي كان قائما بالمدينة حينذاك: «ألم ذلِكَ الْكِتابُ لا رَيْبَ فِيهِ، هُدىً لِلْمُتَّقِينَ، الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ، وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ، وَمِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ. » الآيات..

ثم نجد بعدها مباشرة في السياق وصفا للكفار وهو يمثل مقومات الكفر على الإطلاق. ولكنه أولا وصف مباشر للكفار الذين كانت الدعوة تواجههم حينذاك، سواء في مكة أو فيما حول المدينة ذاتها من طوائف الكفار: «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَواءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ. »..

ذلك كانت هناك طائفة المنافقين. ووجود هذه الطائفة نشأ مباشرة من الأوضاع التي أنشأتها الهجرة النبوية إلى المدينة في ظروفها التي تمت فيها، والتي أشرنا إليها من قبل ولم يكن لها وجود بمكة. فالإسلام في مكة لم تكن له دولة ولم تكن له قوة، بل لم تكن له عصبة يخشاها أهل مكة فينافقونها.. فأما في يثرب التي أصبحت منذ اليوم تعرف باسم المدينة- أي مدينة الرسول- فقد أصبح الإسلام قوة يحسب حسابها كل أحد ويضطر لمصانعتها كثيرا أو قليلا- وبخاصة بعد غزوة بدر وانتصار المسلمين فيها انتصارا عظيما- وفي مقدمة من كان مضطرا لمصانعتها نفر من الكبراء، دخل أهلهم وشيعتهم في الإسلام وأصبحوا هم ولا بد لهم لكي يحتفظوا بمقامهم الموروث بينهم وبمصالحهم كذلك أن يتظاهروا باعتناق الدين الذي اعتنقه أهلهم وأشياعهم.

ومن هؤلاء عبد الله بن أبي بن سلول الذي كان قومه ينظمون له الخرز ليتوجوه ملكا عليهم قبيل مقدم الإسلام على المدينة..

وسنجد في أول السورة وصفا مطولا لهؤلاء المنافقين، ندرك من بعض فقراته أن المعنيّ بهم في الغالب هم أولئك الكبراء الذين أرغموا على التظاهر بالإسلام، ولم ينسوا بعد ترفعهم على جماهير الناس، وتسمية هذه الجماهير بالسفهاء على طريقة العلية المتكبرين!: «وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَما هُمْ بِمُؤْمِنِينَ. يُخادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا، وَما يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَما يَشْعُرُونَ. » الآيات..

وفي ثنايا هذه الحملة على المنافقين- الذين في قلوبهم مرض- نجد إشارة إلى «شَياطِينِهِمْ». والظاهر من سياق السورة ومن سياق الأحداث في السيرة أنها تعني اليهود، الذين تضمنت السورة حملات شديدة عليهم فيما بعد. أما قصتهم مع الدعوة فنلخصها في هذه السطور القليلة:

لقد كان اليهود هم أول من اصطدم بالدعوة في المدينة وكان لهذا الاصطدام أسبابه الكثيرة.. كان لليهود في يثرب مركز ممتاز بسبب أنهم أهل كتاب بين الأميين من العرب- الأوس والخزرج- ومع أن مشركي العرب لم يظهروا ميلا لاعتناق ديانة أهل الكتاب هؤلاء، إلا أنهم كانوا يعدونهم أعلم منهم وأحكم بسبب ما لديهم من كتاب. ثم كان هنالك ظرف موات لليهود فيما بين الأوس والخزرج من فرقة وخصام- وهي البيئة التي يجد اليهود دائما لهم فيها عملا! - فلما أن جاء الإسلام سلبهم هذه المزايا جميعا.. فلقد جاء بكتاب مصدق لما بين يديه من الكتاب ومهيمن عليه. ثم إنه أزال الفرقة التي كانوا ينفذون من خلالها للدس والكيد وجر المغانم، ووحد الصف الإسلامي الذي ضم الأوس والخزرج، وقد أصبحوا منذ اليوم يُعرفون بالأنصار، إلى المهاجرين، وألف منهم جميعا ذلك المجتمع المسلم المتضام المتراص الذي لم تعهد له البشرية من قبل ولا من بعد نظيرا على الإطلاق.

ولقد كان اليهود يزعمون أنهم شعب الله المختار، وأن فيهم الرسالة والكتاب. فكانوا يتطلعون أن يكون الرسول الأخير فيهم كما توقعوا دائما. فلما أن جاء من العرب ظلوا يتوقعون أن يعتبرهم خارج نطاق دعوته، وأن يقصر الدعوة على الأميين من العرب! فلما وجدوه يدعوهم- أول من يدعو- إلى كتاب الله، بحكم أنهم أعرف به من المشركين، وأجدر بالاستجابة له من المشركين.. أخذتهم العزة بالإثم، وعدوا توجيه الدعوة إليهم إهانة واستطالة! ثم إنهم حسدوا النبي - صلى الله عليه وسلم- حسدا شديدا. حسدوه مرتين: مرة لأن الله اختاره وأنزل عليه الكتاب- وهم لم يكونوا يشكون في صحته- وحسدوه لما لقيه من نجاح سريع شامل في محيط المدينة.

على أنه كان هناك سبب آخر لحنقهم ولموقفهم من الإسلام موقف العداء والهجوم منذ الأيام الأولى: ذلك هو شعورهم بالخطر من عزلهم عن المجتمع المدني الذي كانوا يزاولون فيه القيادة العقلية والتجارة الرابحة والربا المضعف! هذا أو يستجيبوا للدعوة الجديدة. ويذوبوا في المجتمع الإسلامي. وهما أمران- في تقديرهم- أحلاهما مر! لهذا كله وقف اليهود من الدعوة الإسلامية هذا الموقف الذي تصفه سورة البقرة، (وسور غيرها كثيرة) في تفصيل دقيق، نقتطف هنا بعض الآيات التي تشير إليه.. جاء في مقدمة الحديث عن بني إسرائيل هذا النداء العلوي لهم: «يا بَنِي إِسْرائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ. » الآيات.. وبعد تذكير هم طويلا بمواقفهم مع نبيهم موسى- عليه السلام- وجحودهم لنعم الله عليهم، وفسوقهم عن كتابهم وشريعتهم..

ونكثهم لعهد الله معهم.. جاء في سياق الخطاب لتحذير المسلمين منهم: «أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون؟ وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا:

آمنا، وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا: أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم؟ أفلا تعقلون؟»..

«وَإِذا قِيلَ لَهُمْ: آمِنُوا بِما أَنْزَلَ اللَّهُ. قالُوا: نُؤْمِنُ بِما أُنْزِلَ عَلَيْنا، وَيَكْفُرُونَ بِما وَراءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِما مَعَهُمْ»...

«ما يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ»...

«وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ»...

«وَقالُوا: لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كانَ هُوداً أَوْ نَصارى. تِلْكَ أَمانِيُّهُمْ»... «وَلَنْ تَرْضى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصارى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ»... إلخ الآيات في التحذير منهم.

وكانت معجزة القرآن الخالدة أن صفتهم التي دمغهم بها هي الصفة الملازمة لهم في كل أجيالهم من قبل

الإسلام ومن بعده إلى يومنا هذا. مما جعل القرآن يخاطبهم- في عهد النبي - صلى الله عليه وسلم- كما لو كانوا هم أنفسهم الذين كانوا على عهد موسى- عليه السلام- وعلى عهود خلفائه من أنبيائهم باعتبار هم جبلة واحدة. سماتهم هي هي، ودورهم هو هو، وموقفهم من الحق والخلق موقفهم على مدار الزمان! ومن ثم يكثر الالتفات في السياق من خطاب قوم موسى، إلى خطاب اليهود في المدينة، إلى خطاب أجيال بين هذين الجيلين. ومن ثم تبقى كلمات القرآن حية كأنما تواجه موقف الأمة المسلمة اليوم وموقف اليهود منها. وتتحدث عن استقبال يهود لهذه العقيدة ولهذه الدعوة اليوم وغدا كما استقبلتها بالأمس تماما! وكأن هذه الكلمات الخالدة هي التنبيه الحاضر والتحذير الدائم للأمة المسلمة، تجاه أعدائها الذين واجهوا أسلافها بما يواجهونها اليوم به من دس وكيد، وحرب منوعة المظاهر، متحدة الحقيقة! وهذه السورة التي تضمنت هذا الوصف، وهذا التنبيه، وهذا التحذير، تضمنت كذلك بناء الجماعة المسلمة وإعدادها لحمل أمانة العقيدة في الأرض بعد نكول بني إسرائيل عن حملها قديما، ووقوفهم في وجهها هذه الوقفة أخيرا..

تبدأ السورة- كما أسلفنا- بوصف تلك الطوائف التي كانت تواجه الدعوة أول العهد بالهجرة- بما في ذلك تلك الإشارة إلى الشياطين اليهود الذين يرد ذكر هم فيما بعد مطولا- وتلك الطوائف هي التي تواجه هذه الدعوة على مدار التاريخ بعد ذلك. ثم تمضي السورة على محورها بخطيه الأساسيين إلى نهايتها. في وحدة ملحوظة، تمثل الشخصية الخاصة للسورة، مع تعدد الموضوعات التي تتناولها وتنوعها.

فبعد استعراض النماذج الثلاثة الأولى: المتقين. والكافرين. والمنافقين. وبعد الإشارة الضمنية لليهود الشياطين.. نجد دعوة للناس جميعا إلى عبادة الله والإيمان بالكتاب المنزل على عبده. وتحدي المرتابين فيه أن يأتوا بسورة من مثله. وتهديد الكافرين بالنار وتبشير المؤمنين بالجنة.. ثم نجد التعجيب من أمر الذين يكفرون بالله: «كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْواتاً فَأَحْياكُمْ، ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ، ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ! هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً، ثُمَّ اسْتَوى إِلَى السَّماءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَماواتٍ، وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ»..

وعند هذا المقطع الذي يشير إلى خلق ما في الأرض جميعا للناس تجيء قصة استخلاف آدم في الأرض:

«وَإِذْ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ: إِنِّي جاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً».. وتمضي القصة تصف المعركة الخالدة بين آدم والشيطان حتى تنتهي بعهد الاستخلاف- وهو عهد الإيمان-: «قُلْنَا: اهْبِطُوا مِنْها جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً، فَمَنْ تَبِعَ هُدايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ. وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآياتِنا أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ»..

بعد هذا يبدأ السياق جولة واسعة طويلة مع بني إسرائيل- أشرنا إلى فقرات منها فيما سبق- تتخللها دعوتهم للدخول في دين الله وما أنزله الله مصدقا لما معهم مع تذكيرهم بعثراتهم وخطاياهم والتوائهم وتلبيسهم منذ أيام موسى- عليه السلام- وتستغرق هذه الجولة كل هذا الجزء الأول من السورة.

ومن خلال هذه الجولة ترتسم صورة واضحة لاستقبال بني إسرائيل للإسلام ورسوله وكتابه.. لقد كانوا أول كافربه. وكانوا يلبسون الحق بالباطل. وكانوا يأمرون الناس بالبر- وهو الإيمان- وينسون أنفسهم. وكانوا يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه. وكانوا يخادعون الذين آمنوا بإظهار الإيمان وإذا خلا بعضهم إلى بعض حذر بعضهم بعضا من إطلاع المسلمين على ما يعلمونه من أمر النبي وصحة رسالته! وكانوا يريدون أن يردوا المسلمين كفارا. وكانوا يدعون من أجل هذا أن المهتدين هم اليهود وحدهم- كما كان النصارى يدعون هذا أيضا- وكانوا يعلنون عداءهم لجبريل- عليه السلام- بما أنه هو الذي حمل الوحي إلى محمد دونهم! وكانوا يكرهون كل خير للمسلمين ويتربصون بهم السوء. وكانوا ينتهزون كل فرصة للتشكيك في صحة الأوامر النبوية ومجيئها من عند الله تعالى- كما فعلوا عند تحويل القبلة- وكانوا مصدر إيحاء وتوجيه للمنافقين. كما كانوا مصدر تشجيع للمشركين.

ومن ثم تتضمن السورة حملة قوية على أفاعيلهم هذه وتذكرهم بمواقفهم المماثلة من نبيهم موسى- عليه السلام- ومن شرائعهم وأنبيائهم على مدار أجيالهم. وتخاطبهم في هذا كأنهم جيل واحد متصل، وجبلة واحدة لا تتغير ولا تتبدل.

وتنتهي هذه الحملة بتيئيس المسلمين من الطمع في إيمانهم لهم، وهم على هذه الجبلة الملتوية القصد، المؤوفة الطبع. كما تنتهي بفصل الخطاب في دعواهم أنهم وحدهم المهتدون، بما أنهم ورثة إبراهيم.

وتبين أن ورثة إبراهيم الحقيقيين هم الذين يمضون على سنته، ويتقيدون بعهده مع ربه وأن وراثة إبراهيم قد انتهت إذن إلى محمد - صلى الله عليه وسلم- والمؤمنين به، بعد ما انحرف اليهود وبدلوا ونكلوا عن حمل أمانة العقيدة، والخلافة في الأرض بمنهج الله ونهض بهذا الأمر محمد والذين معه. وأن هذا كان استجابة لدعوة إبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام- وهما يرفعان القواعد من البيت: «رَبَّنا وَاجْعَلْنا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ، وَأَرِنا مَناسِكَنا، وَتُبْ عَلَيْنا، إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ. رَبَّنا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِكَ، وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ، إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ».

وعند هذا الحد يبدأ سياق السورة يتجه إلى النبي - صلى الله عليه وسلم- وإلى الجماعة المسلمة من حوله حيث يأخذ في وضع الأسس التي تقوم عليها حياة هذا الجماعة المستخلفة على دعوة الله في الأرض، وفي تمييز هذه الجماعة بطابع خاص، وبمنهج في التصور وفي الحياة خاص.

ويبدأ في هذا بتعيين القبلة التي تتجه إليها هذه الجماعة. وهي البيت المحرم الذي عهد الله لإبراهيم وإسماعيل أن يقيماه ويطهراه ليعبد فيه الله وحده، هذه القبلة التي كان النبي - صلى الله عليه وسلم- يرغب ولا يصرح في الاتجاه إليها: «قَدْ نَرى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّماءِ، فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضاها، فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ، وَحَيْثُ ما كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ»..

ثم تمضي السورة في بيان المنهج الرباني لهذه الجماعة المسلمة. منهج التصور والعبادة، ومنهج السلوك والمعاملة، تبين لها أن الذين يقتلون في سبيل الله ليسوا أمواتاً بل أحياء. وأن الإصابة بالخوف والجوع ونقص الأموال والأنفس والثمرات ليس شرا يراد بها، إنما هو ابتلاء، ينال الصابرون عليه صلوات الله ورحمته وهداه. وأن الشيطان يعد الناس الفقر ويأمرهم بالفحشاء والله يعدهم مغفرة منه وفضلا. وأن الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور، والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات..

وتبين لهم بعض الحلال والحرام في المطاعم والمشارب. وتبين لهم حقيقة البر لا مظاهره وأشكاله. وتبين لهم أحكام القصاص في القتلى. وأحكام الوصية. وأحكام الصوم. وأحكام الجهاد. وأحكام الحج. وأحكام الزواج والطلاق مع التوسع في دستور الأسرة بصفة خاصة. وأحكام الصدقة وأحكام الربا.. وأحكام الدّين والتجارة...

وفي مناسبات معينة يرجع السياق إلى الحديث عن بني إسرائيل من بعد موسى. وعن حلقات من قصة براهيم. ولكن جسم السورة- بعد الجزء الأول منها- ينصرف إلى بناء الجماعة المسلمة، وإعدادها لحمل أمانة العقيدة، والخلافة في الأرض بمنهج الله وشريعته. وتمييزها بتصورها الخاص للوجود، وارتباطها بربها الذي اختارها لحمل هذه الأمانة الكبرى.

وفي النهاية نرى ختام السورة ينعطف على افتتاحها، فيبين طبيعة التصور الإيماني، وإيمان الأمة المسلمة بالأنبياء كلهم، وبالكتب كلها وبالغيب وما وراءه، مع السمع والطاعة: «آمَنَ الرَّسُولُ بِما أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ، كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ، لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ، وَقالُوا: سَمِعْنا وَأَطَعْنا، غُفْرانَكَ رَبَّنا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ. لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَها، لَها ما كَسَبَتْ وَعَلَيْها مَا اكْتَسَبَتْ، رَبَّنا لا تُؤاخِذْنا إِنْ نَسِينا أَوْ أَخْطَأْنا، رَبَّنا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنا إِصْراً كَما حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنا، رَبَّنا وَلا تُحَمِّلْنا ما لا طاقَةَ لَنا بِهِ، وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنا، وَارْحَمْنا، أَنْتَ مَوْلانا، فَانْصُرْنا عَلَى الْقَوْمِ الْكافِرِينَ»..

ومن ثم يتناسق البدء والختام، وتتجمع موضوعات السورة بين صفتين من صفات المؤمنين وخصائص الإيمان. ا.ه. باختصار.

ولماذا كثر الحديث عن بني اسرائيل في سورة البقرة، وفي القرآن عموما؟

يقول الشيخ محمد الغزالي في كتابه الماتع الفريد ( نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم) (ص7):

اتجهت الجهود بعد الهجرة إلى تكوين المجتمع الإسلامي الأول في المدينة المنورة ٬ لقد نجح المسلمون أفرادا في مقاومة فتن الوثنية ٬ وهاهم أولاء قد خلصوا بدينهم ٬ ووجدوا دارا تجمع أمتهم ٬ وتقيم دولتهم..

لكنهم فوجئوا بعداوة من نوع آخر ٬ عداوة اليهود الذين حسبوا الدين حكرا على جنسهم ٬ فتجهموا للمنافسين الجدد ٬ وشرعوا يستعدون لمقاومتهم ٬ ويتآمرون سرا وعلنا على الكيد لهم.. والقبائل اليهودية التى استوطنت البقاع الخصبة في الحجاز ٬ بدأت حياتها فارة بعقائدها من بطش الرومان ٬ وقد عاشت بين العرب الأميين مترفعة عليهم ٬ فما حاولت محاربة الأصنام ٬ ولا أنشأت دعوة إلى الله ٬ ولا عرضت تعاليم السماء لتغنى عن تعاليم الأرض.. كلا ٬ لقد نأت بنفسها ٬ واستراحت إلى مواريثها ٬ وظنت أن الدين امتياز لها ٬ ما ينبغي أن يشركهم فيه أحد!!

فهل بقيت على هذا الشعور عندما ظهر الإسلام؟ لا ٬ لقد رفضته ٬ وقلبت له الأمور…

وحاول النبى الخاتم أن يستلين جانبهم ٬ ويتعاون على الخير معهم ٬ بيد أن حقدهم غلب ٬ وبدأ شرهم ينمو ٬ فكان المسلمون في مهجرهم الذى ظفروا به يبنون بيد ٬ ويقاومون بأخرى! يؤسسون مجتمعهم وفق إشارات الوحى ٬ ويدفعون عنه أعداء لا يخفى لهم ضغن!! في هذا الجو نزلت سورة البقرة أطول سور القرآن الكريم وأحفلها بالتعاليم المنوعة... ) انتهى.

ويقول أيضاً الشيخ الغزالي في كتابه الرائع حصاد الغرور ص22:

ظننت لأول وهلة أن حديث القرآن الكريم عن بنى إسرائيل إنما كثر واستفاض بعد الهجرة النبوية أى بعد أن جمع اليهود والمسلمين وطن مشترك وجوار قريب. ثم تبينت خطئي بعد أن تدبرت الوحي النازل في مكة ٬ فقد ظهر لي أنه تكرر ذكر بنى إسرائيل في القرآن المكي تكرارا يشمل أغلب السور.. ولا عجب فقد ذكر اسم موسى في القرآن نحو مائة وعشرين مرة ٬ فما ذكر اسم نبي ولا ملك بهذه الكثرة ولا تحدث الوحي عن أمة من الأمم الأولى كما تحدث عن اليهود.

لقد جاء ذكرهم في الأنعام والأعراف والإسراء وطه ويونس وهود وجميع الحواميم ( السور المفتتحة ب حم) والطواسين) السور المفتتحة ب طس) وسور أخرى كثيرة. والسور التي أحصيناها هنا مكية كلها ٬ وقوله تعالى: "إن هذا القرآن يقص على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون " آية من سورة النمل المكية.. وعجيبٌ واليهود في مكة نفرٌ لا يُؤبَه لهم ٬ أن يعنى القرآن بقصصهم كل هذه العناية. !

ولقد ساءلت نفسى: ما السبب في هذا السرد المفصل لتاريخ بنى إسرائيل في مكة قبل المدينة؟

أهو تعريف المسلمين بحقيقة القوم الذين سيخالطونهم فيما بعد؟ إن هذه إجابة غير مقنعة..

وبعد تأمل غير قليل وجدت أن هذا التاريخ يحوى في طياته العناصر الحقيقية لقيام الأمم ٬ واستقلالها بأمورها ٬ وازدهار حضارتها ٬ كما يحوى العناصر الحقيقية لانهيار الأمم ٬ وذهاب ريحها ٬ واضمحلال أمرها..

والقصص القرآني من أبرز الوسائل لتربية الأفراد والجماعات ٬ وقد كان المسلمون المستضعفون في مكة بحاجة إلى أن يعرفوا كيف تحول اليهود الأوائل من ذل هائل ٬ إلى تحرر وتمكين ٬ وما هى الفضائل التي لابد من استجماعها كي تبلغ الأمم هذه الغاية الكريمة. وقد تولت السور المكية هذا الشرح ٬ ورأت القلة المستضعفة كيف تحول شعب تذبح صبيته ٬ وتستحيا نسوته ٬ إلى شعب مكين في الأرض سيد على ظهرها !.

وقد سئل ابن القيم: أيُمَكَّن للرجل أولا ثم يُبتلَى ٬ أم يبتلى أولا ثم يمكن له؟ فقال: يبتلى أولا ثم يمكن له. وتلا قوله تعالى:"وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون ".والآية من سورة السجدة المكية ٬ وهى تنبه إلى أن الصبر واليقين أساسا الكفاح الطويل الذى يصل بالأمم المناضلة إلى هدفها.. وقد أكد القرآن هذه الحقيقة الاجتماعية في سورة الأعراف: "وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها وتمت كلمة ربك الحسنى. `…عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُون".

وهكذا تفاوتت مصائر أقوام كانت بداية أمرهم متفاوتة أبعد التفاوت فالفراعنة يصدرون الأوامر بالقتل والسبي ٬ وحملة التوحيد يمضون في الطريق المضرجة بالدماء والأحزان.. فأما الأولون فقد جنوا عاقبة جبروتهم صغارا وانهيارا: " وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون ٬ وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين".

أما الآخرون المعتصمون بحبل الله المستمسكون بعروة الإيمان والتقوى ٬ فقد ظفروا وعمروا: "وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا و أوحينا إليهم فعل الخيرات و إقام الصلاة و إيتاء الزكاة و كانوا لنا عابدين."

إلا أن البشر كثيرا ما ينجحون في امتحانات البأساء والضراء حتى إذا وسع الله عليهم وغمرتهم نعماؤه ٬ لم يحسنوا اجتياز الاختبار الجديد. وما أكثر الذين حولتهم السلطة إلى جبابرة متسلطين ٬ وحولتهم الثروة إلى طغاة مستكبرين.. وكان من المنتظر من بنى إسرائيل أن يستغلوا تمكين الله لهم في نصرة دينه وإسعاد عباده ٬ إلا أنهم سرعان ما فتكت بهم جراثيم السطوة والثروة فلم يفلتوا من الجزاء المعد لأمثالهم ": سل بني إسرائيل كم آتيناهم من آية بينة ومن يبدل نعمة الله من بعد ما جاءته فإن الله شديد العقاب".

وقد بيَّن الله للمسلمين مراحل هذا التبديل لنعمة الله ٬ وأوضح مظاهره في أخلاق القوم ومسالكهم ٬ وما فعل جل شأنه ذلك إلا ليتجنب المسلمون المزالق التى هوت بغيرهم، فإن الأمم لا تنكب جزافا ٬ ولا تساق إليها المصائب خبط عشواء ٬ ولكنها قوانين الله التى يخضع لها الأولون والآخرون ولا تقبل فيها شفاعة ٬ ولا يقف حكمها استثناء. إن الله نحى أبناء إسرائيل عن المنصب الذى لم يقدروه قدره ٬ واستقدم العرب ليقودوا الإنسانية حيث عجز أبناء عمومتهم.. والغريب أن التوجيه الذي قيل لهؤلاء قيل لأولئك على تباعد الزمان بين الفريقين.

ففي لذعةٍ من لذعات الألم صرخ بنو إسرائيل بنبيهم موسى قائلين ": …أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون."

ترى أإذا تحررتم وسدتم تحسنون وتعدلون؟ أم ترتكبون الآثام وتستحلون المحارم؟ وبعد أعصارٍ طوال جيء بالأمة الإسلامية بعد إقصاء بنى إسرائيل الذين أساءوا وظلموا ٬ فماذا قال الله للأمة الجديدة؟ قال: " ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا وجاءتهم رسلهم بالبينات وما كانوا ليؤمنوا كذلك نجزي القوم المجرمين ٬ ثم جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون."

ذات القول الذى قيل لبنى إسرائيل.. من قرون سحيقة.. ! فلنقارن بين تاريخ وتاريخ ٬ وعوج وعوج ٬ لنعرف ما لنا وما علينا. وهل وفينا أم غدرنا ٬ وهل ما أصابنا كان جور الليالي علينا؟ أم هو صنع أيدينا وحصاد ما غرسنا؟ إذا كلف الله أمة برسالة ٬ فيجب أن تكون حالها الظاهرة والباطنة ٬ ومعاملاتها الداخلية والخارجية صورة دقيقة لهذه الرسالة ٬ صورة تحبب الآخرين فيها ٬ وتغريهم باعتناقها. أما أن ينفر الدعاة غيرهم من قبول الدعوة ٬ فهذه هى الخيانة الكبرى.. !

وحملة الدعوة المخلصون يخشون أن يقع لهم أو يقع منهم ما يكون حجابا للآخرين أو عائقا عن تصديق دعوتهم..

وبهذا فسر العلماء قول المؤمنين: … " ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير ٬ ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا …." وكيف يكون المؤمنون فتنة للذين كفروا؟ قال المفسرون: تصيبهم هزائم بسبب تقصيرهم فينظر الكفار إلى هذه الهزائم ويقولون: لو كانوا على حق ما مستهم تلك المصائب..

يقول العلامة المباركفوري في الرحيق المختوم[[20]](#footnote-20):

يرى القارئ في سورة الإسراء أن الله ذكر قصة الإسراء في آيةٍ واحدةٍ فقط، ثم أخذ في ذكر فضائح اليهود وجرائمهم، ثم نبههم بأن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم، فربما يظن القارئ أن الآيتين ليس بينهما ارتباط، والأمر ليس كذلك، فإن الله تعالى يشير بهذا الأسلوب إلى أن الإسراء إنما وقع إلى بيت المقدس؛ لأن اليهود سيعزلون عن منصب قيادة الأمة الإنسانية؛ لما ارتكبوا من الجرائم التي لم يبق معها مجال لبقائهم على هذا المنصب، وأن الله سينقل هذا المنصب فعلا إلى رسوله صلى الله عليه وسلم، ويجمع له مركزي الدعوة الإبراهيمية كليهما (بيت المقدس والكعبة)، فقد آن أوان انتقال القيادة الروحية من أمة إلى أمة، من أمة ملأت تاريخها بالغدر والخيانة والإثم والعدوان، إلى أمة تتدفق بالبر والخيرات، ولا يزال رسولها يتمتع بوحي القرآن الذي يهدي للتي هي أقوم.

ولكن كيف تنتقل هذه القيادة، والرسول يطوف في جبال مكة مطرودا بين الناس، هذا السؤال يكشف الغطاء عن حقيقة أخرى، وهي أن دورا من هذه الدعوة الإسلامية قد أوشك إلى النهاية والتمام، وسيبدأ دور آخر يختلف عن الأول في مجراه، ولذلك نرى بعض الآيات تشتمل على إنذار سافر ووعيد شديد بالنسبة إلى المشركين: " وَإِذا أَرَدْنا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنا مُتْرَفِيها فَفَسَقُوا فِيها فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْناها تَدْمِيراً" [الإسراء: 16].. " وَكَمْ أَهْلَكْنا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ، وَكَفى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبادِهِ خَبِيراً بَصِيراً "[الإسراء: 17] وبجنب هذه الآيات آيات أخرى تبين للمسلمين قواعد الحضارة وبنودها ومبادئها التي يبتنى عليها مجتمعهم الإسلامي، كأنهم قد أووا إلى الأرض، تملكوا فيها أمورهم من جميع النواحي، وكونوا وحدة متماسكة تدور عليها رحى المجتمع، ففيه إشارة إلى أن الرسول صلى الله عليه وسلم سيجد ملجأ ومأمنا يستقر فيه أمره، ويصير مركزا لبث دعوته في أرجاء الدنيا.

هذا سر من أسرار هذه الرحلة المباركة، يتصل ببحثنا، فآثرنا ذكره. ] ا.ه.

**نبدأ – بعون الله تعالى – في تدبر معاني سورة البقرة، والحمد لله رب العالمين**

**{ ألم }.. والحروف المقطعة.**

* الحروف المقطعة.. هى حروفٌ عربية افتتح الله بها سبحانه تسع وعشرين سورة من سور القرآن العظيم.. تُقرأ بأسمائها في التهجي على التقطيع والفصل، فمثلاً " ألم " تقرأ ( ألف لام ميم )؛ فهذه خصيصتها الأولى.
* وهى أربعة عشر حرفاً بغير التكرار (أى = نصف الحروف الأبجدية العربية تقريبا)!!
* وقد وردت كحرفٍ واحدٍ مثل ( ق، ن )، و حرفين مثل ( حم )، و ثلاثةٍ مثل( ألم، ألر، طسم)، وأربعةٍ مثل( ألمر)، وخمسة حروف مثل (كهيعص)..
* وتكررت منها حروف في سورٍ مثل ("ألم" في ست سور، و"حم" في سبع سور)؛ ومنها ما لم يتكرر مثل ( ن، ق)..
* وقد ورد بعدها في أكثر الأحيان ذكر القرآن إما على سبيل التحدي أو الوصف أو القسم به أو الإشارة لهداياته الكريمة.. كَقَوْلِهِ تعالى: {الم ذَلِكَ الْكِتَابُ} {الم اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ}، {المص كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ} {الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ} {طه مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى} {طسم تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ} {يس وَالْقُرْآنِ} {ص وَالْقُرْآنِ} {حم تَنْزِيلُ الْكِتَابِ} {ق وَالْقُرْآنِ} إِلَّا ثَلَاثَ سُوَرٍ: الْعَنْكَبُوتِ، وَالرُّومِ، و"ن" لَيْسَ فِيهَا مَا يَتَعَلَّقُ بِهِ..
* جمع بعض العلماء هذه الحروف وحذف المكرر منها فوجدها ترتب جملة (نصٌ حكيمٌ قاطعٌ له سر)!!..
* الأصح والأَوْلى في الكلام عن هذه الحروف أن يُقال: الله اعلم بمراده منها.. نؤمن بها وبمعانيه التي لا نعلمها وأن لها من العظمة القرآنية والإعجاز ما لها.. وفيه تفصيل بحثنا بتوفيق الله تعالى..

وقبل أن نبدأ النقاش حولها هناك عدة حقائق تتصل بها يجب أن توضع في الحسبان ابتداءاً:

1. هذه الحروف ليست عبثاً، وليست مما لا معنى له؛ بل لها في ذاتها معانٍ وحقائق..

والدليل على ذلك أن العرب الذين نزل فيهم القرآن وهم أفصح الخلق في لغة القرآن.. وعلى حرصهم على محاربة هذا القرآن ورميه بكل نقيصة، لم يساورهم قط ولم ينقل عنهم أنهم اعترضوا على القرآن العظيم وشغبوا عليه بأن فيه طلاسم وغمغمات من الحروف لا معنى لها في ذاتها.. بل إن سكوتهم عن هذا هو مما يدل على أنهم عرفوا أن لها معانٍ معجزةٍ في ذاتها وإن لم يعلموها.. وفي هذا ردٌّ على الملحدين والعلمانيين الذين يشغبون على القرآن ولا يحسن أحدهم معرفة اسمه من لغة العرب...

1. إن المتأمل المتدبر المدقِّق في خصائص وترتيب هذه الحروف ومواقعها وإحصائياتها العديدة ليواجه حقيقةً واحدةً أن هذه الحروف لها سرٌ عظيمٌ وإعجازٌ هائل علاوة على معانيها وإن خفيت علينا..

فالواقع أنها ليست عشوائية أبداً.. وأضرب مثلاً واحداً فأقول: ( إنه ليس في سور القرآن سورة كثر فيها حرف القاف كما في سورة "ق".. حتى إن لفظ القرآن ليذكر في كل سوره " قوم لوط" إلا في سورة " ق" نجد اللفظ " إخوان لوط" عدولاً عن حرف القاف في وصفهم، وربما ذلك للحفاظ على تناسقٍ وإحصاءٍ معين لحرف القاف ليحافظ على سرٍ خاص لهذا الحرف في هذه السورة.. وهذا من أعجب الاعجاز لمن تأمله)..

ففي فصلٍ عجيبٍ جدا يتحدث السيوطي ناقلا عن الزركشي في مناسبة الحروف المقطعة في أوائل السور مع السور التي افتتحت بها يقول:

قَالَ الزركشي فِي الْبُرْهَانِ: وَمِنْ ذَلِكَ افْتِتَاحُ السُّوَرِ بِالْحُرُوفِ الْمُقَطَّعَةِ، وَاخْتِصَاصُ كُلِّ وَاحِدَةٍ بِمَا بُدِئَتْ بِهِ حَتَّى لَمْ يَكُنْ لِتَرِدَ "الم" فِي مَوْضِعِ "الر"، وَلَا "حم" فِي مَوْضِعِ "طس"..

قَالَ: وَذَلِكَ أَنَّ كُلَّ سُورَةٍ بُدِئَتْ بِحَرْفٍ مِنْهَا، فَإِنَّ أَكْثَرَ كَلِمَاتِهَا وَحُرُوفِهَا مُمَاثِلٌ لَهُ..

فَحَقَّ لِكُلِّ سُورَةٍ منها ألا يُنَاسِبَهَا غَيْرُ الْوَارِدَةِ فِيهَا.. فَلَوْ وُضِعَ "ق" مَوْضِعَ "ن" لِعُدِمَ التَّنَاسُبُ الْوَاجِبُ مُرَاعَاتُهُ فِي كَلَامِ اللَّهِ.. وَسُورَةُ "ق" بُدِئَتْ بِهِ لَمَّا تَكَرَّرَ فِيهَا مِنَ الْكَلِمَاتِ بِلَفْظِ الْقَافِ مِنْ ( ذِكْرِ الْقُرْآنِ، وَالْخَلْقِ، تَكْرِيرِ الْقَوْلِ وَمُرَاجَعَتِهِ مِرَارًا، وَالْقُرْبِ مِنَ ابْنِ آدَمَ، وَتَلَقِّي الْمَلَكَيْنِ وَقَوْلِ الْعَتِيدِ وَالرَّقِيبِ وَالسَّائِقِ، وَالْإِلْقَاءِ فِي جَهَنَّمَ، وَالتَّقَدُّمِ بِالْوَعْدِ، وَذِكْرِ الْمُتَّقِينَ، وَالْقَلْبِ وَالْقُرُونِ، وَالتَّنْقِيبِ فِي الْبِلَادِ، وَتَشَقِّقِ الْأَرْضِ، وَحُقُوقِ الْوَعِيدِ..وَغَيْرِ ذَلِكَ).....

وَقَدْ تَكَرَّرَ فِي سُورَةِ يُونُسَ مِنَ الْكَلِمِ الْوَاقِعِ فِيهَا "الرَّاءُ" مِائَتَا كَلِمَةٍ أَوْ أَكْثَرُ فَلِهَذَا افْتُتِحَتْ بِ "الر"..

وَاشْتَمَلَتْ سُورَةُ "ص" عَلَى خُصُومَاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ فَأَوَّلُهَا خُصُومَةُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَعَ الْكُفَّارِ وَقَوْلُهُمْ: {أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً}، ثُمَّ اخْتِصَامُ الْخَصْمَيْنِ عِنْدَ دَاوُدَ، ثُمَّ تُخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ، ثُمَّ اخْتِصَامُ الْمَلَأِ الْأَعْلَى، ثُمَّ تُخَاصُمُ إِبْلِيسَ فِي شَأْنِ آدَمَ ثُمَّ فِي شَأْنِ بَنِيهِ وَإِغْوَائِهِمْ.. فلذلك كثر فيها حرف الصاد..

وَ "الم" جَمَعَتِ الْمَخَارِجَ الثَّلَاثَةَ الْحَلْقَ وَاللِّسَانَ وَالشَّفَتَيْنِ عَلَى تَرْتِيبِهَا.. وَذَلِكَ إِشَارَةٌ إِلَى الْبِدَايَةِ الَّتِي هِيَ بَدْءُ الْخَلْقِ، وَالنِّهَايَةِ الَّتِي هِيَ بَدْءُ الْمِيعَادِ، وَالْوَسَطِ الَّذِي هُوَ الْمَعَاشُ مِنَ التَّشْرِيعِ بِالْأَوَامِرِ وَالنَّوَاهِي.. وَكُلُّ سُورَةٍ افْتُتِحَتْ بِهَا فَهِيَ مُشْتَمِلَةٌ عَلَى الْأُمُورِ الثَّلَاثَةِ..] ا.ه.

وهكذا يتبدى كل يوم الجديد للمتتبعين لبعض أسرار هذه الحروف )..

1. أنَّ عدم معرفة معاني هذه الحروف لا يقدح في بيان وفصاحة وبلاغة القرآن أبداً عند التحقيق..

* أولاً: ذلك أنَّ القرآن العظيم هو كلام الله..

وكل مدعٍ أنه أحاط بكل معانيه هو كذَّاب مفضوح لأن البشر لا يجرؤون أن يدعي أحدهم إحاطته بكل معاني خطاب مثيله من الخلق، لما في النفوس من تباين المعلومات والثقافات والعقول، ولكن ما نفهمه من بعضنا البعض هو ما يعيننا على المعاملة وقضاء حوائجنا والتعبير عن ذواتنا.. فكيف يدعي مدعٍ وجوب الإحاطة بكل معاني كلام الله العظيم العليم الحكيم القدير.. وقد قال ابن عباس رضى الله عنه – كما نقل ابن كثير رحمه الله -: التَّفْسِيرُ عَلَى أَرْبَعَةِ أَنْحَاءٍ، فَتَفْسِيرٌ لَا يُعْذَرُ أَحَدٌ فِي فَهْمِهِ، وَتَفْسِيرٌ تَعْرِفُهُ الْعَرَبُ مِنْ لُغَاتِهَا، وَتَفْسِيرٌ يَعْلَمُهُ الرَّاسِخُونَ فِي العلم، وتفسير لا يعلمه إلا الله، وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ الْقُرْآنَ لَمْ يَنْزِلْ لِيُكَذِّبَ بَعْضُهُ بَعْضًا فَمَا عَرَفْتُمْ مِنْهُ فَاعْمَلُوا بِهِ، وَمَا تَشَابَهَ منه فآمنوا به»..

وإن للكاتبين والمتحدثين من البشر ما يستأثرون بسر معناه من جملة كلامهم؛ وإلا كان كلامهم ضعيفاً ركيكاً لا يدل على علو عقل المتكلم به.. ولله المثل العلى " ليس كمثله شئ " أختص ذاته بمعانٍ من كلامه لم يطلع عليها أحداَ من خلقه.. واختص صفوةً من خلقه بمعانٍ لم يطلع عليها غيرهم.. ولا يدل ذلك إلا على علو كلامه تعالى على كل كلام مع فصاحته وبيانه..

* ثانياً: أن القرآن كتاب الدين الإسلامي الحق، والدين في معناه ومغزاه يجب أن يشتمل على عنصرين رئيسين..

أحدهما: الغيب الذي يُبتلَى ( يُختبَر) فيه المدعي ديناً ليُعرَف حقيقة إيمانه.. فالإيمان في الحقيقة هو التصديق بالغيب وإلا فهو إدعاء كاذب، فما تراه وتعرفه وتدرك كل معانيه لا يقال له إيمان.. ولا ينعقد عليه صحة الدين..

ومن هذا العنصر الحروف المقطعة في أوائل السور، وغيرها من المتشابهات التي وردت في القرىن ولا يعلم حقيقة تأويلها إلا الله سبحانه فهى ابتلاء لمدعي الإيمان حتى يقولون: {آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ (7)} [آل عمران: 7] فيثبت إيمانهم.. وسيأتينا على هذا المعنى مزيد شرح وبيان في كلامنا على هذه الآية من سورة آل عمران بإذن الله تعالى.

ولذلك جاء في أول احتكاك مع هذه الحروف المقطعة الإشارة إلى هذا المعنى من الإيمان واليقين في الغيب {الم (1) ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ (2) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (3)} [البقرة: 1 - 3].. فجعل أكثر الهدى والاهتداء بالقرآن للمؤمنين بالغيب، فهم أكمل الناس انتفاعا به ومن عداهم فله نصيب بإذن الله وهدايته...

والعنصر الآخر من عناصر الدين: هو المنهج ودستور السير والعمل في الحياة.. وفي هذا العنصر يتحدث القرآن فيبين ويحكم آياته بلا لبس ولا غموض معنى.. ليستنبط أولى العلم الأحكام والهدايات الربانية في السر في الحياة مفصلة وواضحة.. وهذا القسم لا غبار عليه وهو الآيات المحكمات..

وإن المؤمنين وأولى العلم منهم خاصةً يردون المتشابه الذي لا يعلم حقيقة معناه إلا الله تعالى إلى المحكم الذي لا لبس في معانيه.. وبذلك لا يضر القليل من المتشابه كالحروف المقطعة وغيرها في بيان ووضوح وفصاحة وبلاغة القرآن العظيم...

**يقول العلامة صبحي الصالح:**

على أنّ في مستهلّ السورة حروفاً ثلاثة مقطعة ((ألفْ – لامْ – ميمْ))، فما هي حقيقتها. وإن تكُ سراً استأثر الله بعلمه فما حكمة تنزيلها وعدّها هي ونظائرها في بعض السور آيات تتلى وترتّلُ ترتيلاً؟

ولقد مضى السلف الصالح يعتقدون بأنّ هذه الفواتحُ نظِمت في القرآن على هذا النمط منذ الأزل لتعجز البشر عن الإِتيان بمثل هذا الكتاب المجيد لو كان بعضهم لبعض ظهيراً. وآثروا – رغم خوضهم في حكمة ورودها – أن يحيطوها بِجوّ من التورع عن تفسيرها، والتخوّف من إبداء رأي صريح فيها، فهي من المتشابه الذي لا يعلم تأويلَه إلا الله، وهي سرّ هذا القرآن.

والاعتقاد بأزلية هذه الحروف قد أحاطها بالسرّية، وسرّيّتها قد أحاطتها بالتفسيرات الباطنية، وتفسيراتها الباطنية خلعت عليها ثوباً من الغموض لا داعي إليه، ولا معوّل عليه.

وأدخَلُ تلك الآراء معنى الغموض قولُ مَنْ عدّ هذه الحروف على حساب ((الحُمّل)) ليستنبط منها مدة بقاء هذه الأمة، أو التنبيه على كرامة شخص أو شيعة معينة: زعم بعضهم مثلاً أن عدد هذه الحروف – مع حذف المكرّر – للإشارة إلى بقاء هذه الأمة، وزعم آخرون أن بعض الأئمة استخرج من قوله تعالى (الم. غُلبت الروم) أنّ بيت المقدس يفتحه المسلمون في سنة ثلاث وثمانين وخمس مئة، وأن الأمر وقع كما قال!

وهذا الضرب من الاستخراج الحسابي يعرف باسم (عدّ أبي جاد)، وقد شدّد العلماء في إنكاره والزجر عنه، وأكدوا أنه من جملة السحر، وأنه لا أصل له في الشريعة، وللمتصوفة في هذا المجال آراء أبعد شطحاً، وأغرب لفظاً، وأغمض معنى، تستمدّ سرّيّتها من مصطلحاتهم وأسرارهم، وتنبئ عن مدى توغّلهم في الشطحات الغامضة البعيدة.

ورأى بعضهم أنّ هذه الفواتح حروف مقطّعة كل حرف منها مأخوذ من اسم من أسمائه تعالى، أو يكتفى به عن كلمة تؤلف مع سواها جُملاً يتصل معناها بما بعدها أو يشير إلى الغرض من السورة المفتتحة بها، كقولهم في (ألر): أنا الله أرى، وفي (طسم): طور سيناء وموسى، لأن السورتين اللتين تفتتحان بهذه الحروف تقصّان خبر صاحب التوراة في طور سيناء.

ولا يخفى على أحد ما في هذه الآراء كلها من التخرصات والظنون: فقد قيل في كل مما ذكرنا أقوال مختلفة يذهب فيها الباحثون مذاهب شتى. وأمثال هذه التأويلات لا تتناهى ولا تقف عند حدّ، وما هي إلا آراء شخصية مردّها هوى كل مفسّر وميله.

وآثر قوم أن يقولوا: إن الفواتح برمّتها، وعلى اختلاف صيغها، اسم الله الأعظم، عُبّر عنه تعبيرات مختلفة تباين ما عهدناه في تأليف كلامنا.

وشبيه بهذا رأي من قال: إن أوائل السور قَسَم أقسم الله فيه بنفسه، لأن كل فاتحة منها اسم من أسماء الله، ولا يبعد عن هذا التأويل اعتبار هذه الحروف أسماءً علَمية للقرآن بوجه عام، أو لبعض سور القرآن المفتتحة بها بوجه خاص.ا.ه.([[21]](#footnote-21))

ثم ننتقل إلى نقاش المفسرين حولها ولقد رأيت فيها بحثا ضافيا رائعا للعلامة ( محمد على الشوكاني) في تفسيره (فتح القدير) فقررت ألخصه لشموله وتحقيقه وسداد رأيه:

قَالَ الْقُرْطُبِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ: اخْتَلَفَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ فِي الْحُرُوفِ الَّتِي فِي أَوَائِلِ السُّوَرِ، فَقَالَ الشَّعْبِيُّ وَسُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ وَجَمَاعَةٌ مِنَ الْمُحَدِّثِينَ: هِيَ سِرُّ اللَّهِ فِي الْقُرْآنِ، وَلِلَّهِ فِي كُلِّ كِتَابٍ مِنْ كُتُبِهِ سِرٌّ، فَهِيَ مِنَ الْمُتَشَابِهِ الَّذِي انْفَرَدَ اللَّهُ بِعِلْمِهِ وَلَا نُحِبُّ أَنْ نَتَكَلَّمَ فِيهَا وَلَكِنْ نُؤْمِنُ بِهَا، وَتُمَدُّ كَمَا جَاءَتْ. وَرُوِيَ هَذَا الْقَوْلُ عَنْ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ وَعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ. قَالَ: وَذَكَرَ أَبُو اللَّيْثِ السَّمَرْقَنْدِيُّ عَنْ عُمَرَ وَعُثْمَانَ وَابْنِ مَسْعُودٍ أَنَّهُمْ قَالُوا:

الْحُرُوفُ الْمُقَطَّعَةُ مِنَ الْمَكْتُومِ الَّذِي لَا يُفَسَّرُ.

وَقَالَ جَمْعٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ كَثِيرٌ: بَلْ نُحِبُّ أَنْ نَتَكَلَّمَ فِيهَا وَنَلْتَمِسَ الْفَوَائِدَ الَّتِي تَحْتَهَا، وَالْمَعَانِيَ الَّتِي تَتَخَرَّجُ عَلَيْهَا. وَاخْتَلَفُوا فِي ذَلِكَ عَلَى أَقْوَالٍ عَدِيدَةٍ..

فَرُوِيَ عن ابن عباس وعليّ أيضا عن الْحُرُوفَ الْمُقَطَّعَةَ فِي الْقُرْآنِ: اسْمُ اللَّهِ الْأَعْظَمِ إِلَّا أَنَّا لَا نَعْرِفُ تَأْلِيفَهُ مِنْهَا.

وَقَالَ قُطْرُبٌ وَالْفَرَّاءُ وَغَيْرُهُمَا: هِيَ إِشَارَةٌ إِلَى حُرُوفِ الْهِجَاءِ أَعْلَمَ اللَّهُ بِهَا الْعَرَبَ حِينَ تَحَدَّاهُمْ بِالْقُرْآنِ أَنَّهُ مُؤْتَلِفٌ مِنْ حُرُوفٍ هِيَ الَّتِي بِنَاءُ كَلَامِهِمْ عَلَيْهَا لِيَكُونَ عَجْزُهُمْ عَنْهُ أَبْلَغَ فِي الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ إِذْ لَمْ يَخْرُجُ عَنْ كلامهم.

قال قطرب: كانوا يَنْفِرُونَ عِنْدَ اسْتِمَاعِ الْقُرْآنِ، فَلَمَّا نَزَلَ الم والمص اسْتَنْكَرُوا هَذَا اللَّفْظَ، فَلَمَّا أَنْصَتُوا لَهُ صَلَّى الله عليه وَسَلَّمَ أَقْبَلَ عَلَيْهِمْ بِالْقُرْآنِ الْمُؤْتَلِفِ لِيُثْبِتَهُ فِي أَسْمَاعِهِمْ وَآذَانِهِمْ وَيُقِيمَ الْحُجَّةَ عَلَيْهِمْ.

وَقَالَ جَمَاعَةٌ: هِيَ حُرُوفٌ دَالَّةٌ عَلَى أَسْمَاءٍ أُخِذَتْ مِنْهَا وَحُذِفَتْ بَقِيَّتُهَا، كَقَوْلِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَغَيْرِهِ: الْأَلِفُ مِنَ اللَّهِ وَاللَّامُ مِنْ جِبْرِيلَ وَالْمِيمُ مِنْ مُحَمَّدٍ.

وَذَهَبَ إِلَى مثل هَذَا الزَّجَّاجُ فَقَالَ: أَذْهَبُ إِلَى أَنَّ كُلَّ حَرْفٍ مِنْهَا يُؤَدِّي عَنْ مَعْنًى. وَقَدْ تَكَلَّمَتِ الْعَرَبُ بِالْحُرُوفِ الْمُقَطَّعَةِ كَقَوْلِه شاعرهم:

فَقُلْتُ لَهَا قِفِي، فَقَالَتْ قَافِ.... أَيْ: وَقَفْتُ.

وَقَالَ زَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ: هِيَ أَسْمَاءٌ لِلسُّوَرِ.

وَقَالَ الْكَلْبِيُّ: هِيَ أَقْسَامٌ أَقْسَمَ اللَّهُ بِهَا لِشَرَفِهَا وَفَضْلِهَا وَهِيَ مِنْ أَسْمَائِهِ.

وَمِنْ أَدَقِّ مَا أَبْرَزَهُ الْمُتَكَلِّمُونَ فِي مَعَانِي هَذِهِ الْحُرُوفِ مَا ذَكَرَهُ الزَّمَخْشَرِيُّ فِي الْكَشَّافِ فَإِنَّهُ قَالَ: وَاعْلَمْ أَنَّكَ إِذَا تَأَمَّلْتَ مَا أَوْرَدَهُ اللَّهُ عَزَّ سُلْطَانُهُ فِي الْفَوَاتِحِ مِنْ هَذِهِ الْأَسْمَاءِ، وَجَدْتَهَا نِصْفَ أَسَامِي حُرُوفِ الْمُعْجَمِ أَرْبَعَةَ عَشَرَ سَوَاءً: وَهِيَ الْأَلِفُ وَاللَّامُ وَالْمِيمُ وَالصَّادُ وَالرَّاءُ وَالْكَافُ وَالْهَاءُ وَالْيَاءُ وَالْعَيْنُ وَالطَّاءُ وَالسِّينُ وَالْحَاءُ وَالْقَافُ وَالنُّونُ فِي تِسْعٍ وَعِشْرِينَ سُورَةً عَلَى عَدَدِ حُرُوفِ الْمُعْجَمِ، ثُمَّ إِذَا نَظَرْتَ فِي هَذِهِ الْأَرْبَعَةَ عَشَرَ وَجَدْتَهَا مُشْتَمِلَةً عَلَى أَنْصَافِ أَجْنَاسِ الْحُرُوفِ... ( ثم عدَّد الزمخشري أجناس وأصناف الحروف وقال بأن الحروف المقطعة اشتملت على الشطر من كل صنف )..

(وبعد نقل تلك الآراء يأتي تحقيق الشيخ الشوكاني الرائع فيقول رادَّاً على فذلكة وتكلف الزمخشري:

[ هَذَا التَّدْقِيقُ لَا يَأْتِي بِفَائِدَةٍ يُعْتَدُّ بِهَا، وَبَيَانُهُ أَنَّهُ إِذَا كَانَ الْمُرَادُ مِنْهُ إِلْزَامَ الْحُجَّةِ وَالتَّبْكِيتِ كَمَا قَالَ، فَهَذَا مُتَيَسِّرٌ بِأَنْ يُقَالَ لَهُمْ: هَذَا الْقُرْآنُ هُوَ مِنَ الْحُرُوفِ الَّتِي تَتَكَلَّمُونَ بِهَا لَيْسَ هُوَ مِنْ حُرُوفٍ مُغَايِرَةٍ لَهَا، فَيَكُونُ هَذَا تَبْكِيتًا وَإِلْزَامًا يَفْهَمُهُ كُلُّ سَامِعٍ مِنْهُمْ مِنْ دُونِ إِلْغَازٍ وَتَعْمِيَةٍ وَتَفْرِيقٍ لِهَذِهِ الْحُرُوفِ فِي فَوَاتِحِ تِسْعٍ وَعِشْرِينَ سُورَةً..

فَإِنَّ هَذَا مَعَ مَا فِيهِ مِنَ التَّطْوِيلِ الَّذِي لَا يَسْتَوْفِيهِ سَامِعُهُ إِلَّا بِسَمَاعِ جَمِيعِ هَذِهِ الْفَوَاتِحِ، هُوَ أَيْضًا مِمَّا لَا يَفْهَمُهُ أَحَدٌ مِنَ السَّامِعِينَ وَلَا يَتَعَقَّلُ شَيْئًا مِنْهُ، فَضْلًا عَنْ أَنْ يَكُونَ تَبْكِيتًا لَهُ وَإِلْزَامًا لِلْحُجَّةِ أَيًّا كَانَ، فَإِنَّ ذَلِكَ هُوَ أَمْرٌ وَرَاءَ الْفَهْمِ، مُتَرَتِّبٌ عَلَيْهِ وَلَمْ يَفْهَمِ السَّامِعُ هَذَا، وَلَا ذَكَرَ أَهْلُ الْعِلْمِ عَنْ فَرْدٍ مِنْ أفراد الجاهلية الذين وقع التحدي لَهُمْ بِالْقُرْآنِ أَنَّهُ بَلَغَ فَهْمُهُ إِلَى بَعْضِ هَذَا فَضْلًا عَنْ كُلِّهِ.

ثُمَّ كَوْنُ هَذِهِ الْحُرُوفِ مُشْتَمِلَةً عَلَى النِّصْفِ مِنْ جَمِيعِ الْحُرُوفِ الَّتِي تَرَكَّبَتْ لُغَةُ الْعَرَبِ مِنْهَا، وَذَلِكَ النِّصْفُ مُشْتَمِلٌ عَلَى أَنْصَافِ تِلْكَ الْأَنْوَاعِ مِنَ الْحُرُوفِ الْمُتَّصِفَةِ بِتِلْكَ الْأَوْصَافِ هُوَ أَمْرٌ لَا يَتَعَلَّقُ بِهِ فَائِدَةٌ لِجَاهِلِيٍّ وَلَا إِسْلَامِيٍّ، وَلَا مُقِرٍّ وَلَا مُنْكِرٍ، وَلَا مُسَلِّمٍ وَلَا مُعَارِضٍ، وَلَا يَصِحُّ أَنْ يَكُونَ مَقْصِدًا مِنْ مَقَاصِدِ الرَّبِّ سُبْحَانَهُ، الَّذِي أَنْزَلَ كِتَابَهُ لِلْإِرْشَادِ إِلَى شَرَائِعِهِ وَالْهِدَايَةِ بِهِ.

وَهَبْ أَنَّ هَذِهِ صِنَاعَةٌ عَجِيبَةٌ وَنُكْتَةٌ غَرِيبَةٌ، فَلَيْسَ ذَلِكَ مِمَّا يَتَّصِفُ بِفَصَاحَةٍ وَلَا بَلَاغَةٍ حَتَّى يَكُونَ مُفِيدًا أَنَّهُ كَلَامٌ بَلِيغٌ أَوْ فَصِيحٌ، وَذَلِكَ لِأَنَّ هَذِهِ الْحُرُوفَ الْوَاقِعَةَ فِي الْفَوَاتِحِ لَيْسَتْ مِنْ جِنْسِ كَلَامِ الْعَرَبِ حَتَّى يَتَّصِفَ بِهَذَيْنِ الْوَصْفَيْنِ، وَغَايَةُ مَا هُنَاكَ أَنَّهَا مِنْ جِنْسِ حُرُوفِ كَلَامِهِمْ وَلَا مَدْخَلَ لِذَلِكَ فِيمَا ذُكِرَ من بحث الزمخشري.

وأَيْضًا لَوْ فُرِضَ أَنَّهَا كَلِمَاتٌ مُتَرَكِّبَةٌ بِتَقْدِيرِ شَيْءٍ قَبْلَهَا أَوْ بَعْدَهَا لَمْ يَصِحَّ وَصْفُهَا بِذَلِكَ، لِأَنَّهَا تَعْمِيَةٌ غَيْرُ مَفْهُومَةٍ لِلسَّامِعِ إِلَّا بِأَنْ يَأْتِيَ مَنْ يُرِيدُ بَيَانَهَا بِمِثْلِ مَا يَأْتِي بِهِ مَنْ أَرَادَ بَيَانَ الْأَلْغَازِ وَالتَّعْمِيَةِ، وَلَيْسَ ذَلِكَ مِنَ الْفَصَاحَةِ وَالْبَلَاغَةِ فِي شئ، بَلْ مِنْ عَكْسِهِمَا ].

ويواصل العلامة الشوكاني – رحمه الله - تحقيقه الماتع فيقول:

[ وَإِذَا عَرَفْتَ هَذَا فَاعْلَمْ أَنَّ مَنْ تَكَلَّمَ فِي بَيَانِ مَعَانِي هَذِهِ الْحُرُوفِ جَازِمًا بِأَنَّ ذَلِكَ هُوَ مَا أَرَادَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، فَقَدْ غَلِطَ أَقْبَحَ الْغَلَطِ، وَرَكِبَ فِي فَهْمِهِ وَدَعْوَاهُ أَعْظَمَ الشَّطَطِ..

فَإِنَّهُ إِنْ كَانَ تَفْسِيرُهُ لَهَا بِمَا فَسَّرَهَا بِهِ رَاجِعًا إِلَى لُغَةِ الْعَرَبِ وَعُلُومِهَا فَهُوَ كَذِبٌ بَحْتٌ، فَإِنَّ الْعَرَبَ لَمْ يَتَكَلَّمُوا بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، وَإِذَا سَمِعَهُ السَّامِعُ مِنْهُمْ كَانَ مَعْدُودًا عِنْدَهُ مِنَ الرَّطَانَةِ..

وَلَا يُنَافِي ذَلِكَ أَنَّهُمْ قَدْ يَقْتَصِرُونَ عَلَى أَحْرُفٍ أَوْ حُرُوفٍ مِنَ الْكَلِمَةِ الَّتِي يُرِيدُونَ النُّطْقَ بِهَا، فَإِنَّهُمْ لَمْ يَفْعَلُوا ذَلِكَ إِلَّا بَعْدَ أَنْ تَقَدَّمَهُ مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ وَيُفِيدُ مَعْنَاهُ، بِحَيْثُ لَا يَلْتَبِسُ عَلَى سَامِعِهِ كَمِثْلِ مَا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ ( قلت لها قفي فقالت قاف.. فدل السياق قبلها على أن معنى (قاف ): وقفتُ ).

وَأَيْنَ هَذِهِ الْفَوَاتِحُ الْوَاقِعَةُ فِي أَوَائِلِ السُّوَرِ مِنْ هَذَا؟

وَإِذَا تَقَرَّرَ لَكَ أَنَّهُ لَا يُمْكِنُ اسْتِفَادَةُ مَا ادَّعَوْهُ مِنْ لُغَةِ الْعَرَبِ وَعُلُومِهَا لَمْ يَبْقَ حِينَئِذٍ إِلَّا أَحَدُ أَمْرَيْنِ:

الْأَوَّلُ: التَّفْسِيرُ بِمَحْضِ الرَّأْيِ الَّذِي وَرَدَ النَّهْيُ عَنْهُ وَالْوَعِيدُ عَلَيْهِ، وَأَهْلُ الْعِلْمِ أَحَقُّ النَّاسِ بِتَجَنُّبِهِ وَالصَّدِّ عَنْهُ وَالابتعاد عَنْ طَرِيقِهِ، وَهُمْ أَتْقَى لِلَّهِ سُبْحَانَهُ مِنْ أَنْ يَجْعَلُوا كِتَابَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ مِلْعَبَةً لَهُمْ يَتَلَاعَبُونَ بِهِ وَيَضَعُونَ حَمَاقَاتِ أَنْظَارِهِمْ وَخُزَعْبَلَاتِ أَفْكَارِهِمْ عَلَيْهِ.

الثَّانِي: التَّفْسِيرُ بِتَوْقِيفٍ عَنْ صَاحِبِ الشَّرْعِ صلى الله عليه وسلم، وَهَذَا هُوَ الْطريق الْوَاضِحُ وَ الْقَوِيمُ، بَلِ الْجَادَّةُ وَالطَّرِيقَةُ الْعَامِرَةُ، فَمَنْ وَجَدَ شيئا من هذا فغير ملوم أَنْ يَقُولَ بِمِلْءِ فِمِه وَيَتَكَلَّمَ بِمَا وَصَلَ إِلَيْهِ عِلْمُهُ، وَمَنْ لَمْ يَبْلُغْهُ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ فَلْيَقُلْ لَا أَدْرِي، أَوِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمُرَادِهِ..

فَقَدْ ثَبَتَ النَّهْيُ عَنْ طَلَبِ فَهْمِ الْمُتَشَابِهِ، وَمُحَاوَلَةِ الْوُقُوفِ عَلَى عِلْمِهِ مَعَ كَوْنِهِ أَلْفَاظًا عَرَبِيَّةً وَتَرَاكِيبَ مَفْهُومَةً، وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ تَتَبُّعَ ذَلِكَ صَنِيعَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ، فَكَيْفَ بِمَا نَحْنُ بِصَدَدِهِ؟

فَإِنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ يُقَالَ فِيهِ إِنَّهُ مُتَشَابِهُ الْمُتَشَابِهِ عَلَى فَرْضِ أَنَّ لِلْفَهْمِ إِلَيْهِ سَبِيلًا، وَلِكَلَامِ الْعَرَبِ فِيهِ مَدْخَلًا، فَكَيْفَ وَهُوَ خَارِجٌ عَنْ ذَلِكَ عَلَى كُلِّ تَقْدِيرٍ.

فَإِنْ قُلْتَ: هَلْ ثَبَتَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ فِي هَذِهِ الْفَوَاتِحِ شَيْءٌ يَصْلُحُ لِلتَّمَسُّكِ بِهِ؟

قُلْتُ: لَا أَعْلَمُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَكَلَّمَ فِي شَيْءٍ مِنْ مَعَانِيهَا، بَلْ غَايَةُ مَا ثَبَتَ عَنْهُ هُوَ مُجَرَّدُ عَدَدِ حُرُوفِهَا، فعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلم: «من قَرَأَ حَرْفًا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ فَلَهُ بِهِ حَسَنَةٌ، وَالْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، لَا أَقُولُ: الم حَرْفٌ، وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْفٌ وَلَامٌ حَرْفٌ وَمِيمٌ حَرْفٌ».

فَإِنْ قُلْتَ: هَلْ يَجُوزُ الِاقْتِدَاءُ بِأَحَدٍ مِنَ الصَّحَابَةِ قَالَ فِي تَفْسِيرِ شَيْءٍ مِنْ هَذِهِ الْفَوَاتِحِ قَوْلًا صَحَّ إِسْنَادُهُ إِلَيْهِ؟

قُلْتُ: لَا، لِمَا قَدَّمْنَا، إِلَّا أَنْ يُعْلَمَ أَنَّهُ قَالَ ذَلِكَ عَنْ عِلْمٍ أَخَذَهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فَإِنْ قُلْتَ: هَذَا مِمَّا لَا مَجَالَ لِلِاجْتِهَادِ فِيهِ وَلَا مَدْخَلَ لِلُغَةِ الْعَرَبِ، فَلِمَ لَا يَكُونُ لَهُ حُكْمُ الرَّفْعِ؟

قُلْتُ: تَنْزِيلُ هَذَا مَنْزِلَةَ الْمَرْفُوعِ، وَإِنْ قَالَ بِهِ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْأُصُولِ وَغَيْرِهِمْ، فَلَيْسَ مِمَّا يَنْشَرِحُ لَهُ صُدُورُ الْمُنْصِفِينَ، وَلَا سِيَّمَا إِذَا كَانَ فِي مِثْلِ هَذَا الْمَقَامِ وَهُوَ التَّفْسِيرُ لِكَلَامِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، فَإِنَّهُ دُخُولٌ فِي أَعْظَمِ الْخَطَرِ بِمَا لَا بُرْهَانَ عَلَيْهِ صَحِيحٌ إِلَّا مُجَرَّدَ قَوْلِهِمْ إِنَّهُ يَبْعُدُ مِنَ الصَّحَابِيِّ كُلَّ الْبُعْدِ أَنْ يَقُولَ بِمَحْضِ رَأْيِهِ فِيمَا لَا مَجَالَ فِيهِ لِلِاجْتِهَادِ، وَلَيْسَ مُجَرَّدُ هَذَا الِاسْتِبْعَادِ مُسَوِّغًا لِلْوُقُوعِ فِي خَطَرِ الْوَعِيدِ الشَّدِيدِ.

عَلَى أَنَّهُ يُمْكِنُ أَنْ يَذْهَبَ بَعْضُ الصَّحَابَةِ إِلَى تَفْسِيرِ بَعْضِ الْمُتَشَابِهِ كَمَا تَجِدُهُ كَثِيرًا فِي تَفَاسِيرِهِمُ الْمَنْقُولَةِ عَنْهُمْ، وَيَجْعَلَ هَذِهِ الْفَوَاتِحَ مِنْ جُمْلَةِ الْمُتَشَابِهِ..

ثُمَّ هَاهُنَا مَانِعٌ آخَرُ، وَهُوَ أَنَّ الْمَرْوِيَّ عَنِ الصَّحَابَةِ فِي هَذَا مُخْتَلِفٌ مُتَنَاقِضٌ، فَإِنْ عَمِلْنَا بِمَا قَالَهُ أَحَدُهُمْ دُونَ الْآخَرِ كَانَ تَحَكُّمًا لَا وَجْهَ لَهُ، وَإِنْ عَمِلْنَا بِالْجَمِيعِ كَانَ عَمَلًا بِمَا هُوَ مُخْتَلِفٌ مُتَنَاقِضٌ وَلَا يَجُوزُ..

ثُمَّ هَاهُنَا مَانِعٌ غَيْرُ هَذَا المانع، وهو: أنه لو كان شيء مما قَالُوهُ مَأْخُوذًا عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَاتَّفَقُوا عَلَيْهِ وَلَمْ يَخْتَلِفُوا كَسَائِرِ مَا هُوَ مَأْخُوذٌ عَنْهُ، فَلَمَّا اخْتَلَفُوا فِي هَذَا عَلِمْنَا أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ مَأْخُوذًا عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ..

ثُمَّ لَوْ كَانَ عِنْدَهُمْ شَيْءٌ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي هَذَا لَمَا تَرَكُوا حِكَايَتَهُ عَنْهُ وَرَفْعَهُ إِلَيْهِ، لَا سِيَّمَا عِنْدَ اخْتِلَافِهِمْ وَاضْطِرَابِ أَقْوَالِهِمْ فِي مِثْلِ هَذَا الْكَلَامِ الَّذِي لَا مَجَالَ لِلُغَةِ الْعَرَبِ فِيهِ وَلَا مَدْخَلَ لَهَا].

وأزيد على هذه النقطة الأخيرة ما حققه العلامة الفاضل بن عاشور في كتابه ( التفسير ورجاله ).. يقول ما مختصره:

[وقد اتصل تفسير القرآن، عند ابن عباس، بعناصر زائدة على العنصرين اللذين قدمناهما في الحديث الماضي: وهما عنصر أسباب النزول، وعنصر مبهم القرآن.

فكان ابن عباس يضيف إليهما عنصراً لغوياً: في فهم معنى المفرد، أو فهم سر التركيب، ويتخذ مادة لذلك من الشعر الجاهلي. فكان كثيراً ما يقول عندما يُسأل عن معنى من تراكيب القرآن فيقرره: أما سمعتم الشاعر يقول كذا، وينشد البيت كما أثبت ذلك ابن سعد في"الطبقات"...

وعنصر آخر أضافه ابن عباس، على ما نُقل عنه في المصادر المعتمدة، إلى تفسير القرآن: هو عنصر الأخبار التي لم تجئ في حديث النبي ـــ صلى الله عليه وسلم ــ مما يرجع إلى بيان مبهمات القرآن: وذلك ما كان يرجع فيه إلى مصادر المعرفة المتوفرة لديهم يومئذ من التاريخ العام وأخبار الأمم، لا سيما الأمتين الكتابيتين: اليهود، والنصارى.

ومن الظاهر أن هذين العنصرين، وإن وجدا في بعض كلام ابن عباس، لا يصح اعتبارهما من التفسير بالمأثور، لأن مرجعهما إلى الفهم وإلى المعرفة العامة مما يجوز أن يكون محل خلاف مقبول من طرف من يفهم فهماً غير الفهم الذي ارتضاه ابن عباس، اعتماداً على شاهد غير الذي اعتمد عليه، أو جنوحاً إلى تخريج للتركيب على غير ما خرجه عليه؛ أو يكون محل خلاف معتبر أيضاً من طرف من عنده معرفة أمر من التواريخ أو أخبار الكتب السماوية القديمة يختلف عما عند ابن عباس، ويمكن توسيع المفاد القرآني به على خلاف ما رأى ابن عباس في توسيع المفاد القرآني بما لديه من المعرفة، ومن هنالك بدأ التفسير بالمأثور، يختلف بلون آخر من التفسير: يقبل اختلاف الأفهام، واختلاف التقادير، واختلاف الاجتهاد في استنباط المعنى، تبعاً لاختلاف ما يرجع إليه الاستنباط: من فهم لغوي، أو معرفة تاريخية لم تؤثر في السنة النبوية.

وكما كان التفسير بالمأثور يرد هذا المورد الممزوج بغير المأثور عند ابن عباس، كان يرد كذلك عند غيره من الصحابة المختصين بالتفسير...] انتهى..

وبعد هذه المناقشة الرائعة والتحقيق الموفق يخلص الشوكاني لنتيجةٍ جيدة فيقول:

[ وَالَّذِي أَرَاهُ لِنَفْسِي، وَلِكُلِّ مَنْ أَحَبَّ السَّلَامَةَ، وَاقْتَدَى بِسَلَفِ الْأُمَّةِ أَنْ لَا يَتَكَلَّمَ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ..

مَعَ الِاعْتِرَافِ بِأَنَّ فِي إِنْزَالِهَا حكمة لله عزّ وجلّ لا تَبْلُغُهَا عُقُولُنَا وَلَا تَهْتَدِي إِلَيْهَا أَفْهَامُنَا.. وَإِذَا انْتَهَيْتَ إِلَى السَّلَامَةِ فِي مَدَاكَ فَلَا تُجَاوِزْهُ.. ].. انتهى..[[22]](#footnote-22)

ولقد آثرت ان استفيض في هذا المبحث لما في ذلك من فوائد منهجية هامة في التعامل مع كتاب الله ومحاولات التدبر والفهم لكلام الله تعالى.. وليتأمل القارئ مشكورا ما رميت إليه بقراءةٍ متأنيةٍ لهذا المبحث...

# في صفات المؤمنين ( الآيات 2-5)

{الم (1) ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ (2) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (3) وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (4) أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (5) } [البقرة: 2 - 5]

في قوله { الم } يقول العلامة ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: إِنما ذكرت هذه الحروف في أوائل السور بياناً لإِعجاز القرآن، وأن الخلق عاجزون عن معارضته بمثله، مع أنه مركب من هذه الحروف المقطعة التي يتخاطبون بها، وهو قول جمع من المحققين، وقد قرره الزمخشري في تفسيره الكشاف ونصره أتم نصر، وإِليه ذهب الإِمام «ابن تيمية» ثم قال: ولهذا كلُّ سورة افتتحت بالحروف، فلا بدَّ أن يذكر فيها الانتصار للقرآن، وبيانُ إعجازه وعظمته مثل {الم ذَلِكَ الكتاب} {المص كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ} [الأعراف: 1 - 2] {الم تِلْكَ آيَاتُ الكتاب الحكيم} [لقمان: 1 - 2] {حم والكتاب المبين } [الدخان: 1 - 3] وغير ذلك من الآيات الدالة على إعجاز القرآن.ا.ه.

تقف هذه الحروف بالقرآن موقف المتحدي على عظمته ليس بالسورة، أو الآية، وليس بالكلمة.. وإنما هو إعجاز وتحدي القرآن للدنيا كلها بالحرف..{ذلك الكتاب } الذي نزل على محمد - صلوات الله عليه – هو الكتاب الكامل الحق الذي لا يدانيه كتاب { لا ريب فيه} أى لا شك أنه من عند الله تعالى { فيه هدى } و سر تنكير (هدى) أن كل أنواع الهداية والصلاح والرشاد فيه لمن يبحث عن الحق والخير.. { هدى للمتقين} جمع متقٍ، وهو المؤمن المطيع لأوامر الله. وأصلُ الاتقاء هو اتخاذ الوقاية التي تحجز عن الشر، فكأن المتقي يجعل امتثال أوامر الله واجتناب نواهيه حاجزاً واقيا بينه وبين الغضب والعقاب الإلَهي، وللمتقين من الاختصاص بمزيد وعظيم الانتفاع به ما ليس لغيرهم لأنهم يقرأونه قراءة المؤمن المستبصر؛ أما الجاحدين المنكرين فهو عليهم عمىً..

ثم بيَّن تعالى صفات هؤلاء المتقين فقال سبحانه:{ الذين يؤمنون بالغيب} أى يُصَدِّقُونَ بِحَزمٍ وإِذعَانٍ بما لاَ يَقَعُ تَحْتَ حَواسِّهِمْ (الغَيْبِ) فَيُؤْمِنُونَ بِاللهِ، وَبِمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَجَنَّتِهِ وَلِقَائِهِ، وَبِالحَيَاةِ بَعْدَ المَوْتِ.

فأول أصول التقوى فيهم الإيمان بالغيب؛ ذلك الذي غاب عن ادراكهم ولكن رأوه بقلوبهم وعقولهم في كلام الله وكلام رسوله، فكان إيمانهم نوراً يسيرون به في الحياة ليشهدوا عظمة الله في الخلق والأمر.. وملاك التقوى هو الإيمان، فلا تقوى لمن لا إيمان له، فإذا جاء الإيمان على تلك الصورة، كان داعية لأن يقيم الإنسان على طريق التقوى، وأن يؤهّله لتلك الصفات التي وصف الله سبحانه بها المتقين: الذين {يقيمون الصلاة}؛ وهى أول الدين بعد الإيمان لأنها الصلة بين الخلق والخالق؛ أي يؤدونها على الوجه الأكمل بشروطها وأركانها، وخشوعها وآدابها قال ابن عباس: إقامتُها: إتمام الركوع والسجود والتلاوة والخشوع.. { ومما رزقناهم } أى من أطيب رزق الله لهم وأحسنه { ينفقون } في الزكاة والجهاد والصدقة وكل إنفاقٍ في سبيل الله؛ ليصير المجتمع ربانياً مترابطاً متكافلاً.. قال ابن كثير: كثيراً ما يقرن تعالى بين الصلاة والإِنفاق من الأموال، لأن الصلاة حقُّ الله وهي مشتملة على توحيده وتمجيده والثناء عليه، والإِنْفاقُ هو الإِحسان إلى المخلوقين وهو حق العبد، فكلٌ من النفقات الواجبة، والزكاة المفروضة داخل في الآية الكريمة..

والمتقون في كل عصرٍ سواء كانوا من الأمم السابقة أو اللاحقة { يؤمنون بما أنزل إليك} أي يصدقونه بكل ما جئت به عن الله تعالى إيماناً مفصلاً يملك عليهم حياتهم ويصرِّفها وفق نور الله سبحانه.. {وَمَآ أُنْزِلَ مِن قَبْلِكَ} أي ويؤمنون إيماناً مجملاً بما جاءت به الرسل من قبلك، لا يفرّقون بين كتب الله ولا بين رسله.... إيماناً يجعل النور الرباني والهداية حلقةً متصلةً عبر البشرية؛ وعلى لسان كل الرسل.. وهذا الإيمان بالإله الواحد وبرسالةٍ واحدةٍ تأتي بثمرة التقوى وتحقيق انتقالها من الوجدان الإنساني إلى أرض الواقع والحياة، وهى الاستعداد ليوم الحساب بمراقبة الله في كل حركات المؤمن، فأهل التقوى { ِبالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ } باليوم الآخر، وما فيه من حساب، وثواب، وعقاب وجنة ونار.. يقيناً يحرِّك العزائم للعمل الصالح، ويباعد عن الرذائل والمعاصي والدنايا.. وهنا يختتم السياق وقد انتقل الحديث عن هذا الكتاب العظيم وإعجازه وكماله، وهدايته للمتقين، وصفات هؤلاء المتقين وصفات إيمانهم وأعمالهم إلى إثبات الفلاح والصلاح لهؤلاء الذين التمسوا الرشاد والسداد في هذا القرآن { أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ }..

وهكذا تذوب خلجات النفس بين يدى كتاب الله تعالى، وتبدأ الروح في الصعود في ذلك المعراج الخفى ترى ذلك الينبوع النوراني المتدفق بين الآيات يُسْلِم الوجدان من آيةٍ لأختها بسلاسةٍ رائعةٍ وترابطٍ معنوىٍ فريدٍ يصيح بأن هذا الكلام كلام الله..

# تفصيلات لغوية ومنهجية لابد منها

تفصيلات لغوية ومعنوية:

* قال الزمخشري[[23]](#footnote-23): والريب: مصدر راب، إذا حصلت الريبة.

وحقيقة الريبة: قلق النفس واضطرابها. ومنه ما روى الحسن بن على قال: سمعت رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم يقول: «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك فإن الشك ريبة، وإنّ الصدق طمأنينة» أى فإن كون الأمر مشكوكا فيه مما تقلق له النفس ولا تستقرّ. وكونه صحيحا صادقا مما تطمئن له وتسكن. ومنه: ريب الزمان، وهو ما يقلق النفوس ويشخص بالقلوب من مصائبه.ا.ه.

يقول الشيخ محمد الغزالي: وبطريق التلميح أشارت الآيات إلى زيف ما بأيدي اليهود.. {ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين } كأن الكتب الأخرى موضع ريبة ٬ وكأن ما فيها من خليط لا يصنع تقوى ٬ ولا يزكى سيرة ! وخلال المتقين التي أحصتها سورة البقرة كثيرة ٬ فقد تكررت مادة التقوى خلال السورة بضعا وثلاثين مرة ٬ لا تشبهها في ذلك سورة أخرى ٬ والتقوى هى الصفة الجامعة التي طلبت من سائر الأمم في شتى الرسالات { ولله ما في السماوات وما في الأرض ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله }..ا.ه.[[24]](#footnote-24)

* يقول العلامة الشنقيطي في تفسيره (أضواء البيان):

[فيه هُدًى لِلْمُتَّقِينَ] {البقرة:2}.. ويفهم من مفهوم الآية أن القرآن الكريم ليس هدى لغير المتقين، قال تعالى: [وَنُنَزِّلُ مِنَ القُرْآَنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا] {الإسراء:82} ومعلوم أن المراد بالهدى في هذه الآية الهدى الخاص الذي هو التفضل بالتوفيق إلى دين الحق، لا الهدى العام، الذي هو إيضاح الحق.ا.ه.

* والمتقين: واحدهم متقٍ، والمتقى في اللغة اسم فاعل، من قولهم: وقاه فاتقى.

والوقاية: فرط الصيانة، من الاتقاء وهو الحجز بين الشيئين، ومنه يقال اتقى بترسه أي جعله حاجزا بين نفسه ومن يقصده.. والمتقي في الشريعة الذي يجعل امتثال أوامر اللّه واجتناب نواهيه - حاجزا بينه وبين العقاب الإلهى.

يقول العلامة البيضاوي: وللتقوى ثلاث مراتب:

الأولى: التوقي من العذاب المخلد بالتبري من الشرك وعليه قوله تعالى: " وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوى " أى التوحيد.

الثانية: التجنب عن كل ما يؤثِم من فعلٍ أو تركٍ حتى الصغائر عند قومٍ، وهو المتعارف باسم التقوى في الشرع، وهو المعني بقوله تعالى: " وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرى آمَنُوا وَاتَّقَوْا".

الثالثة: أن يتنزه عن كل ما يشغل سره عن الحق سبحانه ويتبتل إليه بقلبه وجوارحه، وهو معنى التقوى الحقيقي المطلوب بقوله تعالى: " يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقاتِهِ ".ا.ه.[[25]](#footnote-25)

[ ورد أن عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- سأل أبي بن كعب عن التقوى فقال له: أما سلكت طريقاً ذا شوك؟ قال بلى! قال: فما عملت؟ قال: شمرت واجتهدت. قال: فذلك التقوى..

فذلك التقوى.. حساسية في الضمير، وشفافية في الشعور، وخشية مستمرة، وحذر دائم، وتوق لأشواك الطريق.. طريق الحياة.. الذي تتجاذبه أشواك الرغائب والشهوات، وأشواك المطامع والمطامح، وأشواك المخاوف والهواجس، وأشواك الرجاء الكاذب فيمن لا يملك إجابة رجاء، والخوف الكاذب ممن لا يملك نفعاً ولا ضراً. وعشرات غيرها من الأشواك!][[26]](#footnote-26)

يقول العلامة بن عاشور:والمتقون أي هم الذين تجردوا عن المكابرة ونزهوا أنفسهم عن حضيض التقليد للمضلين وخشوا العاقبة وصانوا أنفسهم من خطر غضب الله.. والمراد بالمتقين المؤمنون الذين آمنوا بالله وبمحمد وتلقوا القرآن بقوةٍ وعزمٍ على العمل به.. قال ابن العربي: لم يتكرر لفظ في القرآن مثلما تكرر لفظ التقوى اهتماماً بشأنها. انتهى.[[27]](#footnote-27)

* قال ابن كثير – رحمه الله – في قوله تعالى { الذين يؤمنون بالغيب }:

قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ وَغَيْرُهُ: وَالْأَوْلَى أَنْ يَكُونُوا مَوْصُوفِينَ بِالْإِيمَانِ بِالْغَيْبِ قَوْلًا وَاعْتِقَادًا وَعَمَلًا قَالَ: وَقَدْ تَدْخُلُ الْخَشْيَةُ لِلَّهِ فِي مَعْنَى الْإِيمَانِ، الَّذِي هُوَ تَصْدِيقُ الْقَوْلِ بِالْعَمَلِ، وَالْإِيمَانُ كَلِمَةٌ جامعةٌ لِلْإِقْرَارِ بِاللَّهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ والملائكة والقدر، وَتَصْدِيقُ الْإِقْرَارِ بِالْفِعْلِ. قُلْتُ (أى ابن كثير): أَمَّا الْإِيمَانُ فِي اللُّغَةِ فَيُطْلَقُ عَلَى التَّصْدِيقِ الْمَحْضِ، وَقَدْ يُسْتَعْمَلُ فِي الْقُرْآنِ، وَالْمُرَادُ بِهِ ذَلِكَ، كَمَا قَالَ إِخْوَةُ يُوسُفَ لِأَبِيهِمْ: {وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ} [يُوسُفَ: 17]، وَكَذَلِكَ إِذَا اسْتُعْمِلَ مَقْرُونًا مَعَ الْأَعْمَالِ؛ كَقَوْلِهِ: {إِلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} [الِانْشِقَاقِ: 25، وَالتِّينِ: 6]، فَأَمَّا إِذَا اسْتُعْمِلَ مُطْلَقًا فَالْإِيمَانُ الشَّرْعِيُّ الْمَطْلُوبُ لَا يَكُونُ إِلَّا اعْتِقَادًا وَقَوْلًا وَعَمَلًا. هَكَذَا ذَهَبَ إِلَيْهِ أَكْثَرُ الْأَئِمَّةِ، بَلْ قَدْ حَكَاهُ الشَّافِعِيُّ وَأَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ وَأَبُو عُبَيد وَغَيْرُ وَاحِدٍ إِجْمَاعًا: أَنَّ الْإِيمَانَ قَوْلٌ وَعَمَلٌ يَزِيدُ وَيَنْقُصُ. وَقَدْ وَرَدَ فِيهِ آثَارٌ كَثِيرَةٌ وَأَحَادِيثُ فِي أَوَّلِ صحيح الْبُخَارِيِّ..انتهى.[[28]](#footnote-28)

يقول سيد قطب:

والإيمان بالغيب هو العتبة التي يجتازها الإنسان، فيتجاوز مرتبة الحيوان الذي لا يدرك إلا ما تدركه حواسه، إلى مرتبة الإنسان الذي يدرك أن الوجود أكبر وأشمل من ذلك الحيز الصغير المحدد الذي تدركه الحواس- أو الأجهزة التي هي امتداد للحواس- وهي نقلة بعيدة الأثر في تصور الإنسان لحقيقة الوجود كله ولحقيقة وجوده الذاتي، ولحقيقة القوى المنطلقة في كيان هذا الوجود، وفي إحساسه بالكون وما وراء الكون من قدرة وتدبير. كما أنها بعيدة الآثر في حياته على الأرض فليس من يعيش في الحيز الصغير الذي تدركه حواسه كمن يعيش في الكون الكبير الذي تدركه بديهته وبصيرته ويتلقى أصداءه وإيحاءاته في أطوائه وأعماقه، ويشعر أن مداه أوسع في الزمان والمكان من كل ما يدركه وعيه في عمره القصير المحدود. وأن وراء الكون قدرة الخالق العظيم.ا.ه.[[29]](#footnote-29)

# من درر البلاغة ولطائف المعاني في هذا المقطع القرآني

في كل كلمةٍ؛ بل وكل حرفٍ يأخذ بعنق أخيه ويتدفق معه المعنى تدفق الماء الزلال يسيل على مروجٍ من ذهبٍ لامعٍ وياقوتٍ بارعٍ تجد كلام الله تعالى فوق الوصوف، وفوق تأمل وتخيل الكلمات والحروف.. وعجيبٌ أمر هؤلاء الذين لا يتوقفون أمام روعة تدفق الإعجاز والجمال والدقة في الأداء النفسي والبلاغة في كتاب الله.. {أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا (82)} [النساء: 82].. {أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (24)} [محمد: 24].. نسأل الله تعالى أن يعيننا الوقوف على بعض أسرار جمال وروعة وجلال كلام الله تعالى.

1. قوله تعالى" ذلك الكتاب " بمعنى: هذا..

وإنما حسنت الإشارة إليه بالاسم الدال على البعد تنبيهاً لبعيد رفيع منزلة كلام الله سبحانه عن كل كلامٍ سواه، ولأن البعد هنا باعتبار علو المنزلة، وبعد مرتبة المشار إليه ( وهو القرآن) من مرتبة كل كتاب وكل كلامٍ سواه..

وقال الزمخشري في الكشاف: فإن قلتَ: لم صحت الإشارة بذلك إلى ما ليس ببعيد؟

قلتُ: وقعت الإشارة إلى " الم " بعد سبق التكلم به وتقضَّيه، والمنقضى في حكم المتباعد، وهذا في كل كلام؛ كما يحدّث الرجل بحديث ثم يقول: وذلك ما لا شك فيه، وكما قال اللَّه تعالى: (لا فارِضٌ وَلا بِكْرٌ عَوانٌ بَيْنَ ذلِكَ). وقال أيضا: (ذلِكُما مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي)، وقيل معناه: ذلك الكتاب الذي وعد الله به الناس من قبلُ ).. ثم قال رحمه الله: (ومعناه: أنّ ذلك الكتاب هو الكتاب الكامل، كأن ما عداه من الكتب في مقابلته ناقص، وأنه الذي يستأهل أن يسمى كتابا، كما تقول: هذا هو الرجل، أى الكامل في الرجولة، الجامع لما يكون في الرجال من مرضيات الخصال. وكما قال الشاعر:

وإن الذي حانت بفلج دماؤهم...هُمّ الْقَوْمُ كلُّ الْقَوْمِ يا أُمَّ خَالِدِ.ا.ه.

وانظر إلى تلك المفارقات العجيبة البعيدة بين إنسان أمّى، لا يقرأ ولا يكتب، يصطفيه الله للنبوة، ويختاره لرسالة دستورها القرآن الكريم، الذي يتلقاه وحيا من السماء على مدى نيف وعشرين سنة.. ثم تكون «اقْرَأْ» أول كلمة تفتتح بها هذه الرسالة.. ثم تتبع بكلمتي «عَلَّمَ بِالْقَلَمِ». وفى هذا ما يؤذن النبىّ بمحتوى جديد من محتويات رسالته، وهو الدعوة إلى القلم والقراءة والكتابة، فذلك من النعم التي أنعم الله بها على عباده، إذ سرعان ما أقبل العرب الأميون على القراءة والكتابة، على أنها دعوة من دعوة الدين، ولفتة من لفتات الشريعة، فتعلّموا وعلموا ما لم يكونوا يعلمون.. ثم بنوا حضارة العلم والإيمان تجوب الدنيا كلها.. ليعلم الملحدين والمنافقين الفاسقين أن العلم والإيمان هما قوام دين الله الحق.. {لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ (42)} [الأنفال: 42].

1. " لاَ رَيْبَ فِيهِ ".. إن قيل: كيف يجوز أن يقال: لا شك فيه؟ وقد شك فيه كثير من الكفار والملاحدة والمنافقين؟

فيه ثلاثة أجوبة:

1. لاشك فيه عند المؤمنين به الذين يقرأونه عن إيمان ويقين؛ فينتفعون به وهو على الكافرين عمى لأنهم عموا عن الهداية فلا يبصرون نوره؛ كما قال البوصيرى في بردته:

قد تنكر العين ضوء الشمي من رمدٍ... وينكر الفم طعم الماء من سقمِ

1. وقيل: معناه لا شك فيه، أي لا ينبغي أن يشك فيه أحد؛ فهو أبعد ما يكون عن التهمة والريب..

لأن القرآن تحدي بإعجازه أرباب الفصاحة وحملة العلوم على مر العصور فلم يستطع محاكاته أو اظهار النقص فيه معاند مهما بلغ؛ فلا ينبغي أن يشك فيه أحد أنه من الله تعالى.. قال الزمخشري: ما نُفى أنّه لا يرتاب فيه أحدٌ؛ وإنما المنفي كونه متعلقا للريب ومظِنَّة له لأنه من وضوح الدلالة وسطوع البرهان بحيث لا ينبغي لمرتاب أن يقع فيه. ألا ترى إلى قوله تعالى:(وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنا عَلى عَبْدِنا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ).. وقال الشيخ الشنقيطي رحمه الله في أضواء البيان: إن القران بالغٌ من وضوح الأدلة وظهور المعجزة ما ينفي تطرق أي ريب إليه, وريب الكفار فيه إنما هو لعمي أبصارهم كما بينه تعالى بقوله " أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى " {الرعد: 19}.. فصرَّح بأن من لا يعلم أنه الحق أن ذلك إنما جاءه من قبل عماه ومعلوم أن عدم رؤية الأعمى للشمس لا ينافي كونها لا ريب فيها لظهورها.

إذا لم يكن للمرء عينٌ صحيحةٌ… فلا غروَ أن يرتاب والصبحُ مُسْفِرُ ا.هـ..

وقال ابن الجوزي: ليس في الحق يا أمامه ريب ……إنما الريب ما يقول الكذوب.. يشرحه صاحب تنوير الأذهان بقوله: إن هذا نفى الريب عن الكتاب لا عن الناس، والكتاب موصوف بأنه لا يتمكن فيه ريب فهو حقٌ صدقٌ معلومٌ ومفهوم ـ شك فيه الناس أولم يشكوا ـ كالصدق صدقٌ في نفسه وإن وصفه الناس بالكذب، والكذب كذب وإن وصفه الناس بالصدق، فكذا الكتاب ليس مما يلحقه ريب أو يتمكن فيه عيب. انتهى[[30]](#footnote-30)

(ج) وقيل معنى " لا ريب فيه ": أى لا ترتابوا فيه فهو الصدق والحق والخير؛ كأنها جملة خبرٍ بمعنى الطلب كما قال تعالى في فريضة الحج " فلارفث ولافسوق " أى لا ترفثوا وتفسقوا.

1. المتأمل في براعة الأداء البلاغي القرآني يجد حسن الوقفات والتقطيع في الآيات إلى جملٍ مستقلة كلٌ منها يحمل بلاغته وفصاحته وأدائه المعنوي الرائع ثم يسلم القياد في تناسقٍ رائعٍ للجملة التي تليه بغير حروف ربط ( عطف ) فتجئ الجمل متآخية متعانقة متتابعة تنساب في خطٍ شعورى ومعنوي متصلٍ لا يتوقف وبلا رابطٍ سوى انسياب النظم والمعنى..

فيُقال إن قوله تعالى: (الم) جملة برأسها، أو طائفة من حروف المعجم مستقلة بنفسها. و (ذلِكَ الْكِتابُ) جملة ثانية. و (لا رَيْبَ فِيهِ) ثالثة. و (هُدىً لِلْمُتَّقِينَ) رابعة.. فقد نبَّه أولا على أن الكلام المتحدَّى به من جنس حروفهم، ثم أشير إلى أن هذا الكلام هو الكتاب المنعوت بغاية الكمال. فكان تقريراً لجهة التحدي في هذه الحروف.. ثم نفى عنه أن يتشبث بهذا الكتاب طرف من الريب، فكان شهادة وتسجيلاً بكماله، بدليل عجزهم عن معارضته بمثله وهو من جنس كلامهم.. ثم أخبر عن هذا الكتاب الذي ثبت كماله عند ذوي العقول بأنه هدى للمتقين.. وفي كل جملةٍ من هذه الجملة نكت من الفصاحة يدركها المتأملون.. [[31]](#footnote-31)

1. وفي قوله تعالى { الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (3)}

* وذكر الصلاة والصدقة لأنّ هاتين أُصول العبادات البدنية والمالية، والأساس لغيرهما..

ومن ثم اختصر الكلام اختصاراً، بأن استغنى عن عدّ الطاعات بذكر ما هو كالعنوان لها، مع ما في ذلك من الإفصاح عن فضل هاتين العبادتين.

* قال الراغب: إقامة الصلاة توفية حدودها، وإدامتها.

وتخصيص الإقامة تنبيه على أنه لم يرد إيقاعها فقط. لهذا، لم يأمر بالصلاة ولم يمدح بها إلا بلفظ الإقامة نحو قوله تعالى { أَقِمِ الصَّلاةَ} [هود: 114]، وقوله { وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاةَ } [الإسراء: 78]، {والَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ} [المائدة: 55]. ولم يقل: المصلين، إلا في المنافقين:{فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ ساهُونَ} [الماعون: 4- 5]، وذلك تنبيه على أن المصلين كثير والمقيمين لها قليل- كما قال عمر رضي الله عنه: الحاجّ قليل والركب كثير- ولهذا قال عليه السلام «من صلى ركعتين مقبلا بقلبه على ربه خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمّه».. فذكر مع قوله «صلّى» الإقبال بقلبه على الله تنبيها على معنى الإقامة، وبذلك عظم ثوابه. وكثير من الأفعال التي حثَّ تعالى على توفية حقه، ذكره بلفظ الإقامة، نحو قوله تعالى {وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقامُوا التَّوْراةَ وَالْإِنْجِيلَ }[المائدة: 66]، ونحو قوله: { وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ }[الرحمن: 9] تنبيها على المحافظة على ضبط الموازين والعدل.انتهى[[32]](#footnote-32)

* وإسناد الرزق إلى نفسه سبحانه { ومما رزقناهم} للإعلام بأنهم ينفقون من رزق الله لهم وماله الذي أعطاهم وليس من ملكهم..

وأدخل من التبعيضية صيانةً لهم وكفا عن الإسراف والتبذير المنهي عنه.. كما قال عليه الصلاة والسلام: «خَيْرُ الصَّدَقَةِ مَا كَانَ عَنْ ظَهْرِ غِنًى وأبدأ بِمن تعول»[[33]](#footnote-33)... يقول صاحب أضواء البيان: عبر في هذه الآية الكريمة بـ(من) التبعيضية الدالة على أنه ينفق لوجه الله بعض ماله ليس كله.ا.ه.

وقدّم مفعول الفعل { ومما رزقناهم}على الفعل { ينفقون} دلالة على كون اختيار الطيب الحلال في الإنفاق أهم، كأنه قال: ويخصون بعض المال الحلال بالتصدّق به.. فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا وَأَنَّ اللَّهَ أَمَرَ المؤْمنينَ بِمَا أمرَ بِهِ المرسَلينَ فَقَالَ: (يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ واعْمَلوا صَالحا)، وَقَالَ: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ)؛ ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ: يَا رَبِّ يَا رَبِّ وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ وَغُذِّيَ بِالْحَرَامِ فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ؟ ". رَوَاهُ مُسْلِمٌ..وكما قال الله تعالى {وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ (88)} [المائدة: 88]، وقال: {فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (114) } [النحل: 114، 115] وشكر النعمة بإطاعة الله فيها وبها وعدم اتخذاها مطية معصيته..وقال تعالى ذامَّا الكافرين الذين لا ينفقون من رزق الله {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (47)} [يس: 47].

* ثم جاء بالفعل { ينفقون} على صورة المضارعة لبيان دوام واستمرار انفاقهم في سبيل الله تعالى..فعن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «اكلفوا من العمل ما تطيقون فإن خير العمل أدومه وإن قل»[[34]](#footnote-34).

وحذف مُتعلَّقه (فلم يبيِّن في ماذا ينفقون) لجعل الانفاق هنا عاماً في كل وجوه الخير المشروعة المفروضة والمندوبة.

1. وفي قوله تعالى:{ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِما أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَما أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (4)} هل هم المتقون الموصوفون أولاً أم أنهم غيرهم؟

قال الزمخشري: يُحتمل أن يراد بهؤلاء مؤمنو أهل الكتاب كعبد اللَّه بن سلام وأضرابه من الذين آمنوا، فاشتمل إيمانهم على كل وحىٍ أنزل من عند اللَّه، وأيقنوا بالآخرة إيقاناً زال معه ما كانوا عليه من أنه لا يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى وأنّ النار لن تمسهم إلا أياما معدودات.

ويحتمل أن يراد وصف الأوّلين (المتقين). ووسط حرف العطف (الواو) على معنى أنهم الجامعون بين تلك الصفات وهذه..

وفي تقديم (بِالْآخِرَةِ) وبناء (يُوقِنُونَ) على: (هُمْ) تعريضٌ بأهل الكتاب وبما كانوا عليه من إثبات أمر الآخرة على خلاف حقيقته، وأنّ قولهم ليس بصادرٍ عن إيقان، وأن اليقين هو ما كان عليه مَن آمن بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك. والإيقان: إتقان العلم بانتفاء الشك والشبهة عنه.ا.ه. [[35]](#footnote-35)

1. قوله تعالى " أولئِكَ عَلى هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (5)"..

وذلك أنه لما قيل: (هُدىً لِلْمُتَّقِينَ) واختصّ المتقون بأنّ الكتاب لهم هدى، كان لسائلٍ أن يسأل فيقول: ما بال المتقين مخصوصين بذلك؟ فوقع الجواب في قوله تعالى: (الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ) إلى آخر السياق كأنه قيل لأن المتقين هم الذين انتفعوا به فكان من صفاتهم كيت وكيت... وجيء بصفة المتقين وخصائصهم التي استوجبوا بها من اللَّه أن يلطف بهم، ويفعل بهم ما لا يفعل بمن ليسوا على صفتهم، أى الذين هؤلاء عقائدهم وأعمالهم، أحقاء بأن يهديهم اللَّه ويعطيهم الفلاح " أولئك على هدى من ربهم.." الآية.

وفي أن يجعل اختصاصهم بالهدى والفلاح تعريضاً بأهل الكتاب الذين لم يؤمنوا بنبوّة رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم، وهم ظانون أنهم على الهدى وطامعون أنهم ينالون الفلاح عند اللَّه. وفي اسم الإشارة الذي هو (أولئك) إيذان بأن مقام الهدى والفلاح يتحدث عن المؤمنين بما أنزل على محمد وما أنزل من قبله والموقنين بالآخرة من المتقين ومن أهل الكتاب.

* ومعنى الاستعلاء في قوله: (عَلى هُدىً) مثل لتمكنهم من الهدى، واستقرارهم عليه، وتمسكهم به. شبهت حالهم بحال من اعتلى الشيء وركبه.

يقول ابن القيم: وأتى بـ "على "في هذا الموضع، الدالة على الاستعلاء، وفي الضلالة يأتي بـ "في "كما في قوله: {وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ} لأن صاحب الهدى مستعل بالهدى، مرتفعٌ به، وصاحب الضلال منغمس فيه ذليلٌ محتَقَر.

* ومعنى " هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ " أى ان الهداية من الله وحده..فهو مصدر الهدى وحده سبحانه..

وهو اللطف والتوفيق إلى التوحيد وأعمال الخير، والترقي إلى الأفضل فالأفضل.. والهداية نوعان: هداية دلالة وبيان وهذه من الله وجعلها للأنبياء والذين يدعون إلى طريقه يبينون للناس (يهدونهم) سبيل الحق كما قال تعالى { وإنك لتهدي إلى صراطٍ مستقيم} أى هداية دلالة وإرشاد، ولكن هداية التوفيق والسداد واتباع صراط الله تعالى فمن الله وحده كما قال تعالى { وإنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء} أى يوفقه ويخلق فيه الاهتداء والسداد والفلاح..

* وفي تنكير {هدى} لإفادة قيمة وجمال وجلال هذا الهدى، كما تقول: لو أبصرت فلانا لأبصرت رجلا.
* وفي تكرير { أُولئِكَ } تنبيه على أنهم كما ثبتت لهم فضيلة الهدى، كذا ثبتت لهم قيمة وجلال الفلاح، ولو كان لهم إحداهما لكفته، فمن مِنَّة الله عليهم أن جمع لهم الهدى والفلاح.
* ثم في ذكر ضمير الفصل والشان {هم } وتعريف { المفلحون} ليفيد الحصر والتاكيد كأنه قال: هم المفلحون لا غيرهم.

# وقفة مع بعض معاني التقوى في القرآن الكريم

قال الله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ \* وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ \*) [آل عمران:102-103].  
وقوله تعالى:((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ ))[آل عمران:102]  
أمرٌ منه عزَّ وجلَّ لعباده المؤمنين بتقواه. وكأنه سبحانه قد جمع في التقوى جميع الخيرات العاجلة والآجلة، ثم أمر عباده المؤمنين بها ليفوزوا ويظفروا بما جعله فيها من الخير والصلاح، والسعادة والفلاح؛ رحمة بعباده المؤمنين. وكان بالمؤمنين رحيماً.

((والتقوى)) وصية الله ربِّ العالمين للأولين والاخرين، قال الله تعالى: (وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ )؛ فما من خير عاجل و لا آجل ظاهر ولاباطن، إلا والتقوى سبيلٌ موصل إليه، ووسيلة مبلِّغة له. و ما من شر عاجلٍ ولا آجلٍ، ظاهر ولا باطن إلا والتقوى حرز حريز، وحصن حصين للسلامة منه، والنجاة من ضرره.  
وكم علَّق الله العظيم في كتابه العزيز على التقوى من خيرات عظيمة، وسعادات جسمية.  
فمن ذلك: المعية الإلهية الحفظية اللطفية، قال الله تعالى: (وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ).  
ومن ذلك: العلم اللدني قال الله تعالى:(وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ)،   
ومن ذلك: الفرقان عند الاشتباه ووقوع الإشكال، والكفارة للسيئات، والمغفرة للذنوب؛ قال الله تعالى: (يِا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إَن تَتَّقُواْ اللّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ) [الأنفال: 8].

ومن ذلك: النجاة من النار، قال الله تعالى:( وَإِنْ مِنْكُمْ إِلا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا \* ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا) [مريم:71-72].  
وقال: (وَ يُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ)[الزمر:61].  
ومن ذلك المخروج من الشدائد، والرزق من حيث لا يحتسب، واليسر وعظم الأجر قال الله تعالى: (وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا\*وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ)[الطلاق:2-3].  
(وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا)[الطلاق:4].(وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا) [الطلاق:5].  
ومن ذلك: الوعد بالجنة، قال الله تعالى: (تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا)[مريم:63]، وقال الله تعالى:(مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ )[الرعد:35]، (وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ )[الشعراء:26]، (إنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ )[القلم:68]، (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ\* فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ)[القمر:54-55].  
ومن ذلك الكرامة في الدنيا والاخرة، قال تعالى: ( إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ )[الحجرات:49].  
فجعل الكرامة عنده بالتقوى، لا بالأنساب ولا بالأموال ولا بشيء آخر. وكم وعد الله ورسوله على التقوى من خيرات وسعادات، ودرجات وحسنات، وصلاح وفلاح، وغنائم وأرباح، يطول ذكرها، ويتعذر حصرها.  
قال العلماء رضوان الله عليهم: التقوى عبارة عن امتثال أوامر الله تعالى، واجتناب نواهيه ظاهراً وباطناً، مع استشعار التعظيم لله، والهيبة والخشية والرهبة من الله.  
وقال بعض المفسرين رحمهم الله في قوله تعالى: (اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ)[ال عمرن:102]: هو أن يطاعَ فلا يعصى، ويذكر فلا ينسى، ويشكر فلا يكفر. انتهى  
ولن يستطع العبد ولو كان له ألف ألف نفس إلى نفسه، و ألف ألف عمر إلى عمره، أن يتقي الله حق تقاته ولو أنفق جميع ذلك في طاعة الله ومحابه، وذلك لعظم حق الله تعالى على عباده، ولجلال عظمة الله، و علو كبريائه، و ارتفاع مجده، و قد قال أفضل القائمين بحقِّ الله، وأكملهم، محمد -صلَّى الله عليه وآله وسلَّم- في دعائه، اعترافاً بالعجز عن القيام بإحصاء الثناء على الله:((أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك، لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك )). وقد بلغنا أن لله ملائكة لم يزالوا منذ خلقهم الله في ركوع وسجود، وتسبيح وتقديس، لا يفترون عنه، ولا يشتغلون بغيره، فإذا كان يوم القيامة يقولون: (( سبحانك ولك الحمد. ما عرفناك حق معرفتك و لا عبدناك حقَّ عبادتك)).

وقد قال بعض العلماء: إن قوله تعالى: (اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ)[ال عمران:102]، منسوخ بقوله:(فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ )[التغابن:16].

وقال بعضهم:الآية الثانية مبيِّنةٌ للمراد من الآية الأولى لا ناسخةٌ لها، وهذا هو الصواب إن شاء الله تعالى، فإن الله تعالى - وله الحمد - لا يكلف نفساً إلا وسعها، وإن كان له ذلك لو أراده وأمر به، لأن له أن يفعل في ملكه وسلطانه ما شاء؛ ولكنه سبحانه قد خفَّف ويسَّر، كما قال تعالى:( يُرِيدُ اللّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا)[النساء:28].  
(يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ )[البقرة:185/2].  
قال الأمام الغزالي رحمه الله في ((الإحياء)) - وقد ورد في الصحيح -: لما نزل قوله تعالى: (لِّلَّهِ ما فِي السَّمَاواتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللّهُ )[البقرة:284/2].  
شق ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضي عنهم، فجاء وا إليه وقالوا: يا رسول الله، كُلِّفنا ما لا نطيق ! وفهموا من الآية المؤاخذة والمحاسبة حتى على حديث النفس، فقال لهم عليه لسلام:(( أتريدون أن تقولوا كما قالت بنو إسرائيل: سمعنا وعصينا ! ولكن قولوا سمعنا وأطعنا، غفرانك ربنا وإليك المصير)).

فقالوا ذلك، فأنزل الله: (آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ )[البقرة:285].  
فحكى ذلك عنهم وما بعده من دعائهم: بأن لا يؤاخذهم بالنسيان والخطأ، ,أن لا يحمل عليهم الإصر، إلى آخر ما أخبر به عنهم. فاستجاب لهم وخفف ويسر ورفع الحرج، فله الحمد كثيراً.  
وبيَّن ذلك عليه السلام بقوله: ((تجوز لي عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكبر هوا عليه، وما حدثوا به أنفسهم ما لم يقولوا أو يعلموا)) الحديث.  
وقوله تعالى:(وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ)[ال عمران:102]. أمر منه سبحانه بالموت على الإسلام، وهو دين الله الذي أخبر في كتاب أنه الدين عنده، وأنه لا يقبل من أحد سواه، وأنه الدين الذي رضيه لرسوله ولعباده المؤمنين، فقال تعالى: (إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللّهِ الإِسْلاَمُ )[ال عمران:19].  
وقال تعالى: (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا )[المائدة:3]،   
وليس يقدر الإنسان على أن يميت نفسه على الإسلام، ولكن قد جعل الله له سبيلاً إلى ذلك، إذا أخذ به كان قد أتى بالذي هو عليه، وامتثل ما أمره به وهو أن يختار الموت على الإسلام، ويحبه ويتمناه، ويعزم عليه، ويكره الموت على غيره من الأديان، ولا يزال داعياً متضرعاً وسائلاً من الله أن يتوفاه مسلماً، وبذلك وصف الله الأنبياء والصالحين من عباده فقال مخبراً عن يوسف بن يعقوب عليهما السلام: (أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنُيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ)[يوسف:101].  
وعن السحرة حين آمنوا فتوعَّدهم فرعون بالعقوبة: (رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ) [الأعراف: 126].  
وحكى الله تعالى عن إبرهيم عليه السلام الوصية بالموت على الإسلام فقال تعالى: ( وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إَلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ) [البقرة:132].  
و على الإنسان الاجتهاد في حفظ إسلامه وتقويته بفعل ما أمر به من طاعة الله تعالى، فإن المضيع لأوامر الله متعرض للموت على غير الإسلام، فإن تركه لذلك دليل على استهانته بحق الدين وعلى الاستخفاف به، فليحذر المسلم من ذلك غاية الحذر.  
وعليه أيضاً أن يجانب المعاصي والآثام، فإنها تضعف الإسلام وتوهنه، وتزلزل قواعده وتعرضه للسب عند الموت، كما وقع ذلك -والعياذ بالله - لكثير من الملابسين لها، والمصرين عليه.  
وفي قوله تعالى: (ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا السُّوأَى أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِؤُون) [الروم:10]

ما يدلُ على ذلك، فتأمَّله، وخذْ نفسَك بامتثال أوامر الله تعالى، و اجتناب محارمه. وإن وقعت في شيء منها فتب إلى الله تعالى منه، واحذر كل الحذر من الإصرار عليه.  
ولا تزال سائلاً من الله حسن الخاتمة، وقد بلغنا أن الشيطان - لعنه الله - يقول: قصم ظهري الذي يسأل الله تعالى حسن الخاتمة. يقول اللعين: متى يعجب هذا بعمله؟ أخاف أن قد فطن؟.

وأكثر من الحمد والشكر لله على نعمة الإسلام، فإنها أعظم النعم وأكبرها، فإن الله لو أعطى الدنيا بحذافيرها عبداً ومنعه الإسلام لكان ذلك وبالاً عليه.  
ولو أعطاه الإسلام ومنعه الدنيا لم يضرُّه ذلك، لأن الأول يموت فيصير إلى النار والعذاب في خلود دائم، وهذا الثاني يموت فيصير إلى الجنة والنعيم فب خلود دائم.  
وعليه أن لا تزال خائفاً وجلاً من سوء الخاتمة، فإن الله مقلب القلوب، يهدي من يشاء، ويضل من يشاء. وفي الحديث الصحيح: (( والذي لا إله غيره: إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة، وحتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها)) الحديث.

وفيه غاية التخويف لأهل التقوى والأستقامة، فضلاً عن أهل التفريط والتخليط. وكان بعض السلف الصالح يقول: والله ما أمن أحد على دينه أن يُسلَب إلا سُلِب.  
وقد كان السلف الصالح - رحمة الله عليهم- في غاية الخوف من خاتمة السوء مع صلاح أعمالهم وقلة ذنوبهم، حتى قال بعضهم: لو عُرِض عليَّ الموت على الإسلام بباب الحجرة، والشهادة بباب الدار، يعني الشهادة في سبيل الله، لاخترت الموت على الإسلام على باب الحجرة، على الشهادة على باب الدار، لأني لا أدري ما الذي يعرض لقلبي فيما بين الحجرة إلى باب الدار!

وقال آخر لبعض إخوانه: إذا حضرني الموت فاقعد عند رأسي وانظر، فإن رأيتني قد مِتُّ على الإسلام فخذ جميع ما معي فبِعْه، وخذْ به سكراً ولوزاً وفَرِّقه على الصبيان. وإن رأيتني قد مِتُّ على غير ذلك فأعلم الناس ليصلي عليَّ من أراد أن يُصَلِّي، على بصيرة. وكان قد ذكر له علامة يعرف بها الفرق بين الأمرين. قال: فرأيته قد مات على الإسلام وفعل ما أمره به من التصدق على الصبيان. وحكاياتهم في ذلك كثيرة مشهورة.  
واعلم أنه كثيراً ما يختم بالسوء للذين يتهاونون بالصلاة المفروضة، والزكاة الواجبة، والذين يتتعبون عورات المسلمين، والذين ينقصون المكيال والميزان، والذين يخدعون المسلمين ويغشونهم ويلبسون عليهم في أمور الدين والدنيا، والذين يُكَذِّبون أولياء الله، وينكرون عليهم بغير حق، والذين يدَّعون أحوال الأولياء ومقاماتهم من غير صدق، وأشباه ذلك من الأمور الشنيعة.

ومن أخوف ما يخاف منه على صاحبه سوء الخاتمة، البدعة في الدين، وكذلك إضمار الشكِّ في الله ورسوله واليوم الآخر. فليحذر المسلم من ذلك غاية الحذر، ولا عاصم من أمر الله إلا من رحم.

اللَّهمَّ يا أرحم الرحمين، نسألك بنور وجهك الكريم، أن تتوفانا مسلمين، وأن تلحقنا بالصالحين في عافية يا رب العالمين.

وقد قال رسول الله -صلَّى الله عليه وآله وسلَّم-: (( ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربَّاً،

وبالإسلام ديناً، وبمحمد نبيَّاً )). ا.ه. ([[36]](#footnote-36))

# وقال تعالى في أهل الكفر والتكذيب: ( الآيات 6-8)

{إنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (6) خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (7) } [البقرة: 6 - 8]

اعلم أن الله عزّ وجل صدر هذه السورة بأربع آيات أنزلها في المؤمنين وبآيتين أنزلهما في الكافرين وبثلاث عشرة آية أنزلها في المنافقين.

فأما التي في الكفار لما ذكر المؤمنين وأحوالهم ذكر الكافرين ومآلهم في معرض الجواب لسؤال من كأنه قال: هذا حال الكتاب مع المؤمنين به وهو لهم الهدى والنور؛ فما حاله مع الكافرين؟ قال سبحانه: {إِنَّ الذين كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ}.

وهذا انتقال من الثناء على الكِتَاب الكريم والمهتدين به، ولما كان الشيء يظهر بضده انتقل إلى الكلام على الذين لا يحصل لهم الاهتداء، وسجَّل أن حرمانهم من الاهتداء إنما كان من خبث أنفسهم، فما كانوا من الذين يفكرون في عاقبة أمورهم ويحذرون من سوء العواقب فلم يكونوا من المتقين ولم يتلقوا الإنذار بالتأمل والتعقل، فكان الإنذار عندهم وعدمه سواء..

(قال صاحب الكشاف: {سَوَآء} اسم بمنعى الاستواء وصف به كما يوصف بالمصادر ومنه قوله تعالى: {تَعَالَوْاْ إلى كَلِمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُم} [ آل عمران: 64 ] {فِى أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاء لّلسَّائِلِينَ} [ فصلت: 10 ] بمعنى مستوية، فكأنه قيل إن الذين كفروا مستوٍ عليهم إنذارك وعدمه.).. معناه سواء عليهم إنذارك وعدم إنذارك لهم بعد ذلك لأن القوم كانوا قد بلغوا في الإصرار واللجاج والإعراض عن الآيات والدلائل إلى حالة ما بقي فيهم ألبتة رجاء القبول بوجه؛ فكان ذلك يفيد حصول اليأس وقطع الرجاء منهم..

وإنما قطعت هذه الجملة عن التي قبلها لأن بينهما كمال الانقطاع والمقابلة في المواقف؛ إذ الجمل السابقة لذكر الهدى والمهتدين، وهذه لذكر الضالين. ا هـ[[37]](#footnote-37)

وإن الله تعالى قد يتكلم بالعام ويكون مراده الخاص، فالمقصودون هنا من حكم الله سبحانه وقضى بموتهم على الكفر والهلاك وذلك بقرينة الآية بعدها تبين خصوص معناها.. وإنما أراد به بعض الكفار الذين ثبتوا على كفرهم، كما روي عن صفية بنت حيي بن أخطب قالت: رجع أبي وعمي من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال أحدهما لصاحبه: ما ترى في هذا الرجل؟ فقال: إنه نبي، فقال: ما رأيك في اتباعه؟ فقال: رأيي أن لا أتبعه، وأن أظهر له العداوة إلى الموت.

قال الفخر:

اختلف أهل التفسير في المراد ههنا بقوله: {الذين كَفَرُواْ} فقال قائلون: إنهم رؤساء اليهود المعاندون الذين وصفهم الله تعالى بأنهم يكتمون الحق وهم يعلمون، وهو قول ابن عباس رضي الله عنهما، وقال آخرون: بل المراد قوم من المشركين، كأبي لهب وأبي جهل والوليد بن المغيرة وأضرابهم، وهم الذين جحدوا بعد البينة، وأنكروا بعد المعرفة ونظيره ما قال الله تعالى: {فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا في أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ} [ فصلت: 4، 5 ] وكان عليه السلام حريصاً على أن يؤمن قومه جميعاً حيث قال الله تعالى له: {فَلَعَلَّكَ باخع نَّفْسَكَ على ءاثارهم إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بهذا الحديث أَسَفاً} [ الكهف: 6 ] ثم إنه سبحانه وتعالى بين له عليه السلام أنهم لا يؤمنون ليقطع طمعه عنهم ولا يتأذى بسبب ذلك، فإن اليأس إحدى الراحتين. انتهى[[38]](#footnote-38)

وقوله تعالى: {خَتَمَ الله على قُلُوبِهِمْ وعلى سَمْعِهِمْ وعلى أبصارهم غشاوة}.

هذه الجملة جاريةٌ مجرى التعليل للحكم السابق في قوله تعالى: {سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون} [ البقرة: 6 ] وبيان لسببه في الواقع ليدفع بذلك تعجب المتعجبين من استواء الإنذار وعدمه عندهم ومن عدم نفوذ الإيمان إلى نفوسهم مع وضوح دلائله، فإذا عَلم أن على قلوبهم وعلى أسماعهم ختماً؛ وأن على أبصارهم غشاوة عَلِمَ سبب ذلك كله وبطل العجب، فالجملة استئناف بياني يفيد جواب سائل يسأل عن سبب كونهم لا يؤمنون، وموقع هذه الجملة في نظم الكلام بعد ذكر أحوال الكافرين في مقابل موقع جملة {أولئك على هدى من ربهم} [ البقرة: 5 ] بعد ذكر أوصاف المتقين؛ فلهذه الجملة مكانة تبيِّن ذم أصحابها بمقدار ما لتلك من المكانة في الثناء على أربابها.

والختم حقيقته السد على الإناء والغلقُ على الكتاب بطين ونحوه مع وضع علامة مرسومة في خاتَم ليمنع ذلك من فتح المختوم، فإذا فُتح علم صاحبه أنه فتح لفسادٍ يظهر في أثر النقش، وقد كانت العرب تختم على قوارير الخمر.. (قال القرطبي: ومنه: ختم الكتاب والباب وما يشبه ذلك، حتى لا يوصل إلى ما فيه، ولا يوضع فيه غير ما فيه.. وقال أهل المعاني: وصف الله تعالى قلوب الكفار بعشرة أوصاف: بالختم والطبع والضيق والمرض والرَّيْن والموت والقساوة والانصراف والحَمِيّة والإنكار. ا.ه.).

والغِشاوة فِعالة من غشاه وتغشاه إذا حجبه.. فغشاوة بمعنى حجاب.

( قال الفخر: الفائدة في تكرير الجار في قوله: {وعلى سَمْعِهِمْ} أنها لما أعيدت للأسماع كان أدل على شدة الختم في الموضعين؛ على القوب وعلى الأسماع. ا.ه.)

وليس الختم على القلوب والأسماع ولا الغشاوة على الأبصار هنا حقيقةً كما توهمه بعض المفسرين؛ بل ذلك جار على طريقة المجاز بأن جعل قلوبهم أي عقولهم في عدم نفوذ الإيمان والحق والإرشاد إليها، وجعل أسماعهم في استكاكها عن سماع الآيات والنذر، وجعل أعينهم في عدم الانتفاع بما ترى من المعجزات والدلائل الكونية، كأنها مختوم عليها ومحجوبٌ دونها إما على طريقة الاستعارة أو التمثيل أو المجاز المرسل.. والختم في اصطلاح الشرع استمرار الضلالة في نفس الضال أو خلق الضلالة، ومثله الطبع في قوله تعالى: {وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا (155) } [النساء: 155، 156] وكذلك قوله: { أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (108)} [النحل: 108]، والأكنة في قوله سبحانه: {إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا (57)} [الكهف: 57]. انتهى.[[39]](#footnote-39)

قال أبو حيان: شبَّه تعالى قلوبهم لتأبيها عن الحقِّ، وأسماعهم لإِضرابها عن سماع داعي الفلاح، وأبصارهم لامتناعها عن تلمح نور الهداية، بالوعاء المختوم عليه، المسدود منافذه، المغطَّى بغشاء يمنع أن يصله ما يصلحه، وذلك لأنها كانت - مع صحتها وقوة إدراكها - ممنوعة عن قبول الخير وسماعه، وتلمح نوره، وهذا بطريق الاستعارة..ا.ه.

قوله تعالى: {وَلَهُمْ عَذَابٌ عظِيمٌ} وعيد وبيان لما يستحقونه في الآخرة من العذاب العظيم؛ ووصفُ العذاب بكونه عظيماً لتأكيد ما يفيده التنكيرُ من التفخيم والتهويل والمبالغة في ذلك.

# فوائد ولطائف:

1. قال ابن عطية في المحرر الوجيز: معنى الكفر مأخوذ من قولهم كفر إذا غطى وستر، ومنه قول الشاعر لبيد بن ربيعة: في ليلة كفر النجوم غمامها... أي سترها ومنه سمي الليل كافراً لأنه يغطي كل شيء بسواده..ومنه قيل للزراع كفار، لأنهم يغطون الحب، ف " كفر " في الدين معناه غطى قلبه بالرِّين عن الإيمان أو غطى الحق بأقواله وأفعاله.ا.ه.

[ وَالْكُفْرُ عَلَى أَرْبَعَةِ أَنْحَاءٍ: كُفْرُ إِنْكَارٍ، وَكُفْرُ جَحُودٍ، وَكُفْرُ عِنَادٍ، وَكُفْرُ نِفَاقٍ.

فَكُفْرُ الْإِنْكَارِ: أَنْ لَا يَعْرِفَ اللَّهَ أَصْلًا وَلَا يَعْتَرِفَ بِهِ (ككفر الملاحدة والماديين في عصرنا).

وَكُفْرُ الْجَحُودِ هُوَ: أَنْ يَعْرِفَ اللَّهَ تَعَالَى بِقَلْبِهِ وَلَا يُقِرُّ بِلِسَانِهِ كَكُفْرِ إِبْلِيسَ وَكُفْرِ الْيَهُودِ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: "فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ" (89- الْبَقَرَةِ).

وَكُفْرُ الْعِنَادِ هُوَ: أَنْ يَعْرِفَ اللَّهَ بِقَلْبِهِ وَيَعْتَرِفَ بِلِسَانِهِ وَلَا يَدِينُ بِهِ كَكُفْرِ أَبِي طَالِبٍ عم الرسول حَيْثُ يَقُولُ: وَلَقَدْ عَلِمْتُ بِأَنَّ دِينَ مُحَمَّدٍ... مِنْ خَيْرِ أَدْيَانِ الْبَرِيَّةِ دِينًا

لَوْلَا الْمَلَامَةُ أَوْ حَذَارِ مَسَبَّةٍ... لَوَجَدْتَنِي سَمْحًا بِذَاكَ مُبِينًا.

وَأَمَّا كُفْرُ النِّفَاقِ: فَهُوَ أَنَّ يُقِرَّ بِاللِّسَانِ وَلَا يَعْتَقِدَ بِالْقَلْبِ.. وَجَمِيعُ هَذِهِ الْأَنْوَاعِ سَوَاءٌ فِي أَنَّ مَنْ لَقِيَ اللَّهَ تَعَالَى بِوَاحِدٍ مِنْهَا لَا يُغْفَرُ لَهُ ] ا.ه.[[40]](#footnote-40)

( ويلحق بالكفر في إجراء أحكام الكفر عليه كل قولٍ أو فعلٍ لا يجترىء عليه مؤمن مصدق بحيث يدل على قلة اكتراث فاعله بالإيمان والدين (كمستحل ما حرم الله تعالى وهو يعلم)، وعلى إضماره الطعن في الدين وشرائعه (كمن ينكر ما هو معلوم من الدين بالضرورة أو يشكك فيه متعمداً )، وتوسله بذلك إلى نقض أصوله وإهانته بوجهٍ لا يقبل التأويل الظاهر؛ وفي هذا النوع الأخير مجال لاجتهاد الفقهاء وفتاوى أساطين العلماء إثباتاً ونفياً بحسب مبلغ دلالة القول والفعل المكفِّر على طعن أو شك في الدين وشرائعه والرسالة ومقتضياتها ). انتهى[[41]](#footnote-41).. قلتُ: وأحكام الايمان والكفر باب كبير وخطير من أبواب العقيدة فيه من التحقيق بين طوائف الاسلام الكثير فراجعه مشكوراً في مظانه..

1. الإنذار هو إعلام مع تخويف، فإن خلا من التخويف كان إعلاما فقط..

يقول القرطبي: الإنذار الإبلاغ والإعلام، ولا يكاد يكون إلا في تخويف يتّسع زمانه للاحتراز، فإن لم يتسع زمانه للاحتراز كان إشعاراً ولم يكن إنذاراً؛ قال الشاعر:

أنذرتَ عَمراً وهو في مَهَلٍ...قبلَ الصباح فقد عصى عَمْرُو.

قال الفخر: وإنما ذكر الإنذار دون البشارة لأن تأثير الإنذار في الفعل والترك أقوى من تأثير البشارة؛ لأن اشتغال الإنسان بدفع الضرر أشد من اشتغاله بجلب المنفعة، وهذا الموضع موضع المبالغة وكان ذكر الإنذار أولى. انتهى[[42]](#footnote-42)

1. في قوله تعالى {خَتَمَ الله على قُلُوبِهِمْ وعلى سَمْعِهِمْ وعلى أبصارهم غشاوة} فائدة في اعتقاد أهل السنة ورد على المعتزلة (القدرية) الذين يدعون باطلاً أن من عدل الله أن لا يقدر الهلاك والنجاة وإنما هى للعبد إن شاء اهتدى وإن شاء ضل بعد البيان..

قال القرطبى: في هذه الآية أدَلّ دليل وأوضح سبيل على أن الله سبحانه خالق الهدى والضلال، والكفر والإيمان؛ فاعتبروا أيها السامعون، وتعجبوا أيها المفكرون من عقول القدرية القائلين بخلق إيمانهم وهداهم؛ فإن الختم هو الطبع فمن أين للكافرين الإيمان ولو جَهَدوا؛ وقد طبع على قلوبهم وعلى سمعهم وجعل على أبصارهم غشاوة، فمتى يهتدون، أو من يهديهم من بعد الله إذا أضلهم وأصمهم وأعمى أبصارهم {وَمَن يُضْلِلِ الله فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ} [ الرعد: 33 ] وكان فعل الله ذلك عدلا فيمن أضله وخذله، إذ لم يمنعه حقاً وجب له فتزول صفة العدل، وإنما منعهم ما كان له أن يتفضل به عليهم لا ما وجب لهم.

فإن قالوا: إن معنى الختم والطبع والغشاوة التسميةُ والحكم والإخبارُ بأنهم لا يؤمنون، لا الفعل.

قلنا: هذا فاسد، لأن حقيقة الختم والطبع إنما هو فعل ما يصير به القلب مطبوعاً مختوماً؛ لا يجوز أن تكون حقيقته التسمية والحكم؛ ألا ترى أنه إذا قيل: فلان طبع الكتاب وختمه، كان حقيقة أنه فعل ما صار به الكتاب مطبوعاً ومختوماً، لا التسمية والحكم.

هذا ما لا خلاف فيه بين أهل اللغة، ولأن الأمة مجمعة على أن الله تعالى قد وصف نفسه بالختم والطبع على قلوب الكافرين مجازاة لكفرهم؛ كما قال تعالى: {بَلْ طَبَعَ الله عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ} [ النساء: 155 ].

وأجمعت الأمة على أن الطبع والختم على قلوبهم من جهة النبي عليه السلام والملائكة والمؤمنين ممتنع؛ فلو كان الختم والطبع هو التسمية والحكم لما امتنع من ذلك الأنبياء والمؤمنون؛ لأنهم كلهم يسمون الكفار بأنهم مطبوع على قلوبهم، وأنهم مختوم عليها وأنهم في ضلال لا يؤمنون؛ ويحكمون عليهم بذلك.

فثبت أن الختم والطبع هو معنىً غير التسمية والحكم؛ وإنما هو معنىً يخلقه الله في القلب يمنع من الإيمان به؛ دليله قوله تعالى: {كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ المجرمين. لاَ يُؤْمِنُونَ بِهِ} [ الحجر: 12 ].. وقال: {وَجَعَلْنَا على قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ} [ الأنعام: 25 ]. أي لئلا يفقهوه، وما كان مثله ). انتهى[[43]](#footnote-43)

قال الشيخ الشنقيطي:

قوله تعالى: {خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ} الآية. هذه الآية تدل بظاهرها على أنهم مجبورون لأن من ختم على قلبه وجعلت الغشاوة على بصره سلبت منه القدرة على الإيمان. وقد جاء في آيات أخر ما يدل على أن كفرهم واقع بمشيئتهم وإرادتهم كقوله تعالى: {فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى} , وكقوله تعالى: {أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ} , وكقوله: {فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ} الآية, وكقوله: {ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُم} الآية, وكقوله: {لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُم} الآية.

والجواب: أن الختم والطبع والغشاوة المجعولة على أسماعهم وأبصارهم وقلوبهم, كل ذلك عقاب من الله لهم على مبادرتهم للكفر وتكذيب الرسل باختيارهم ومشيئتهم, فعاقبهم الله بعدم التوفيق جزاء وفاقا. كما بينه تعالى بقوله: {بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ} وقوله: {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ} وبقوله: {وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ} وقوله: {فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ} وقوله: {فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً} الآية وقوله: {بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} , إلى غير ذلك من الآيات. انتهى[[44]](#footnote-44)

1. قال القرطبى:إن قال قائل: لِمَ جمع الأبصار ووَحَّد السمع؟

قيل له: إنما وحده لأنه مصدر يقع للقليل والكثير؛ يقال: سمعت الشيء أسمعه سَمْعاً وسماعاً، فالسّمع مصدر سمعت؛ والسمع أيضاً اسم للجارحة المسموع بها سُمِّيت بالمصدر. وقيل: إنه لما أضاف السمع إلى الجماعة دل على أنه يراد به أسماع الجماعة..

وقال ابن عاشور: وقد تكون في إفراد السمع لطيفة روعيت من جملة بلاغة القرآن هي أن القلوب كانت متفاوتة واشتغالها بالتفكر في أمر الإيمان والدين مختلف باختلاف وضوح الأدلة، وبالكثرة والقلة وتتلقى أنواعاً كثيرة من الآيات فلكل عقل حظه من الإدراك، وكانت الأبصار أيضاً متفاوتة التعلق بالمرئيات التي فيها دلائل الوحدانية في الآفاق، وفي الأنفس التي فيها دلالة، فلكل بصر حظه من الالتفات إلى الآيات المعجزات والعبر والمواعظ، فلما اختلفت أنواع ما تتعلقان به جمعت.

وأما الأسماع فإنما كانت تتعلق بسماع ما يُلقى إليها من القرآن فالجماعات إذا سمعوا القرآن سمعوه سماعاً متساوياً وإنما يتفاوتون في تدبره والتدبر من عمل العقول فلما اتحد تعلقها بالمسموعات جعلت سمعاً واحداً.

قال القرطبي: قوله تعالى: {على قُلُوبِهمْ} فيه دليل على فضل القلب على جميع الجوارح. القلب للإنسان وغيره هذا العضو الشريف، وخالص كل شيء وأشرفه قلبه؛ فالقلب موضع الفكر.. وهو في الأصل مصدر قَلَبْتُ الشيء أقلِبه قلباً إذا رددته على بداءته. وقلبت الإناء: رددته على وجهه. ثم نقل هذا اللفظ فسمي به هذا العضو الذي هو أشرف الحيوان، لسرعة الخواطر إليه، ولترددها عليه؛ كما قيل:ما سُمِّيَ القلب إلاّ مِنْ تقلُّبِه...فاحذْر على القلب من قَلْبٍ وتحويل.

وقوله عليه السلام: " إن في الجسد مُضْغةً إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب " دليل على أن الختم يكون حقيقياً.

والجوارح وإن كانت تابعة للقلب فقد يتأثر القلب بأعمالها وإن كان رئيسها وملِكها للارتباط الذي بين الظاهر والباطن؛ قال صلى الله عليه وسلم: " إن الرجل ليصدُقُ فتُنْكت في قلبه نكتة بيضاء وإن الرجل ليكذب الكذبة فيسودّ قلبه " وروى الترمذي وصححه عن أبي هريرة: " أن الرجل ليصيب الذنب فيسودّ قلبه فإن هو تاب صقل قلبه " قال: وهو الرَّين الذي ذكره الله في القرآن في قوله: {كَلاَّ بَلْ رَانَ على قُلُوبِهِمْ مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ} [ المطففين: 14 ].

والقلب قد يعبر عنه بالفؤاد والصدر، قال الله تعالى: {كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ} [الفرقان:32 ]. وقال: {أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ} [ الشرح: 1 ] يعني في الموضعين قلبك.

وقد يعبر به عن العقل؛ قال الله تعالى: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لذكرى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ} [ ق: 37 ] أي عقل؛ لأن القلب محل العقل في قول الأكثرين.

والفؤاد محل القلب، والصدر محل الفؤاد؛ والله أعلم[[45]](#footnote-45).

1. قال أبو حيان: وذكروا أيضاً أن في هاتين الآيتين من ضروب الفصاحة أنواعاً:

الأول: الخطاب العام اللفظ الخاص المعنى.

الثاني: الاستفهام الذي يراد به تقرير المعنى في النفس، أي يتقرر أن الإنذار وعدمه سواء عندهم.

الثالث: المجاز، ويسمى: الاستعارة، وهو قوله تعالى: {ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم}، والختم هنا معنوي، فإن القلب لما لم يقبل الحق مع ظهوره استعير له اسم المختوم عليه فبين أنه من مجاز الاستعارة.

الرابع: الحذف، وهو في مواضع: منها: أن الذين كفروا، أي أن القوم الذين كفروا بالله وبك وبما جئت به. ومنها: لا يؤمنون بالله وبما أخبرتهم به عنه. ومنها: ختم الله على قلوبهم فلا تعي وعلى أسماعهم فلا تصغي. ومنها: وعلى أبصارهم غشاوة على من نصب، أي وجعل على أبصارهم غشاوة فلا يبصرون سبيل الهداية. ومنها: ولهم عذاب، أي ولهم يوم القيامة عذاب عظيم دائم، ويجوز أن يكون التقدير: ولهم عذاب عظيم في الدنيا بالقتل والسبي أو بالإذلال ووضع الجزية وفي الآخرة بالخلود في نار جهنم.

الخامس: التعميم: وهو في قوله: {ولهم عذاب عظيم}، فإنه لو اقتصر على قوله عذاب ولم يقل عظيم لاحتمل القليل والكثير، فلما وصفه بالعظيم تمَّم المعنى وعلم أن العذاب الذي وعدوا به عظيم، إما في المقدار وإما في الإيلام والدوام.

السادس: الإشارة، فإن قوله: {سواء عليهم} إشارة إلى أن السواء الذي أضيف إليهم فإن وباله ونكاله عليهم لا على أحد سواهم؛ فعدل بالتعبير عن قوله (سواء عندهم) إلى ( سواء عليهم).

السابع: مجاز التشبيه شبه قلوبهم لتأبيها عن الحق، وأسماعهم لإضرابها عن سماع داعي الفلاح، وأبصارهم لامتناعها عن تلمح نور الهداية بالوعاء المختوم عليه المسدود منافذه المغشي بغشاء يمنع أن يصل إليه ما يصلحه، لما كانت مع صحتها وقوة إدراكها ممنوعة عن قبول الخير وسماعه وتلمح نوره، وهذا كله من مجاز التشبيه، إذ الختم والغشاوة لم يوجدا حقيقة، وهو بالاستعارة أولى، إذ من شرط التشبيه أن يذكر المشبه والمشبه به. انتهى[[46]](#footnote-46)

# أما المنافقون (الآيات 8-16)

{ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ (8) يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (9) فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (10) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (11) أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ (12) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ (13) وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ (14) اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (15) أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (16) }

# المنَاسَبَة

لما ذكر تعالى في أول السورة صفات المؤمنين، وأعقبها بذكر صفات الكافرين، ذكر هنا «المنافقين» وهم الصنف الثالث، الذين يُظهرون الإيمان ويُبطنون الكفر، وأطنب بذكرهم في ثلاث عشرة آية لينبه إِلى عظيم خطرهم، وكبير ضررهم، ثم عقَّب ذلك بضرب مثلين زيادة في الكشف والبيان، وتوضيحاً لما تنطوي عليه نفوسهم من ظلمة الضلال والنفاق، وما يئول إليه حالهم من الدمار والهلاك..

قال البيضاوي: هذا هو القسم الثالث المذبذب بين القسمين، وهم الذين آمنوا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم، وهم أخبث الكفرة وأبغضهم إلى الله، لأنّهم موَّهوا الكفر وخلطوا به خداعاً واستهزاء، ولذلك أطال في بيان خبثهم وجهلهم، واستهزأ بهم وتهكَّم بأفعالهم، وسجَّل عليهم الضلال والطغيان، وضرب لهم الأمثال.

قال ابن كثير: النفاق هو إظهار الخير، وإِسرارُ الشر وهو أنواع: اعتقادي وهو الذي يخلّد صاحبه في النار، وعملي وهو من أكبر الذنوب والأوزار، لأن المنافق يخالف قولُه فعلَه، وسرُّه علانيته، وإنما نزلت صفات المنافقين في السور المدنية لأن مكة لم يكن بها نفاق بل كان إيمانٌ أو كفرٌ صريح.

# التفسير

هؤلاء هم الصنف الثالث من الناس، وهم المنافقون، الذين ليسوا بالمؤمنين ولا بالكافرين.. والنفاق شر من الكفر الصّراح، لأن الكافر على بينة من أمره مع نفسه، وعلى حال يعرف الناس منها وجهه.. أما المنافق فأمره مختلط، وشأنه مضطرب، فلا هو في الكافرين، ولا في المؤمنين.. ولهذا توعد اللّه سبحانه المنافقين بما لم يتوعد به الكافرين، من عذاب ونكال، حيث يقول سبحانه: « إِنَّ الْمُنافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَ لَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً » (145: النساء).

( إنهم يدّعون الإيمان بالله واليوم الآخر. وهم في الحقيقة ليسوا بمؤمنين. إنما هم منافقون لا يجرؤون على الإنكار والتصريح بحقيقة شعورهم في مواجهة المؤمنين.

وهم يظنون في أنفسهم الذكاء والدهاء والقدرة على خداع هؤلاء البسطاء ولكن القرآن يصف حقيقة فعلتهم، فهم لا يخادعون المؤمنين، إنما يخادعون الله كذلك أو يحاولون: «يُخادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا»..

وفي هذا النص وأمثاله نقف أمام حقيقة كبيرة، وأمام تفضل من الله كريم.. تلك الحقيقة هي التي يؤكدها القرآن دائماً ويقررها، وهي حقيقة الصلة بين الله والمؤمنين. إنه يجعل صفهم صفه، وأمرهم أمره. وشأنهم شأنه، ويجعل عدوهم عدوه، وما يوجه إليهم من مكر موجهاً إليه- سبحانه- وهذا هو التفضل العلوي الكريم.. وهو في ذات الوقت تهديد رعيب للذين يحاولون خداع المؤمنين والمكر بهم، وإيصال الأذى إليهم. تهديد لهم بأن معركتهم ليست مع المؤمنين وحدهم إنما هي مع الله القوي الجبار القهار..

«وَما يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ، وَما يَشْعُرُونَ».. إنهم من الغفلة بحيث لا يخدعون إلا أنفسهم في غير شعور! إن الله بخداعهم عليم والمؤمنون في كنف الله فهو حافظهم من هذا الخداع اللئيم. أما أولئك الأغفال فهم يخدعون أنفسهم ويغشونها. يخدعونها حين يظنون أنهم أربحوها وأكسبوها بهذا النفاق، وهم في الوقت ذاته يوردونها موارد التهلكة.. وينتهون بها إلى شر مصير! ا.ه.).[[47]](#footnote-47)  
« فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ». آفة الكافرين في كفرهم موزعة بين أجهزة ثلاثة في كيانهم، هى القلب، والسمع، والبصر.. فقلوبهم مغلقة عن الخير، وأسماعهم نابية عن الحق، وأبصارهم كليلة عن الهدى... أما المنافقون فإن آفة نفاقهم في القلوب وحدها، حيث قد سمعوا الحق ووعوه، وأبصروا الهدى واستيقنوه، ولكن حين ينفذ هذا كله إلى موطن الإيمان من قلوبهم، يصادف قلوبا مريضة، لا تقبل الحق والخير، وإن قبلتهما فإنها سرعان ما تلفظهما، كما يلفظ المحموم طيب الطعام...«فَزادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً » يمكن أن تكون الفاء هنا للسببية، ويكون المعنى أن ما أرسل اللّه من هدى على يد النبىّ قد استقبلوه بتلك القلوب المريضة فهيّج علّتها، وأيقظ نائم دائها..كما يمكن أن تكون « الفاء » للتفريغ، وتكون الجملة بعدها دعائية، والمعنى أن هؤلاء المنافقين ـ بما استبطنوا من نفاق لا يرجى شفاؤه ـ استحقوا أن يُدعى عليهم بما يزيد مرض قلوبهم مرضا..

«وَإِذا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قالُوا إِنَّما نَحْنُ مُصْلِحُونَ (11) »..( قال ابن مسعود: الفسادُ في الأرض هو الكفرُ، والعملُ بالمعصية، فمن عصى الله فقد أفسد في الأرض).. هكذا ينافق المنافق حتى مع نفسه، فيرى أنه على طريق الحق، على حين أنه غارق في الضلال.. فلقد غلبت عليهم شقوتهم، ونظروا إلى أنفسهم في مرايا النفاق، فرأوا أنهم أحسن الناس حالا، وأكملهم كمالا!!..( قال البيضاوي: تصوُّروا الفساد بصورة الصلاح، لما في قلوبهم من المرض فكانوا كمن قال الله فيهم {أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سواء عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً} [فاطر: 8] ولذلك ردَّ الله عليهم أبلغ ردٍّ..).

« أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَ لكِنْ لا يَشْعُرُونَ (12) ».. إنهم هم المنافقون! لقد فضح اللّه باطنهم الخبيث، وما انطوى عليه من سوء، فدمغهم بهذا الحكم القاطع المؤكد أوثق التوكيد « بجملة أدوات »: ألا (الاستفتاحية) وإنّ (المؤكدة) وهم (ضمير الفصل) وال (المعرّفة للخبر بما يدل على قصر الفساد عليهم وحدهم في " المفسدون ") أي أَلاَ فانتبهوا أيها الناس، إِنهم هم المفسدون حقاً لا غيرهم، ولكنْ لا يفطنون ولا يحُسون، لانطماسِ نور الإِيمان في قلوبهم.  
« وَ إِذا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَما آمَنَ النَّاسُ قالُوا أَ نُؤْمِنُ كَما آمَنَ السُّفَهاءُ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهاءُ وَ لكِنْ لا يَعْلَمُونَ (13) »...( الهمزة في { أنؤمن} للإِنكار مع السخرية والاستهزاء؛ أي قالوا أنؤمن كإِيمان هؤلاء الجهلة ناقصي العقل والتفكير؟! قال البيضاوي: وإِنما سفَّهوهم لاعتقادهم فسادَ رأيهم، أو لتحقير شأنهم، فإِن أكثر المؤمنين كانوا فقراء ومنهم موالي كصهيب وبلال ا.ه.)..وفي إسناد مقول القول « آمنوا » إلى المبنى للمجهول "قيل "، ما يشعر بأن ضلالهم ـ قد أصبح من الانكشاف والوضوح بحيث أنطق كل موجود في محيطهم، بدعوتهم إلى الاستقامة، والانتظام في موكب « الناس »، الذين صانوا إنسانيتهم عن هذا الانحراف السفيه، الذي يعيش فيه المنافقون. ولهذا جاء قول اللّه تعالى: « كَما آمَنَ النَّاسُ » ولم يجئ ء: « كما آمن المؤمنون » وفيه ما يدل على أن الإيمان أقرب شئ إلى الفطرة التي فطر الناس عليها، وأن من شأن الناس أن يستجيبوا لدعوة الإيمان، وأن من استجاب للرسول ـ صلوات اللّه وسلامه عليه ـ هم الناس، ولا اعتبار لغيرهم...وجاءت فاصلة الآية هنا: « لا يعلمون » على حين أنها جاءت في الآية السابقة عليها: « لا يشعرون » وذلك لاختلاف المقام هنا وهناك.. «هُمُ الْمُفْسِدُونَ.. وَ لكِنْ لا يَشْعُرُونَ » « هُمُ السُّفَهاءُ.. وَ لكِنْ لا يَعْلَمُونَ » فالإفساد في الأرض ـ مع أنه مما يجابه الحواس، ويقع في محيط إحساسها ـ لا يشعر به أولئك المنافقون، لكثرة ما ألحقوا على هذه الحواس من خداع وتضليل، ولكثرة ما تعالوا معها بالتعمية والتمويه فلذلك جاء التعبير: « أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَ لكِنْ لا يَشْعُرُونَ »... والسّفه ـ مع أنه انحراف حاد عن طريق الحق والخير ـ لا يقع في علم هؤلاء السفهاء، ولا يرون فيه ما يرى الراشدون من الناس من حماقة ومنقصة! وهنا يلائمه التعبير: «أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهاءُ وَ لكِنْ لا يَعْلَمُونَ ». «وَ إِذا لَقُوا الَّذِين َ آمَنُوا قالُوا آمَنَّا وَ إِذا خَلَوْا إِلى شَياطِينِهِمْ قالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّما نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُنَ (14) اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَ يَمُدُّهُمْ فِي طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ (15) أُولئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدى فَما رَبِحَتْ تِجارَتُهُمْ وَ ما كانُوا مُهْتَدِينَ (16) »

هذه حال المنافقين دائما.. يلقون الناس بوجهين: وجه يظهر الحب والمودة، ووجه يضمر السوء والشر.. إنهم مع أهوائهم الضالة، ونفوسهم المريضة، فحيث كان لهذه الأهواء مُنتجع، وكان لتلك النفوس مُستراح ـ فهم هناك.. يتقلبون مع كل ريح، ويطعمون من كل مائدة! و«شياطينهم » هم رءوس النفاق فيهم، وأصحاب الأمر والتدبير عندهم. ({قالوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ} أي قالوا لهم نحن على دينكم وعلى مثل ما أنتم عليه من الاعتقاد، وإِنما نستهزئ بالقوم ونسخر منهم بإِظهار الإِيمان، قال تعالى رداً عليهم {الله يَسْتَهْزِىءُ بِهِمْ} أي الله يجازيهم على استهزائهم بالإِمهال ثم بالنكال قال ابن عباس: يسخر بهم للنقمة منهم ويُملي لهم كقوله {وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ} [الأعراف: 183] قال ابن كثير: هذا إِخبار من الله أنه مجازيهم جزاء الاستهزاء، ومعاقبهم عقوبة الخداع، فأخرج الخبر مخرج الخبر عن الفعل الذي استحقوا العقاب عليه، فاللفظ متفق والمعنى مختلف، وهذا عند علماء البلاغة يسمى "المشاكلة"؛ وإِليه وجهوا كل ما في القرآن من نظائر مثل {وَجَزَآءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا} [الشورى: 40] ومثل {فَمَنِ اعتدى عَلَيْكُمْ فاعتدوا عَلَيْهِ} [البقرة: 194] فالأول ظلم والثاني عدل {وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ} أي ويزيدهم - بطريق الإِمهال والترك - في ضلالهم وكفرهم يتخبطون ويتردّدون ويتحيرون ).

وفى قوله تعالى: « وَ ما كانُوا مُهْتَدِينَ » بعد قوله سبحانه « فَما رَبِحَتْ تِجارَتُهُمْ » توكيد لخسرانهم وضلالهم، إذ قد لا يربح التاجر في تجارته، ولكن ذلك لا ينقص من ميزانه الخلقي مثقال ذرة، إذ قد يكون عدم ربحه، أو خسارته، لأسباب لا يد له فيها. ولكن هؤلاء الذين اشتروا الضلالة بالهدى إنما هم مغبونون في تلك الصفقة التي عقدوها، ولو جرّت عليهم كثيرا من حطام الدنيا، لأنهم خسروا أنفسهم، وذلك هو الخسران المبين، فهو خسران محقق، وغبن فاحش، يملأ النفس حسرة وندما. عند من وعى وعقل! )[[48]](#footnote-48)ا.ه.

يقول ابن كثير في تفسيره: ( قوله:{ أُولئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدى } أى الكفر بالإيمان. وقال مجاهد: آمنوا ثم كفروا. وقال قتادة: استحبوا الضلالة على الهدى ( قلتُ – أى جامعه -: وقد رجحه القرطبي، وقال: فليست الباء للمعاوضة أبداً، فهم لم يكن عندهم إيمان أصلا، وإنما هى لمعنى الاستبدال والاستحباب للضلال على الهدى، واستدل بقوله تعالى " فاستحبوا العمى على الهدى "(فصلت17) وكذا وافقه الطبري، فراجعهما مشكورا ) وحاصل قول المفسرين فيما تقدم: أن المنافقين عدلوا عن الهدى إلى الضلال، واعتاضوا عن الهدى بالضلالة، وهو المعنى: أى بذلوا الهدى ثمنا للضلالة، وسواء منهم من حصل له الإيمان ثم رجع عنه إلى الكفر، كما قال تعالى " ذلك بأنهم امنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم " ( المنافقون 3)، أو أنهم استحبوا الكفر على الهدى كما هو حال فريق منهم فإنهم جميعا خاسرون... وقوله تعالى " فَما رَبِحَتْ تِجارَتُهُمْ وَ ما كانُوا مُهْتَدِينَ " أى ما ربحت صفقتهم في هذه البيعة وما كانوا راشدين في صنيعهم. قال قتادة: قد والله رأيتموهم خرجوا من الهدى إلى الضلالة، ومن الجماعة إلى الفرقة، ومن الأمن إلى الخوف ومن السنة إلى البدعة )ا.ه.

قال الصاوي[[49]](#footnote-49):"اشتروا الضلالة بالهدى " أى استبدلوها به وقد أشار الجلال السيوطي رحمه الله أن المراد بالشراء مطلق الاستبدال والباء داخلة في الثمن.. وكلامه يقتضى أن الهدى كان موجودا عندهم ثم دفعوه وأخذوا الضلالة وهو كذلك لقوله (ص)" كل مولود يولد على الفطرة..الحديث ". ولأنهم في العهد يوم قال ربنا: " ألست بربكم " أجابوا جميعا بالإيمان) ا.ه.

يقول سيد قطب:

لقد كانت هذه صورة واقعة في المدينة ولكننا حين نتجاوز نطاق الزمان والمكان نجدها نموذجاً مكروراً في أجيال البشرية جميعاً. نجد هذا النوع من المنافقين من علية الناس الذين لا يجدون في أنفسهم الشجاعة ليواجهوا الحق بالإيمان الصريح، أو يجدون في نفوسهم الجرأة ليواجهوا الحق بالإنكار الصريح. وهم في الوقت ذاته يتخذون لأنفسهم مكان المترفع على جماهير الناس، وعلى تصورهم للأمور! ومن ثم نميل إلى مواجهة هذه النصوص كما لو كانت مطلقة من مناسبتها التاريخية، موجهة إلى هذا الفريق من المنافقين في كل جيل. وإلى صميم النفس الإنسانية الثابت في كل جيل.[[50]](#footnote-50)

# اللغَة والمعاني

{يُخَادِعُونَ} الخِداع: المكر والاحتيال وإِظهار خلاف الباطن، وأصله الإِخفاء ومنه سُمي الدهرُ خادعاً لما يخفي من غوائله، وسُمي المِخْدع مِخْدعاً لتستر أصحاب المنزل فيه {مَّرَضٌ} المرض: السُّقْم وهو ضد الصحة وقد يكون حسياً كمرض الجسم، أو معنوياً كمرض النفاق ومرض الحسد والرياء، قال ابن فارس: المرضُ كلُّ ما خرج به الإنسان عن حد الصحة من علةٍ، أو نفاق: أو تقصير في أمر {تُفْسِدُواْ} الفساد: العدول عن الاستقامة وهو ضد الصلاح {السفهآء} جمع سفيه وهو الجاهل، الضعيف الرأي، القليل المعرفة، بمواضع المنافع والمضار، وأصل السَّفه، الخِفَّة، والسفيه: الخيف العقل قال علماء اللغة: السَّفه خفةٌ وسخافة رأى يقتضيان نقصان العقل، والحِلْمُ يقابله {طُغْيَانِهِمْ} الطغيان: مجاوزة الحد في كل شيء ومنه {إِنَّا لَمَّا طَغَا المآء} [الحاقة: 11] أي ارتفع وعلا وجاوز حده، والطاغية: الجبار العنيد {يَعْمَهُونَ} العَمَة: التحير والتردُّد في الشيء يقال: عَمِه يَعْمَه فهو عَمِه قال رؤبة: «أعمى الهدى بالحائرين العُمَّه» قال الفخر الرازي: العَمَهُ مثل العمى، إِلا أَن العَمَى عام في البصر والرأي، والعَمَه في الرأي خاصة، وهو التردد والتحير لا يدري أين يتوجه {اشتروا} حقيقة الاشتراء: الاستبدال، وأصله بذل الثمن لتحصيل الشيء المطلوب، والعرب تقول لمن استبدل شيئاً بشيء اشتراه قال الشاعر:

فإِن تزعميني كنتُ أجهلُ فيكم... فإِني اشتريتُ الحلمَ بعدِك بالجهل.ا.ه.[[51]](#footnote-51)

وقد تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البلاغة والبديع نوجزها فيما يلي:

أولاً: المبالغة في التكذيب لهم {وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ} كان الأصل أن يقول: «وما آمنوا» ليطابق قوله من يقول «آمنا» ولكنه عدل عن الفعل إلى الاسم لإِخراج ذواتهم من عداد المؤمنين وأكده بالباء للمبالغة في نفي الإِيمان عنهم.

ثانياً: الاستعارة التمثيلية {يُخَادِعُونَ الله} شبَّه حالهم مع ربهم في إِظهار الإِيمان وإِخفاء الكفر بحال رعيةٍ تخادع سلطانهم واستعير اسم المشبَّه به للمشبه بطريق الاستعارة.

ثالثاً: صيغة القصر {إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ} وهذا من نوع «قصر الموصوف على الصفة» أي نحن مصلحون ليس إِلاَّ.

رابعاً: الكناية اللطيفة {فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ} المرضُ في الأجسام حقيقة وقد كنى به عن النفاق لأن المرض فسادٌ للبدن، والنفاق فساد للقلب.

خامساً: تنويع التأكيد {ألا إِنَّهُمْ هُمُ المفسدون} جاءت الجملة مؤكدة بأربع تأكيدات {ألا} التي تفيد التنبيه، و {إِنَّ} التي هي للتأكيد، وضمير الفصل {هُمُ} ثم تعريف الخبر {المفسدون} ومثلها في التأكيد {ألا إِنَّهُمْ هُمُ السفهآء} وهذا ردٌّ من الله تعالى عليهم بأبلغ ردٌّ وأحكمه.

سادساً: المشاكلة {الله يَسْتَهْزِىءُ بِهِمْ} سمَّى الجزاء على الاستهزاء استهزاءً بطريق المشاكلة وهي الاتفاق في اللفظ مع الاختلاف في المعنى.

سابعاً: الاستعارة التصريحية {اشتروا الضلالة بالهدى} المراد استبدلوا الغيَّ بالرشاد، والكفر بالإِيمان فخسرت صفقتهم ولم تربح تجارتهم فاستعار لفظ الشراء للاستبدال ثم زاده توضيحاً بقوله {فَمَا رَبِحَتْ تِّجَارَتُهُمْ} وهذا هو الترشيح الذي يبلغ بالاستعارة الذروة العليا كما قال الزمخشري في الكشاف.ا.ه.[[52]](#footnote-52)

قلتُ: وفي هذه الآيات الكريمات نلاحظ هذا التدفق البلاغي الرائع الأداء للحوار في القرآن الكريم بين { قيل } و{ قالوا}؛ فنرى الآيات تصور الحالات النفسية والفكرية للمنافقين من خلال أسلوب حواري كاشف يفضح دخائل هؤلاء المارقين ويكشف ألاعيبهم في كل زمانٍ..حوار يصور حالة التخبط والتحير والفساد في التصور والضبابية في الفهم والرؤية في نفوس هؤلاء.. فهنيئاً لمن يقرأ هذا القرآن العظيم بتأملٍ وفهم وشعور.

# مثلان رائعان في وصف المنافقين

**المثل الأول**

" مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ ناراً فَلَمَّا أَضاءَتْ ما حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَ تَرَكَهُمْ فِي ظُلُماتٍ لا يُبْصِرُونَ (17) صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ (18) " ( سورة البقرة)

المثل عبارة عن قول يشبه قولا آخر بينهما مشابهة ليبين أحدهما الآخر ويصوره، ولهذا ضرب الله تعالى الأمثال في كتابه، وهو أحد أقسام القرآن السبعة ولما ذكر الله تعالى حقيقة وصف المنافقين عقبه بضرب المثل زيادة في الكشف والبيان، لأنه يؤثر في القلوب ما لا يؤثره وصف الشيء في نفسه، ولأن المثل تشبيه الخفي بالجلي، فيتأكد الوقوف على ماهيته وذلك هو النهاية في الإيضاح، وشرطه أن يكون قولا فيه غرابة من بعض الوجوه.

قال البغوى رحمه الله تعالى: (مثلهم في نفاقهم كمثل رجلٍ أوقد نارا في ليلةٍ مظلمة في صحراء مقفرةٍ، فاستدفأ ورأى ما حوله، فاتقى مما يخاف؛ فبينما هو كذلك إذا طُفئت ناره، فبقي في ظلمةٍ خائفاً متحيراً، فكذلك المنافقون بإظهار كلمة الإيمان أمنوا على أموالهم وأولادهم وناكحوا المؤمنين ووارثوهم وقاسموهم الغنائم فذلك نورهم؛ فإذا ماتوا عادوا إلى الظلمة والخوف. وقيل: ذهاب نورهم في القبر. وقيل: يوم القيامة حيث يقولون للذين آمنوا " انظرونا نقتبس من نوركم " كما في الآية. وقيل: ذهاب نورهم بإظهار عقيدتهم وفضحهم على لسان النبي صلى الله عليه وسلم.. فضرب النار مثلا ثم لم يقل أطفأ الله نارهم لكن عبَّر بإذهاب النور عنه لأن الضياء نور وحرارة فيذهب نورهم وتبقى الحرارة عليهم. وقال مجاهد: إضاءة النار إقبالهم إلى المسلمين والهدى وذهاب نورهم إقبالهم إلى المشركين والضلالة.. وقال عطاء ومحمد بن كعب: نزلت في اليهود. وانتظارهم خروج النبي صلى الله عليه وسلم واستفتاحهم به على مشركي العرب فلما خرج كفروا به ثم وصفهم الله فقال:

{ صُمٌ } أي هم صم عن الحق لا يقبلونه وإذا لم يقبلوا فكأنهم لم يسمعوا { بُكْم } أى خرس عن الحق لا يقولونه أو أنهم لما أبطنوا خلاف ما أظهروا فكأنهم لم ينطقوا بالحق { عُمْيٌ } أي لا بصائر لهم ومن لا بصيرة له كمن لا بصر له { فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ } عن الضلالة إلى الحق)[[53]](#footnote-53)ا.ه.

يقول العلامة الشنقيطي في أضواء البيان: ظاهر هذه الآية أن المنافقين متصفون بالصمم، والبكم، والعمى. ولكنه تعالىٰ بيّن في موضع آخر أن معنى صممهم، وبكمهم، وعماهم، هو عدم انتفاعهم بأسماعهم، وقلوبهم، وأبصارهم وذلك في قوله جلّ وعلا: [وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآَيَاتِ الله وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ] {الأحقاف:26}.ا.ه.

إنهم لم يعرضوا عن الهدى ابتداءاً , ولم يصموا آذانهم عن السماع , وعيونهم عن الرؤية، وقلوبهم عن الإدراك , كما صنع الذين كفروا. ولكنهم استحبوا العمى على الهدى بعد ما استوضحوا الأمر وتبينوه..

يقول د/الخطيب[[54]](#footnote-54): (أكثر المفسرين على أن الكاف في « كمثلهم » زائدة، باعتبار أن كلمة « مثل » أداة للتشبيه، والكاف أداة للتشبيه، ولا تجتمع الأداتان على مشبّه به واحد، وعلى هذا تكون الصورة هكذا: « مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ ناراً » أو « مثلهم كالذي استوقد نارا ».

وبلاغة القرآن أعظم وأسمى من أن تخضع لمقاييس النحو وتخريج النحاة! فليس في كلمات اللّه ما يحتاج إلى علل النحاة، و مماحكاتهم، ليستقيم على علمهم، ولينضبط مع قواعدهم ـ وحسب القرآن أن يقول قولاً، أو ينهج أسلوبا، فيكون قوله الحق، وأسلوبه الفصل، ولا عليه أن تضطرب قواعد النحو، وتتبلبل عقول النحاة!

والأمر هنا ـ فيما يتعلق بالكاف في « كمثل » ـ يجرى على أسلوب القرآن كله، في إعجازه، واستيلائه على أعنّة البلاغة وأزمّتها.. فقوله تعالى: « مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ ناراً » هو تشبيه حال بحال، وشأن بشأن.. بمعنى أن شأن هؤلاء المنافقين وحالهم، كشأن أو حال من استوقد ناراً...

فهؤلاء المنافقون مثلٌ، وذاك الذي استوقد نارا مثلٌ.. وبين المثلين تشابه وتطابق، فصَحَّ أن يكون كل منهما طرفا في تشبيهٍ واحد، وكاف التشبيه أداته.. فكأنه قيل: هذا المثل كهذا المثل!

وننظر فيما بين المثلين من وجه شبه، فنرى في المشبه، وهم المنافقون.. كانوا في زمرة الكافرين، ثم إنهم أعلنوا إيمانهم، واتخذوا هذا الإيمان وقايةً يتقون بها قوة المؤمنين، وذريعةً يتوصلون بها إلى ما قد يفى ء اللّه على المؤمنين من خير!.. فكان أن فضح اللّه نفاقهم، وجاءت آياته تنزع عنهم هذا الثوب الذي ستروا به هذا النفاق، فأصبحوا عراةً لا يستطيعون أن يظهروا في الناس، إلا كما تظهر الحيات برءوسها من وراء جحورها!

وفى المشبه به، وهو هذا الذي استوقد نارا.. هذا الإنسان، كان في ظلمة الليل، وفى لفح زمهريره القارس، فاستوقد نارا، كى يجد فيها الدف ء والنور! ثم جاء هؤلاء المنافقون فيمن جاء إلى هذا الضوء، ليجدوا عنده الأمن، والدف ء.. ولكنّ هؤلاء المنافقين، وإن اختلطوا بالمجتمعين على هذا الضوء، فإن اللّه سبحانه حجز عنهم النور، وأخذ على أبصارهم، فلم يروا ما حولهم، ولم يعرفوا وجه الطريق الذي يسلكون، فركبتهم الحيرة، وقيدهم العمى والضلال..!و نقرأ الآية الكريمة: « مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ ناراً، فَلَمَّا أَضاءَتْ ما حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ، وَ تَرَكَهُمْ فِي ظُلُماتٍ لا يُبْصِرُونَ »، فنجد لمحة من لمحات الإعجاز القرآني، في هذا التخالف بين أجزاء الصورة في المشبه به، حيث كان الظاهر أن يقال: « ذهب اللّه بنوره وتركه في ظلمات لا يبصر ». ولكن هذا يفسد المعنى، حيث يقضى بهذا الحكم على موقد النار، فيذهب بنوره الذي رفعه لهداية الناس، وحيث يقع هذا الحكم على غير المنافقين، من طالبي الهدى عنده. و الصورة التي رسمتها الآية الكريمة ـ على ما جاءت عليه ـ تأخذ المنافقين وحدهم بجرمهم، فتحرمهم الإفادة من هذا النور الذي يملأ الوجود من حولهم.. ثم لا تحرم المهتدين ما أفادوا من هدى. )ا.ه.

قلت: جرى كلام الشيخ على قول أن المستوقد للنار هو الرسول الذي أتى بنار الإسلام ونوره [[55]](#footnote-55)؛ تحرق الكافرين وتنير للمؤمنين، فلما نكص المنافقين على عقبهم، وكفروا بقلوبهم ذهب الله بنورهم، وأبقى النار لهم، وتركهم في ظلمات الدنيا و الآخرة؛ لا يبصرون.. صم عن سماع الحق وعقله، بكم عن النطق به، عمى عن رؤية نوره؛ فقدوا أثر الحواس المعنوى في العلم والعمل والنجاة؛ ولم يفقدوا الحواس حقيقةً، فهم كالأنعام بل هم أشد ضلالا، وهذه من قبيل الاستعارة الرائعة (حيث شبههم بالصم والبكم والعمى فاقدي الحواس حقيقةً؛ وذلك لعدم انتفاعهم بحواسهم في إدراك الحق ).

لطيفة لغوية: قلتُ: ولعله تخلص طريف للدكتور الخطيب مما استشكله العلماء في الالتفات الكائن في تحول اسم الصلة " الذي " في قوله تعالى "كمثل الذي استوقد نارا.." من الحكاية عن الفرد " استوقد نارا" إلى الجمع " ذهب الله بنورهم.."، وللقرطبي وغيره رأى آخر، أن "الذي " عند العرب تقال للواحد والجمع[[56]](#footnote-56)، وهو أفصح في كلامهم واستشهدوا بقول الشاعر: ( وإن الذي حانت بفلج دماؤهم... هم القوم كل القوم يا أم خالد) فهنا (الذي) بمعنى (الذين)، ومثله قوله تعالى: " وخضتم كالذي خاضوا"، وقوله " والذي جاء بالصدق وصدق به"...

قال في المنار: ( وَقَدْ رُوعِيَ فِي قَوْلِهِ " اسْتَوْقَدَ " لَفْظُهُ، وَفِي قَوْلِهِ: (ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ) مَعْنَاهُ، وَالْفَصِيحُ فِيهِ مُرَاعَاةُ اللَّفْظِ أَوَّلًا، وَمُرَاعَاةُ الْمَعْنَى آخِرًا. وَالتَّفَنُّنُ فِي إِرْجَاعِ الضَّمَائِرِ مُتَفَرِّعَةً ضَرْبٌ مِنِ اسْتِعْمَالِ الْبُلَغَاءِ يُقَرِّرُ الْمَعْنَى فِي الذِّهْنِ وَيَهَبُهُ فَضْلَ تَمَكُّنٍ وَتَأْكِيدٍ بِمَا يَحْدُثُ فِيهِ مِنَ الرَّوِيَّةِ وَالتَّوَجُّهِ إِلَى الْإِحَاطَةِ بِمَعَانِي الْمُخْتَلِفَاتِ.).

قلتُ: وفى هذا المثل تقرير لأسلوب خاص من الجماليات تستخدمه البلاغة القرآنية؛ وهو التمكن الرائع في إرجاع الضمائر وأدوات الوصل، والتوقيع المنقطع النظير للمفردات في تناسق عبقري ينتقل بالمتلقي من حالة المشاهد للصورة إلى حالة المعايشة التامة التي تأخذه في عالم الصورة ينفعل ويتفاعل ويشارك حتى يكون لها النصيب الأوفى في وجدانه.. وتأمل هذا الانتقال بين المستوقد نارا ـ وهى له الإضاءة والإبصار والأمن والنجاة، لتشعر بهذا الدفء وهذا النور، ثم فجأة ينتقل النص بك إلى هؤلاء المنافقين والذي حدث معهم نفس ما يحدث لك؛ إلا أن الله ذهب بنورهم. فكيف يكون حالك لو كنت مكانهم ذهب النور والإشراق، وبقيت النار والظلمات والعمى والإحراق..هذا ما رسمه القرآن في الشعور دون أن تدرى ليجعلك تفر من فعل هؤلاء الضائعين.. فأى إيجازٍ، وأى إعجازٍ، وأى تأثيرٍ..إنه القرآن العظيم !!!

ملحوظة: يقول القاسمى رحمه الله(محاسن التأويل ج1ص257، 256): (.. وقد قيل في هذا المثل: أن هذه هى نار الفتن التي يوقدها المنافقون بين أهل الإسلام " كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله "(المائدة64)، ويكون ذهب الله بنورهم مطابقا ل" أطفأها الله " ويكون تخييبهم وإبطال ما قصدوه هو تركهم في الظلمات والحيرة.قلت: ولكن ابن القيم ( في اجتماع الجيوش الاسلامية ) مبطلاً هذا التأويل يقول: ( هذا التقدير وإن كان حقا، لكن في كونه مراد الآية نظر. فإن السياق إنما قصد لغيره، ويأباه قوله تعالى " فلما أضاءت ما حوله " ونار الموقد للحرب لا تضئ حوله. وقوله تعالى "ذهب الله بنورهم " والموقد للحرب لا نور له ا.ه.

# ومن الملح واللطائف في هذا المثل

الأولى: تأمل قوله تعالى " ذهب الله بنورهم "، ولم يقل ( ذهب نورهم )، وفيه سر بديع وهو انقطاع تلك المعية الخاصة التي هى للمؤمنين، فإن الله تعالى مع المؤمنين كما قال تعالى: " إن الله مع الصابرين "، وقال: " إن الله مع الذين اتقوا "، فذهاب الله بنورهم هو انقطاع لمعيته الخاصة بأوليائه؛ قطعها بينه وبين المنافقين، خلى بينهم وبين أنفسهم، تركهم في ظلماتهم تلعب بهم شياطينهم كما قال سبحانه: "نسوا الله فنسيهم "، وقال: " نسوا الله فأنساهم أنفسهم ".

الثانية: تأمل قوله تعالى " أضاءت ما حوله " انظر كيف جعل ضوئها خارجا عنه منفصلا؟ ولو كان متصلا بذلك المنافق ملابسا لم يذهب، ولكن النور كان مجاورا ولم يكن مخالطاً ملابساً. فالنور في قلبه عارض والظلمة أصلية، وقد رجع كلٌ إلى أصله. الثالثة: تأمل قوله تعالى " بنورهم " ولم يقل بضوئهم مع قوله "فلما أضاءت ما حوله " لأن الضوء هو زيادة في النور، فإن ذهب النور فلا يتصور بقاء أى ضوء. وهذا أبلغ في النفى والذهاب.

الرابعة: تأمل كيف قال الله " ذهب الله بنورهم " فوحد النور، ثم قال " وتركهم في ظلمات " فعدد الظلمة لأن الحق واحد؛ وهو صراط الله المستقيم الذي لا يقبل من أحد طريقا سواه، وهو عبادة الله وحده بما شرعه على لسان رسله، لا بالأهواء والبدع. أما طرق الضلال فمتشعبة متعددة. قال الله: " وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتضل بكم عن سبيله ".

الخامسة: تأمل " ذهب الله بنورهم ولم يقل "نارهم " لأن النار فيها الإحراق والإشراق، فذهب بما فيها من الإضاءة والإشراق، وترك ما فيها من الإهلاك والإحراق. وكذلك حال المنافقين ذهب نور إيمانهم بالنفاق، وبقيت حرارة الكفر والشكوك والشبهات تغلي في قلوبهم؛ وقلوبهم قد صليت بحرها وأذاها فأصلاها الله يوم القيامة نارا مؤصدة ..)[[57]](#footnote-57).

وهكذا يطالعنا القرآن بأول أمثاله عن طائفةٍ هى الأخطر على الإسلام وأهله، ولا ننفك نجدها تكشف عن وجهها القبيح على مدى تاريخه. ولا يتصور متأملٌ للقرآن أن القرآن أطال في وصفهم وكشفهم وهو يقصد الذين على عهد الرسول صلى الله عليه وآله- وإنما هم في كل زمان ومكان..

وقد ذكرهم القرآن بالوصف الكاشف في كثير من آياته لخطورتهم على مسار الدعوة الإسلامية وللتحذير من طرقهم..

وهم في عصرنا هذا يلبسون مسوح العلماء وناصحي الأمة ولا هم لهم إلا زعزعة ثوابتها..

يخرجون علينا كل يوم بألاعيب جديدة بدعوى العقل والفهم عن الله، أو بدعوى حب آل البيت والدفاع عنهم، أو بدعوى فساد تاريخ الإسلام ورموزه، أو بدعوى تجديد الدين لمواكبة العصر، أو بدعوى تخليص الدين من الشوائب والبحث العلمي النزيه فيه، أو بدعوى مواكبة الدين للسياسة، أو بدعوى تصفية القلوب بالتصوف والوصول إلى المعرفة المباشرة عن الله... إلى غير ذلك من الدعاوى التي يراد بها هدم ما جاء عن الله وعن رسوله..ولا حول ولا قوة إلا بالله !

قال البخاري - رضوان الله عليه - في صحيحه:( بَابُ خَوْفِ المُؤْمِنِ مِنْ أَنْ يَحْبَطَ عَمَلُهُ وَهُوَ لاَ يَشْعُرُ.. وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ التَّيْمِيُّ: «مَا عَرَضْتُ قَوْلِي عَلَى عَمَلِي إِلَّا خَشِيتُ أَنْ أَكُونَ مُكَذِّبًا» وَقَالَ ابْنُ أَبِي مُلَيْكَةَ: " أَدْرَكْتُ ثَلاَثِينَ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كُلُّهُمْ يَخَافُ النِّفَاقَ عَلَى نَفْسِهِ، مَا مِنْهُمْ أَحَدٌ يَقُولُ: إِنَّهُ عَلَى إِيمَانِ جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ "، وَيُذْكَرُ عَنِ الحَسَنِ: " مَا خَافَهُ (أى النفاق) إِلَّا مُؤْمِنٌ وَلاَ أَمِنَهُ إِلَّا مُنَافِقٌ. وَمَا يُحْذَرُ مِنَ الإِصْرَارِ عَلَى النِّفَاقِ وَالعِصْيَانِ مِنْ غَيْرِ تَوْبَةٍ، لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: {وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ} [آل عمران: 135] )

# المثل الثاني

قوله تعالى " أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّماءِ فِيهِ ظُلُماتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصابِعَهُمْ فِي آذانِهِمْ مِنَ الصَّواعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكافِرِينَ (19) يكادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصارَهُمْ كُلَّما أَضاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قامُوا وَلَوْ شاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (20)"

سياق الآيات: بعد أن ساق القرآن مثلا ولا أروع لهذه الفرقة المارقة عن الإسلام، وهو صورة حية ناطقة لفساد حياتهم وعدم استقبالهم لأى خيرٍ أو حق (جاء القرآن بمثلٍ آخر لهؤلاء المنافقين ).. ضرب الله، سبحانه، لهم مثلا آخرَ مائيا، بعد المثل الناري تمثيلاً لحالهم إثر تمثيل، ليعمّ البيان من حالهم كلّ دقيق وجليل، ويوفي حقّها من التفظيع والتهويل. فإنه تفنّنهم في فنون الكفر والضلال حقيق بأن يضرب في شأنه الأمثال. وكما يجب على البليغ- في مظانّ الإجمال والإيجاز- أن يجمل ويوجز، فكذلك الواجب عليه- في موارد التفصيل والإشباع- أن يفصّل ويشبع...[[58]](#footnote-58)

أنشد الجاحظ: يُوحُونَ بالخُطَبِ الطِّوَالِ وتَارَةً... وَحْىَ المُلَاحِظِ خِيفةَ الرُّقَباءِ.

ومما ثنى من التمثيل في التنزيل قوله تعالى: (وَما يَسْتَوِي الْأَعْمى وَالْبَصِيرُ وَلَا الظُّلُماتُ وَلَا النُّورُ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ، وَما يَسْتَوِي الْأَحْياءُ وَلَا الْأَمْواتُ)...

*فائدة:* قال القاشانيّ[[59]](#footnote-59): «إنّما بولغ في ذكر فريق المنافقين، وذمّهم، وتعييرهم، وتقبيح صورة حالهم، وتهديدهم، وإيعادهم، وتهجين سيرهم وعاداتهم: لإمكان قبولهم للهداية، وزوال مرضهم العارض. عسى التقريع يكسر أعواد شكائمهم، والتوبيخ يقلع أصول رذائلهم، فتتزكّى بواطنهم، وتتنوّر قلوبهم، فيسلكوا طريق الحقّ. ولعلّ موادعة المؤمنين، وملاطفتهم إيّاهم، ومجالستهم معهم- تستميل طباعهم، فتهيج فيهم محبّة ما، وشوقا تلين به قلوبهم إلى ذكر لله، وتنقاد به نفوسهم لأمر الله، فيتوبوا ويصلحوا، كما قال تعالى: "إِنَّ الْمُنافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً إِلَّا الَّذِينَ تابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ، وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْراً عَظِيماً " [النساء: 145- 146].ا.ه.

التفسير: و " الصيّب" هو المطر. وقد شبّه به هدى السماء، الذي تلقاه الرسول من ربّه، ليحيى به موات القلوب، كما يحيى المطر جديب الأرض.

وفى القرآن وعد ووعيد، وتكاليف وأعباء، كالعبادات، والجهاد في سبيل اللّه، ومجاهدة النفس في اجتناب المحرمات.. ثم هو مع هذا رحمة وشفاء!

وفى الغيث الذي ينزل من السماء ظلمات من السحب المتراكمة، ورعد وبرق.. ثم هو مع هذا نعمة وحياة! كذلك كانت آيات القرآن حين تتنزل، تنخلع لها قلوب المنافقين، وتنفطر منها أفئدتهم، لما يتوقعون فيها من صواعق تدمدم عليهم، وتفضح مكنون صدورهم، بما يبيتون ما لا يرضى من القول، وما لا يحمد من العمل.. (" فِيهِ ظُلُماتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ " التنوين في الكلّ للتفخيم والتهويل- كأنّه قيل: فيه ظلمات داجية، ورعد قاصف، وبرق خاطف)..

فإذا تلقى الرسول وحيا من ربّه، وأعلنه في أصحابه، اصطكت به أسماع المنافقين، ووجفت قلوبهم هلعا وفزعا! ( " يَجْعَلُونَ أَصابِعَهُمْ فِي آذانِهِمْ مِنَ الصَّواعِقِ حذر الموت وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكافِرِينَ " علما وقدرة فلا يفوتونه...والجملة اعتراضية منبّهة على أنّ ما صنعوا - من سدّ الآذان بالأصابع- لا يغني عنهم شيئا، فإنّ القدر لا يدافعه الحذر، والحيل لا تردّ بأس الله عزّ وجلّ. وفائدة وضع الكافرين موضع الضمير- الراجع إلى أصحاب الصيّب ( فلم يقال: والله محيط بهم )- الإيذان بأنّ ما وقع بهم- من الأمور الهائلة المحكيّة- بسبب كفرهم، فيظهر استحقاقهم ما يجريه الله عليهم من الخوف والهلاك).. وفى قوله تعالى: « وَ اللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكافِرِينَ » إشارة إلى دورة من دورات المنافقين، حيث انتهى بهم ترددهم بين الإيمان والكفر، إلى الكفر الغليظ.. وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: « إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا، ثُمَّ كَفَرُوا، ثُمَّ آمَنُوا، ثُمَّ كَفَرُوا، ثُمَّ ازْدادُوا كُفْراً، لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَ لا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا » (137: النساء). فالمنافقون هم كفار، وأكثر من كفار.. كفار ومنافقون معا!.

هذا هو حظهم من كتاب اللّه، وذلك مبلغ ما ينالهم من هذا الخير العظيم.. اضطراب، وذعر، وهمّ مقيم.. حذر الخزي والفضيحة! وذلك شأنهم تماما مع الغيث.. الناس، والحيوان، والنبات، وحتى الجماد.. يحيون بهذا الغيث، ويترقبون في شوق ولهف مواقيت نزوله، دون أن يتأدّى إليهم خوف أو قلق، مما يصحبه من ظلام ورعود! لأنهم يعلمون ما وراء هذه الرعود والبروق من رى وحياة!! أما المنافقون، فشأنهم مع هذا الغيث كشأنهم مع كل خير.. يلتوون به، ويستقبلونه بنفوسهم المريضة، فلا يصيبهم منه إلا الشرّ، الذي يكمن في كل خير تستقبله النفوس المريضة، وفى كل نعمة تقع في يد السفهاء من الناس!....

هؤلاء وإن ذهب اللّه بالنور الذي دخل عليهم من القرآن، حين خادعوا اللّه ورسوله ـ فإنهم لا يزالون على صلة بالإسلام والمسلمين، لم يتحولوا إلى الكفر تحولا صريحا، ولهذا فإن لمعات من ضوء الإسلام تطلع عليهم بين الحين والحين فتمسك بهم على طريق الإسلام وفى جماعة المسلمين، ثم تهجم عليهم ضلالاتهم، فتعمّى عليهم السبل، وتتقطع بينهم وبين الإسلام المسالك، فإذا هم في حيرةٍ واضطراب.. وهكذا تترد أحوالهم بين الإيمان والكفر، إلى أن يموتوا على هذا النفاق.. « يَكادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصارَهُمْ كُلَّما أَضاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ، وَ إِذا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قامُوا ».. (استئنافٌ آخر وقع جوابا عن سؤال مقدّر- كأنه قيل: فكيف حالهم مع ذلك البرق؟ فقيل: " يكاد يخطف أبصارهم "، أي: يأخذها بسرعة.. " كُلَّما أَضاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ " أي: في ضوئه " وَإِذا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قامُوا" أي:وقفوا، وثبتوا في مكانهم... وهذا تمثيل لشدّة الأمر على المنافقين، وما هم فيه من غاية التحيّر والجهل.. " وَلَوْ شاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصارِهِمْ " أى: ولو شاء الله أن يذهب بسمعهم وأبصارهم لذهب بها.." إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ " تعليل للجملة قبلها، وتقرير لمضمونها الناطق بقدرته تعالى على إزالة مشاعرهم وحواسهم بالفعل والتي فقدت قدرتها عندهم على الدلالة والهداية.)[[60]](#footnote-60)ا.ه.

و ننقل عن ابن القيم - رحمه الله تعالى-[[61]](#footnote-61) يجمع تفسير المثلين الناري والمائي يقول:

(شبه نصيب المنافقين - مما بعث الله تعالى به رسوله صلى الله عليه وسلّم- من النور والحياة بنصيب المستوقد النار التي طفئت عنه أحوج ما كان إليها، وذهب نوره. وبقي في الظلمات حائرا، تائها، لا يهتدي سبيلا، ولا يعرف طريقا، وبنصيب أصحاب الصيّب - وهو المطر؛ فشبّه الهدى- الذي هدى به عباده – بالصيّب، لأن القلوب تحيى به حياة الأرض بالمطر. ونصيب المنافقين من هذا الهدى، بنصيب من لم يحصل له نصيب من الصيّب إلّا ظلمات ورعد وبرق، ولا نصيب له - فيما وراء ذلك - مما هو المقصود بالصيّب - من حياة البلاد، والعباد، والشجر، والدوابّ، وأن تلك الظلمات التي فيه، وذلك الرعد، والبرق، مقصود لغيره، وهو وسيلة إلى كمال الانتفاع بذلك الصيّب. فالجاهل- لفرط جهله- يقتصر على الإحساس بما في الصيّب من ظلمة ورعد وبرق ولوازم ذلك من برد شديد، وتعطيل المسافر عن سفره، وصانع عن صنعته ولا بصيرة له تنفذ إلى ما يؤول إليه أمر ذلك الصيّب من الحياة والنفع العام.

وهكذا شأن كلّ قاصر النظر، ضعيف العقل، لا يجاوز نظره الأمر المكروه الظاهر إلى ما وراءه من كلّ محبوب.. وهذه حال أكثر الخلق، إلّا من صحت بصيرته- فإذا رأى ضعيف البصيرة ما في الجهاد من التعب، والمشاقّ، والتعرّض لإتلاف المهجة، والجراحات الشديدة، وملامة اللوّام، ومعاداة من يخاف معاداته- لم يقدم عليه، لأنه لم يشهد ما يؤول إليه من العواقب الحميدة، والغايات التي إليها تسابق المتسابقون، وفيها تنافس المتنافسون.

وكذلك من عزم على سفر الحج إلى البيت الحرام، فلم يعلم- من سفره ذلك- إلا مشقّة السفر، ومفارقة الأهل والوطن، ومقاساة الشدائد، وفراق المألوفات، ولا يجاوز نظره وبصيرته آخر هذا السفر، ومآله، وعاقبته- فإنه لا يخرج إليه، ولا يعزم عليه.

وحال هؤلاء، حال الضعيف البصيرة والإيمان، الذي يرى ما في القرآن من الوعد والوعيد، والزواجر والنواهي، والأوامر الشاقة على النفوس التي تفطمها عن رضاعها من ثدي المألوفات والشهوات- والفطام على الصبيّ أصعب شيء، وأشقّه- والناس كلهم صبيان العقول، إلا من بلغ مبالغ الرجال العقلاء الألباء، وأدرك الحقّ علما، وعملا، ومعرفةً، فهو الذي ينظر إلى ما وراء الصيّب، وما فيه- من الرعد والبرق والصواعق- ويعلم أنّه حياة الوجود.) ا.ه.

والنفس كالطفل إن لم تتركه شبَّ على.......حب الرضاع وإن تفطمه ينفطمِ.

# لمحات بلاغية إعجازية

1. الأولى في بلاغة التصوير والتمثيل القرآني العجيب في كلا المثلين الرائعين المائي والناري..

لقد شبهت الآيات في بلاغتها المنافق في التمثيل الأوّل بالمستوقد ناراً، وصورت الإيمان بالإضاءة، وانقطاع انتفاع المنافق وخسرانه بإنطفاء النار وبقائه في الظلمة والحيرة والخوف، فما وجه التشبيه في التمثيل الثاني بالصيب والظلمات والرعد والبرق والصواعق؟

لقائلٍ أن يقول: لقد شُبِّه دين الإسلام بالصيب، لأنّ القلوب تحيا به حياة الأرض بالمطر. وما يتعلق بالإسلام من شبه الكفار بالظلمات. وما فيه من الوعد والوعيد بالرعد والبرق. وما يصيب الكفرة من الأفزاع والبلايا والفتن من جهة أهل الإسلام بالصواعق. والمعنى: أو كمثل ذوى صيب. والمراد كمثل قوم أخذتهم السماء على هذه الصفة فلقوا منها ما لقوا.

فإن قلت: هذا تشبيه أشياء بأشياء فأين ذكر المشبهات؟

والصحيح الذي عليه علماء البيان لا يتخطونه: أنّ هذين التمثيلين من جملة التمثيلات المركبة؛ وليست من نوع المفرّقة التي يظهر فيها المشبه والمشبه به، كما تأخذ أشياء فرادى، معزولا بعضها من بعض، لم يأخذ هذا بحجزة ذاك فتشبهها بنظائرها، كما جاء في القرآن في قوله تعالى:" وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ \* وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ \* وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ \* وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاء وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ" [فاطر: 19-22]، فكأن أهل الإيمان هم أهل البصر والنور والظل والحياة؛ واهل الكفران هم أهل العمى والظلمات والحرور والموات..فشبه كل نظيرٍ بنظيره في تصوير (تمثيل) [مُفرَّق]..

وأما تشبيه كيفيةٍ حاصلةٍ من مجموع أشياء قد تضامّت وتلاصقت حتى عادت شيئا واحدا، بأخرى مثلها؛ أى تصوير حالة بحالة؛ وموقف بموقف آخر ولكل منهما تفاصيله التي تكمل صورته فهو التشبيه ( التمثيل) [المُركَّب].. كقوله تعالى: (مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ۚ بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) [5 الجمعة]. و الغرض تشبيه حال اليهود في جهلها بما معها من التوراة وآياتها الباهرة، بحال الحمار في جهله بما يحمل من أسفار الحكمة، وتساوى الحالتين عنده من حمل أسفار الحكمة وحمل ما سواها من الأوقار، لا يشعر من ذلك إلا بما يمرّ فيه من الكدّ والتعب.. فهذا [ تمثيل مركب]= [ تشبيه حالة بحالة].

وكقوله سبحانه: "إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون ( 24يونس)..

قال العلامة ابن كثير: ضرب الله تبارك وتعالى مثلا لزهرة الحياة الدنيا وزينتها وسرعة انقضائها وزوالها، بالنبات الذي أخرجه الله من الأرض بما أنزل من السماء من الماء، مما يأكل الناس من زرع وثمار، على اختلاف أنواعها وأصنافها، وما تأكل الأنعام " حتى إذا أخذت الأرض زخرفها " أي: زينتها الفانية، " وازينت " أي: حسنت بما خرج من رباها من زهور نضرة مختلفة الأشكال والألوان، " وظن أهلها "الذين زرعوها وغرسوها " أنهم قادرون عليها "أي: على جذاذها وحصادها فبينا هم كذلك إذ جاءتها صاعقة، أو ريح باردة، فأيبست أوراقها، وأتلفت ثمارها؛ ولهذا قال تعالى" أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا " أي: يبسا بعد تلك الخضرة والنضارة، " كأن لم تغن بالأمس " أي: كأنها ما كانت حسناء قبل ذلك.. وهكذا الأمور بعد زوالها كأنها لم تكن؛ ثم قال تعالى: ( كذلك نفصل الآيات ) أي: نبين الحجج والأدلة، ( لقوم يتفكرون ) فيعتبرون بهذا المثل في زوال الدنيا من أهلها سريعا مع اغترارهم بها، وتمكنهم بمواعيدها وتفلتها منهم، فإن من طبعها الهرب ممن طلبها، والطلب لمن هرب منها.. انتهى..

فهذا من التمثيل المركب الذي تتضافر فيه التفاصيل لتصنع صوراً متكاملةً ثم تقارن صورة بصورة فتجلي المعنى في الوجدان على أدق وأعمق ما يكون وهذا من إعجاز البلاغة القرآنية...

فكذلك في هذين المثلين الرائعين لما وصف وقوع المنافقين في ضلالتهم وما خبطوا فيه من الحيرة والدهشة شبهت حيرتهم وشدّة الأمر عليهم بما يكابد من طفئت ناره بعد إيقادها في ظلمة الليل، وكذلك من أخذته السماء في الليلة المظلمة مع رعد وبرق وخوف من الصواعق.. على تفاصيل الصورتين والحالتين في كل مثلٍ.. ولهذا دور فعال وراقي في رسم نفسية المنافق وتصوير حيرته وضلالته أبلغ تصوير.

كل ذلك فضلاً عن هذا التداخل والتماذج بين الصور والاستعارات في كل مثل بحيث يطلق المتلقي يعيش في خضم وعمق الصورة بكل تفاصيلها وأبعادها ليكون وجداناً متفاعلا معها؛ وتكون عمقا فاعلا في وجدانه وانفعالاته.. وهذا ما تستطيع أن تفعله بتلك البراعة سوى الصورة والمثل القرآني فتأمل ذلك؛ فإن هذا ملمح خطير ولطيف لا يلحظه سوى من يعيش مع الآيات بقلبه وروحه ووجدانه...

1. فإن قلت: أى التمثيلين أبلغ؟

قلت: في كل من البلاغة ما فيه ولكن الثاني أبلغ ( في رأى الزمخشري؛ ويقول: لأنه أدل على فرط الحيرة وشدّة الأمر وفظاعته، ولذلك أُخِّر مجيئه بعد المثل الناري، وهم (أى العرب في بلاغتهم )يتدرجون في نحو هذا من الأهون إلى الأغلظ (ومن الأدنى إلى الأعلى لزيادة المعنى إيضاحا والتفنن في إيصاله للمخاطب ).

1. فإن قلت: لم عطف أحد التمثيلين على الآخر بحرف الشك (أو)؟

قلت: (أو) في أصلها لتساوى شيئين فصاعدا في الشك، ثم اتسع فيها فاستعيرت للتساوي في غير الشك، وذلك قولك: جالس الحسن أو ابن سيرين، تريد أنهما سيان في استحسان أن يُجالسا، ومنه قوله تعالى: (وَلا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِماً أَوْ كَفُوراً)، أى الآثم والكفور متساويان في وجوب عصيانهما..

فكذلك قوله: (أَوْ كَصَيِّبٍ) معناه أن حال المنافقين مشابهة لحال هاتين القصتين والمثلين، وأن القصتين والحالتين سواء في اشتمالهما على وجه التمثيل وتبيين حال المنافقين، فبأيتهما تصورت وتمثلت حال المنافقين فأنت مصيب، وإن تمثلت بهما جميعا فكذلك.

وقيل (أو) بمعنى الواو وهو للتنويع في التشبيه والبيان...

1. ومن مظاهر البلاغة القرآنية الراقية في هذا المثل الكثير منها:

تنكير "صيب" للتهويل لأنه أريد نوع من المطر الشديد الهائل. كما نكرت النار في التمثيل الأول....

وقوله تعالى: (يَجْعَلُونَ أصابعهم في آذانهم..) هو كلام مستأنف، لأنه لما ذكر الرعد والبرق على ما يوحي بالشدّة والهول، فكأن قائلا قال: فكيف حالهم مع مثل ذلك الرعد؟ فقيل: (يَجْعَلُونَ أَصابِعَهُمْ فِي آذانِهِمْ).. ثم قال: فكيف حالهم مع مثل ذلك البرق؟ فقيل: " يكاد البرق يخطف أبصارهم".

فإن قلت: رأس الأصبع هو الذي يجعل في الأذن فهلا قيل أناملهم (أطراف الأصابع)؟

قلت: هذا من الاتساعات في اللغة التي لا يكاد الحاصر يحصرها، وقصدها المبالغة في تصوير خوفهم وتأثير هذا الخوف عليهم وهو تعبير موحي.

فإن قلت: فالأصبع التي تسدّ بها الأذن أصبع خاصة ( هى السبابة )، فلم ذكر الاسم العام ( الأصبع) دون الخاص ( السبابة التي توضع في الأذن)؟

قلت: لأن السبابة فعَّالة من السب، فكان اجتنابها أولى بآداب القرآن فلا يليق بالقرآن أن يقول: جعلوا الأصبع السبابة في آذانهم. ألا ترى أن العرب قد استبشعوها فكنوا عنها بالمُسبِّحة والسبَّاحة والمُهلِّلة والدّعاءة.. وهذا دأب القرآن في تعليم الخلق التكنية عن القبيح كمثل قوله تعالى " هن لباس لكم وأنتم لباس لهن " قال ابن عباس: إن الله حيي كريم يكني عن الجماع.. وهذا من لطيف الإشارات والفوائد في القرآن العظيم.

وقوله سبحانه: "كُلَّما أَضاءَ لَهُمْ مشوا فيه.." استئناف ثالث للكلام كأنه جواب لمن يقول: كيف يصنعون في حالات خفق البرق وخفوته؟. وهذا تمثيل لشدة الأمر على المنافقين بشدته على أصحاب الصيب وما هم فيه من غاية التحير والجهل بما يأتون وما يذرون، إذا صادفوا من البرق خفقة، مع خوف أن يخطف أبصارهم، انتهزوا تلك الخفقة فرصة فخطوا خطوات يسيرة، فإذا خفى وفتر لمعانه بقوا واقفين متقيدين عن الحركة، ولو شاء اللَّه لزاد في قصيف الرعد فأصمهم، أو في ضوء البرق فأعماهم.

( قلت: فتأمل معي عبقرية الصورة القرآنية في تجديد المشهد القرآني؛ من خلال تلك الاستئنافات المتعددة..التي تخطو بالصورة شيئا فشيئا ناحية الوضوح..وكأنها ومضات تضئ المشهد الكلى رويدا رويدا في عبقريةٍ وجمالٍ وأناةٍ حتى يكتمل في الروح والشعور..)..

فإن قلت:كيف قيل مع الإضاءة:" كلما " أضاء لهم مشوا فيه "، ومع الإظلام: " وإذا " أظلم عليهم قاموا "؟ قلت لأنهم في حرص شديد على وجود ما يهمهم من إمكان المشي ومجئ النور، فكلما صادفوا منه فرصة انتهزوها؛ فأتى اللفظ الملائم تماما لحالة الانتظار والترقب (كلما)، وليس كذلك حين الاظلام و التوقف ( الذي يباغتهم فجأة على غير انتظار ولا ترحيب به؛ فهنا جاء اللفظ المناسب لحالة المباغتة والمفاجئة (إذا )[[62]](#footnote-62).

ويقول سيد قطب[[63]](#footnote-63): (ومثل آخر يصور حالهم ويرسم ما في نفوسهم من اضطراب وحيرة وقلق ومخافة: " أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّماءِ فِيهِ ظُلُماتٌ وَ رَعْدٌ وَ بَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصابِعَهُمْ فِي آذانِهِمْ مِنَ الصَّواعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَ اللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكافِرِينَ (19) يَكادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصارَهُمْ كُلَّما أَضاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَ إِذا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قامُوا وَ لَوْ شاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَ أَبْصارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْ ءٍ قَدِيرٌ (20)"..إنه مشهد عجيب , حافل بالحركة , مشوب بالاضطراب. فيه تيه وضلال , وفيه هول ورعب، وفيه فزع وحيرة , وفيه أضواء وأصداء.. صيب من السماء هاطل غزير (فيه ظلمات ورعد وبرق).. (كلما أضاء لهم مشوا فيه).. (وإذا أظلم عليهم قاموا).. أي وقفوا حائرين لا يدرون أين يذهبون. وهم مفزعون: (يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت.. إن الحركة التي تغمر المشهد كله:من الصيب الهاطل , إلى الظلمات والرعد والبرق , إلى الحائرين المفزعين فيه , إلى الخطوات المروعة الوجلة , التي تقف عندما يخيم الظلام.. إن هذه الحركة في المشهد لترسم - عن طريق التأثر الإيحائي - حركة التيه والاضطراب والقلق والأرجحة التي يعيش فيها أولئك المنافقون.. بين لقائهم للمؤمنين، وعودتهم للشياطين. بين ما يقولونه لحظة ثم ينكصون عنه فجأة. بين ما يطلبونه من هدى ونور وما يفيئون إليه من ضلال وظلام.. فهو مشهد حسي يرمز لحالة نفسية ; ويجسم صورة شعورية. وهو طرف من طريقة القرآن العجيبة في تجسيم أحوال النفوس كأنها مشهد محسوس ) ا.ه.

# { يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ..}

{ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (21) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (22) وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (23) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (24) وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (25) } [البقرة: 21 - 25]

المنَاسَبَة: لما ذكر الله تعالى الأصناف الثلاثة «المؤمنين، والكافرين، والمنافقين» وذكر ما تميزوا به من سعادة أو شقاوة، أو إيمان أو نفاق، وضرب الأمثال ووضَّح طرق الضلال أعقبه هنا بذكر الأدلة والبراهين على وحدانية ربِّ العالمين، وعَرَّف الناس بنعمة ليشكروه عليها، وأقبل عليهم بالخطاب {يَاأَيُّهَا الناس} وهو خطاب لجميع الفئات ممتناً عليهم بما خلق ورزق، وأبرز لهم «معجزة القرآن» بأنصع بيان وأوضح برهان ليقتلع من القلوب جذور الشك والارتياب. انتهى[[64]](#footnote-64)

ويقول الأستاذ سيد قطب – رحمه الله -:

في هذا المقطع (الآيات العشرين الأولى في سورة البقرة)، الذي يكوّن افتتاح السورة الكبيرة، نجد الملامح الأساسية للطوائف التي واجهتها الدعوة في المدينة باستثناء طائفة اليهود التي ترد إشارة صغيرة لها، ولكنها كافية، فإن تسميتهم بشياطين المنافقين تشير إلى الكثير من صفاتهم، ومن حقيقة دورهم، حتى يرد التفصيل الكامل بعد قليل.

وفي رسم هذه الملامح نجد خصائص التعبير القرآنية، التي تتجلى في قيام الكلمة مقام الخط واللون، إذ سرعان ما ترتسم الصور من خلال الكلمات ثم سرعان ما تنبض هذه الصور وكأنها تموج بالحياة..

وهنا.. في عدد قليل من الكلمات والعبارات في أول السورة ترتسم ثلاث صور لثلاثة أنماط من النفوس ( المؤمنين والكافرين والمنافقين).

كل نمطٍ منها نموذج حي لمجموعات ضخمة من البشر. نموذجٌ أصيلٌ عميق متكرر في كل زمان ومكان.

حتى ما تكاد البشرية كلها في جميع أعصارها وأقطارها تخرج عن تلك الأنماط الثلاثة.. وهذا هو الإعجاز..

في تلك الكلمات القلائل والآيات المعدودات ترتسم هذه الصور واضحة كاملة، نابضة بالحياة، دقيقة السمات، مميزة الصفات. حتى ما يبلغ الوصف المطول والإطناب المفصل شيئاً وراء هذه اللمسات السريعة المبينة، الجميلة النسق، الموسيقية الإيقاع.

فإذا انتهى السياق من عرض هذه الصور الثلاث دعا الناس.. الناس جميعاً.. إلى الصورة الأولى وناداهم.. ناداهم كافة.. أن يفيئوا إليها. أن يفيئوا إلى عبادة الله الواحد.. تلك مجمل الخطوط الرئيسية في هذا الدرس الأول من سورة البقرة.[[65]](#footnote-65)

# { يا أيها الناس}.. عالمية الإسلام في نداءات الرحمن.

في عشرين آية في كتاب الله يأتي الخطاب الإلهي العام للناس جميعاً.. ليؤكد عالمية هذا الدين وكونه النور الرباني الأخير لهذا العالم الحائر...نداءات ربانيةٌ حانيةٌ عظيمة يكتنفها الجلال لبني آدم ترشدهم للحقيقة العليا التي لا مناص منها.. حقيقة وجود هذه الحياة وهذا الإنسان؛ وأنه أعز مخلوق عند ربه تعالى الذي خلقه فسواه فعدله ثم سخر له الكون وعلمه أسماء كل شئ وأسجد له ملائكته.. ثم شرفه غاية التشريف حيث أمره بعبادته ليكون في كنفه وفي في الدنيا وفي مستقر رحمته وثوابه في الاخرة، ولكن الشيطان اللعين تربص لآدم وذريته بعدما رفض السجود له استكبارا وجحودا لقيمته في الحياة.. وأقسم ليغوين بني آدم ويهلكهم كما هلك.. وهنا يأتينا النور الرباني العظيم ليبين لنا تلك الحقائق الجوهرية ويبعث برسائل عامة وقوية لبني الإنسان جميعاً:

أعبدوا ربكم الذي خلقكم وكرَّمكم وهداكم واصطفاكم على خلقه.. خلقكم من تراب وخلقكم نطفة هينة ضعيفة فعلقة فمضغةٍ وارتقى بكم اطواراً من ضعف لضعفٍ يرعاكم بعلمه وحكمته وقدره ورزقه الذي يحوطكم به.. فكلوا مما في الأرض التي سخرها لكم الحلال ولا تتبعوا الحرام والباطل..اتقوا ربكم في نسائكم وأرحامكم وعلاقاتكم البشرية فأنتم من نفس واحدة خلقكم الله شعوبا وقبائل لتتعارفوا وتتكاملوا لا (لصراع الحضارات) والتنابذ والموت والعداوات.. لا يهلكنكم الشيطان فهو عدوكم اللدود والذي لا تتغير عداوته أبدا وهو ينتظركم بكل طريق فلا تتبعوا خطواته.. لقد جاءكم الرسول الخاتم - وهو رسول الله إليكم جميعا - بالدين الخاتم والشريعة الكاملة والنور المبين من كلام الله سبحانه فآمنوا بالله ورسله وكلماته لأن ذلك نجاتكم.. لقد جاءتكم البراهين والبينات والمعجزات والدلالات على دين الله وصدق أنبيائه وشمولية دين محمد عليه الصلاة والسلام.. فمن كفر بعد ذلك فإن الله عنى عن العالمين..لا يغركم الشيطان بكيده، وتغركم الدنيا بزخرفها الزائل، أو تغركم قوتكم الزائفة وأنفسكم الحائرة.. فسيكون بغيكم وفسادكم واتباعكم الشيطان يرجع على أنفسكم، وإن ركبت حضارتكم السحاب؛ فبدون نور الله تعالى فإن الجميع في عمى.. ضرب الله لكم مثل أضعف شئ في خلقه؛ الذبابة فهى على صغرها لا يستطيع علمكم الذي تتشدقون به ان يصنع مثلها تماما ولو اجتمع علم الأرض على ذلك، وإذا ما أخذت منكم شيئا فلن تستطيعوا رده..فيا مَن كفرتم بالله وظننتم أنكم ملكتم الأرض والعلوم مثلكم كمثل الذبابة مخلوق ضعيف.. وهذه السيطرة والتكبر والطغيان زائف.. أنتم دائما وأبدا الفقراء المحتاجين إلى الله والله هو الغنى الحميد.. من ضل فإنما يضل على نفسه ويهلكها ومن اهتدي يهتدي لنفسه فيصلحها وينقذها.. لأن هناك يومٌ عظيم مهول ينتهي فيه هذا العالم ويزلزل كل ما فيه في زلزلةٍ عظيمةٍ تذهل فيها المراضع عن أبنائها، ولا يستطيع أن ينفع ولد والده ولا والد ولده.. فاجعلوا بينكم وبين هذا اليوم العظيم المهول وقاية.. اتقوا الله واعبدوه ولا تتبعوا خطوات الشيطان.

1. {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (21)} [البقرة: 21]
2. {يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (168)} [البقرة: 168]
3. {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا (1) } [النساء: 1، 2]
4. {يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (170) } [النساء: 170]
5. {يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا (174) } [النساء: 174، 175]
6. {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (158)} [الأعراف: 158]
7. {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (23)} [يونس: 23]
8. {يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ (57)} [يونس: 57]
9. {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (104)} [يونس: 104]
10. { قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ (108)} [يونس: 108]
11. {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (1)} [الحج: 1]
12. {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (5) } [الحج: 5]
13. {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (49)} [الحج: 49]
14. {يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (73)} [الحج: 73]
15. {وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ (16)} [النمل: 16]
16. {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ (33)} [لقمان: 33]
17. {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (3)} [فاطر: 3]
18. { يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ (5)} [فاطر: 5]
19. { يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (15)} [فاطر: 15]
20. {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (13)} [الحجرات: 13]

كانت هذه رسائل ونداءات ربانية عظيمة تنتظم النور الرباني للناس جميعا.. ولكل الأمم في كل العصور.. ترسم معالم الدين والحياة بالحقائق الكبرى عن هذا الوجود.. مَن خلقه وخلقنا؟ وكيف خلقنا؟ وكيف هى منزلتنا في هذا الوجود؟ ومَن الذي اعترض وحسد وتربص؟ وكيف نفلت من كيده، وكيف النجاة؟ وماذا يأمرنا الله تعالى؟ وما هى الأدلة والبراهين التي تبين لنا صحة هذه الحقائق؟ وكيف تكون علاقات البشر بين بعضهم البعض؟ وكيف نعمر الأرض؟ وكيف نستعد ليوم الحساب؟

لقد كانت هذه النداءات الربانية العظيمة تجيب على الأسئلة الأكبر في الحياة، والتي حيرت الفلاسفة وكبار العقول.. وتطرح المفاهيم الأكبر في الدين والوجود: الله.. الخلق.. الشيطان.. الإنسان.. الهداية.. الرسل والكتب السماوية والبراهين.. واليوم الآخر والحساب والجزاء.

وهذه النداءات الربانية العظيمة لكل الناس بتلك المعاني الأكبر التي تنادي بعالمية هذا الإسلام وأحقيته الأولي بقيادة العالم والناس على أمواج الحياة العالية نحو بر الأمان.. قال البيضاوي في تفسيره: وإِنما كثر النداء في القرآن ب {يَا أَيُّهَا} لاستقلاله بأوجهٍ من التأكيد، وكل ما نادى الله له عباده من حيث إِنها أمور عظام من حقها أن يتفطنوا لها، ويقبلوا بقلوبهم عليها وأكثرهم عنها غافلون حقيقٌ بأن يُنادى له بالآكد الأبلغ. انتهى.

# التفسير

عن ابن عباس – رضى الله عنه - قال: قال الله تعالى:"يا أيها الناسُ اعبدُوا رَبكم"، للفريقين جميعًا من الكفار والمنافقين، أي وَحِّدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم.. قال الطبري: والذي أراد ابن عباس - إن شاء الله- وحِّدوه، أي أفردُوا ربكم بالطاعة والعبادة دون سائر خلقه... وكذا أمر سائر خلقه المكلَّفين - بالاستكانة، والخضوع له بالطاعة، وإفراده بالربوبية والعبادة دون الأوثان والأصنام والآلهة وسائر ما يُعبد من دونه وهو الراجح في تفسير الطاغوت في قوله سبحانه {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ } [النحل: 36][[66]](#footnote-66).. يقول لهم: فالذي خلقكم وخلق آباءكم وأجدادَكم وسائرَ الخلق غيرَكم، وهو يقدرُ على ضرّكم ونَفعكم - أولى بالطاعة ممن لا يقدر لكم على نَفعٍ ولا ضرٍّ... وإفراد الله تعالى بالعبادة من أجل تتقوا سَخَطه وغضَبه أن يَحلّ عليكم، وتكونُوا من المتقين الذين رضي الله عنهم.. { لعلكم تتقون}[[67]](#footnote-67)..

وقوله تعالى:{الذي جَعل لكم الأرض فِرَاشًا} تعود على {الذي} الأولى في قوله {اعبدُوا ربكم الذي خَلقَكم}، وهما جميعًا وصف {ربكم}، فكأنّه قال: اعبدُوا ربكم الخالق والجاعلَ لكم الأرض فراشًا. يعني مهادًا مُوَطَّأً وقرارًا يستقرّ الخلق عليها. وهنا يُذكِّرُ ربّنا جلّ ذكره عبادَهُ بنعمه عندهم وآلاءه عليهم ليذْكروه، فينيبوا إلى طاعته عطفًا، ورأفةً، ورحمةً لهم، وليُتم نعمته عليهم من غير ما حاجةٍ منه سبحانه إلى عبادتهم.. { يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ ۖ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ }..

وقوله تعالى:{وَالسَّمَاءَ بِنَاءً} سُميت سماءً لعلوها وإشرافها على الأرض.. عن قتادة قال: جعل السماء سَقفًا لكم.. وإنما ذكر الله تعالى السماءَ والأرض لأن منهما أقوات الناس ومعايشهم، وبهما تقومُ دُنياهم.. فأعلمهم أن الذي خَلقهما وكل ما فيهما وما هم فيه من النعم، هو المستحقّ عليهم الطاعة، والمستوجبُ منهم الشكرَ والعبادةَ، دون الأصنام والأوثان والآلهة، التي لا تضرُّ ولا تنفع.

قال الله تعالى: {وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ}.. يعني تعالى ذكره بذلك أنه أنزل من السماء مطرًا، فأخرج بذلك المطر مما تنبت الأرض من زرعهم وغَرْسهم ثمراتٍ غذاءً لهم وقوتًا. فنبههم بذلك على قدرته وسُلطانه، وذكَّرهم بآلاءه، وأنه هو الخالق الرزاق القيوم، دون من جعلوه له نِدًّا وعِدْلا من الأوثان والآلهة.. ثم زَجَرهم عن أن يجعلوا له ندًّا، مع علمهم بكل ذلك.. يقول تعالى: {فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (22)} والأنداد جمع نِدّ، والنِّدّ: العِدْلُ والمِثل، وعن ناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم:"فلا تجعلوا لله أندادًا"، قال: أكفاءً من الرجال تطيعونهم في معصية الله.. [ قال ابن كثير: "وفي الحديث: أن رجلا قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: ما شاء الله وشئت! قال: أجعلتني لله ندًّا؟! "[[68]](#footnote-68).. وهذه مبالغة من رسول الله صلى الله عليه وسلم في حماية جناب التوحيد].



* قوله تعالى: {وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (23) }

قمة التحدي الرباني للناس جميعا.. تحدي الناس مرتين.. مرةً لأساطين اللغة والبلاغة والفصاحة من العرب على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يأتوا بمثل هذا القرآن؛ بل بسورة مثله..ثم تحدي للناس إلى يوم القيامة أن ياتوا مثله أو مثل هداياته وإعجازاته الخالدة..وهو احتجاج على صدق الرسالة كما احتج قبلها على التوحيد لتكتمل أركان العقيدة في برهنة وحجج دامغةٍ بسيطةٍ عميقةٍ ومعجزة.. لترسم معالم العقيدة على طريقة القرآن.

قال أبو جعفر ما ملخصه: وهذا من الله عز وجل احتجاجٌ لنبيه على مشركي العرب ومنافقيهم، وكفار أهل الكتاب، وأمثالهم في كل عصر، قال الله جلّ ثناؤه: وإن كنتم في شكٍّ مما نزّلنا على عبدنا محمد صلى الله عليه وسلم من النور والبرهان وآيات الفرقان: أنه من عندي، فلم تُؤمنوا برسولي ولم تصدّقوه، فأتوا بحجة تدفع حُجته، ومن حجته على صدقه، وبُرْهانه على حقيقة نبوته عَجزُ جميعكم وجميع من تستعينون به من أعوانكم وأنصاركم، عن أن تَأتوا بسورةٍ من مثل ما أنزلت عليه. وإذا عَجزتم عن ذلك -وأنتم أهل البراعة في الفصاحة والبلاغة - فقد علمتم أن غيركم عن ذلك أعْجزُ.. فيتأكد لذوي الألباب أنّ محمدًا لم يتقوَّله ولم يختلقْه.

عن قتادة:"فأتوا بسورة من مثله"، يعني: من مثل هذا القرآن حقًّا وصدْقًا، لا باطل فيه ولا كذب.. وقد قال قوم آخرون: إن معنى قوله:"فأتُوا بسورة من مثله"، من مثل محمد من البشر، لأن محمدًا بشر مثلكم.

وإنما عنى: ائتوا بسورة من مثله في البيان، لأنّ القرآن أنزله الله بلسان عربيّ، وموضع التحدي ان يتحداهم بما يملكون ويقدرون عليه من نظم البلاغة والفصاحة.. وأما أن يطالبهم بمثله في المعاني والهداية فلا يستطيعون ابتداءً ولا يأتي به التحدي؛ فإن عجزوا وهم أهل اللسان والفصاحة ومسوقي الكلمة عن تقليد نظم القرآن فغيرهم ممن ليس على فصاحتهم أو لغتهم أعجز.

ولقد هذا التحدي في القرآن العظيم على درجات.. الأولى: حين تحداهم على ان يأتوا بمثل هذا القرآن { قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا } ( الإسراء 88).. ثم لما عجزوا تحداهم بعشر سور { أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} (هود13).. ثم ارتقى التحدي ليصبح بسورة واحدةٍ ولو أقصر سورة.. وفي كل يزداد التحدي إثارةً حين يتحداهم وهم جميع.. إنس وجن.. عربي وأعجمي..على مدى الزمان وفي كل الأمم..في أشد ما يكون من التحدي الجالب للحقيقة الكبرى والبرهان الرباني الأعظم على صدق الرسالة.

وتحدَّاهم بأساليب في غاية التوبيخ لهم فقال تعالى:{ وادعوا شهداءكم من دون الله إنْ كنتمْ صَادقين}. قال الطبري: يعني بذلك: إن كنتم في شَكّ في صدق محمد فيما جاءكم به من عندي، فأتوا بسورة من مثله، وليستنصر بعضُكم بعضًا على ذلك إن كنتم صادقين في زعمكم، حتى تعلموا أنكم إذْ عَجزتم عن ذلك - أنّه لا يقدر على أن يأتي به محمد صلى الله عليه وسلم وهو وحيد، ولا من البشر أحدٌ، ويَصحَّ عندكم أنه تنزيلي وَوحيي إلى عبدي.

وأما وصف الآية محمداً ب{ عبدنا} ففيه هذا الإيماء الشريف بالمنزلة والتكريم والتشريف في وصف محمد – صلى الله عليه وسلم – بالعبودية التي هى أشرف مقامات المحسنين وأرقى درجات للمؤمنين.. فَذكره سُبْحَانَهُ باسم عبوديته فِي أشرف مقاماته: فِي مقَام الاسراء، ومقام الدعْوَة، ومقام التحدي.. فَقَالَ سبحانه فِي مقَام الاسراء: {سُبْحَانَ الَّذِي أسرى بِعَبْدِهِ لَيْلًا}؛ وَلم يقل (بِرَسُولِهِ، وَلَا نبيه) إِشَارَةً الى أنه قَامَ هَذَا الْمقَام الأعظم بِكَمَال عبوديته لرَبه سبحانه، وَقَالَ تعالى فِي مقَام الدعْوَة:{وَأَنه لما قَامَ عبد الله يَدعُوهُ كَادُوا يكونُونَ عَلَيْهِ لبدا}، وَقَالَ تعالى فِي مقَام التحدي: { وَإِن كُنْتُم فِي ريب مِمَّا نزلنَا على عَبدنَا فَأتوا بِسُورَة من مثله}.. وَفِي الصَّحِيحَيْنِ فِي حَدِيث الشَّفَاعَة وتراجع الانبياء فِيهَا وَقَول الْمَسِيح – عليه السلام: " اذْهَبُوا الى مُحَمَّد عبد غفر الله لَهُ مَا تقدم من ذَنبه وَمَا تَأَخّر "، فَدلَّ ذَلِك على أنه نَالَ ذَلِك الْمقَام الأعظم بِكَمَال عبوديته لله، وَكَمَال مغْفرَة الله لَهُ..([[69]](#footnote-69))

وَقد ثَبت في مسند أحمد وغيره: أن الله سُبْحَانَهُ أرسل جِبْرِيل إلى النَّبِي – صلى الله عليه وسلم – يخيِّره بَين أن يكون ملكا نَبيا، أَوْ عبداً نَبياً، فَنظر إلى جِبْرِيل كالمستشير لَهُ؛ فأشار إليه أن تواضع، فَقَالَ – صلى الله عليه وسلم –: (بل أكون عبداً نَبياً)..

C:\Program Files\Microsoft Office\MEDIA\OFFICE14\Lines\BD21313_.gif

يقول ربنا تبارك وتعالى: {فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا} فإن لم تفعلوا يعني فيما مضى ولن تفعلوا أي تطيقوا ذلك فيما يأتي.. فاتقوا النار بتصديق النبي صلى الله عليه وسلم وطاعة الله تعالى وترك العناد الردى المُردي..

وفي قوله:{ ولن تفعلوا } إثارة لهممهم، وتحريك لنفوسهم، ليكون عجزهم بعد ذلك أبدع، وهذا من الغيوب التي أخبر بها القرآن قبل وقوعها، ومن إعجاز القرآن وإيراده التحدي بعد التحدي، والبرهان بعد برهان.. قال ابن كيسان: ولن تفعلوا توقيفا لهم على أنه الحق، وأنهم ليسوا صادقين فيما زعموا من أنه كذب، وأنه مفترى وأنه سحر وأنه شعر، وأنه أساطير الأولين، وهم يدعون العلم ولا يأتون بسورة من مثله.

[ قال الزمخشري في بلاغة الآية ومعناها ما حاصله: إن استبنتم العجز فاتركوا العناد والمكابرة. ووضع "فاتقوا النار" موضع جواب الشرط، لأن اتقاء النار يلاصقه ويلازمه هنا ترك العناد، حيث إنه من نتائجه. لأن من اتقى النار ترك المعاندة. ونظيره أن يقول الملك لحشمه: "إن أردتم الكرامة عندي، فاحذروا سخطي". يريد: فأطيعوني واتبعوا أمري، وافعلوا ما هو نتيجة حذر السخط. وهو من باب الكناية التي هي شعبة من شعب البلاغة. وفائدته: الإيجاز، الذي هو حلية القرآن، وتهويل شأن العناد، بوضع اتقاء النار مكانه، وإبرازه في صورته، متبِعا ذلك بتهويل صفة النار وتفظيع أمرها. انتهى وهو من دقيق نظر الطبري رحمه الله وغفر للزمخشري.]..

ثم إن التحدي يزداد قوةً بعد قوةٍ وحجةً بعد حجةٍ على المعاندين للمتأملين في لفظة { نزَّلنا} في الآية الكريمة.. يقول صاحب الكشاف ([[70]](#footnote-70)):

فان قلتَ: لم قيل: (مِمَّا نَزَّلْنا) على لفظ التنزيل ( بالتنضعيف) دون (أنزلنا) التي هى من الإنزال؟

قلتُ: لأن المراد نزول القرآن على سبيل التدريج والتنجيم، وهو في مكانه العظيم من قضية التحدي. وذلك أنهم كانوا يقولون: لو كان هذا من عند اللَّه مخالفاً لما يكون من عند الناس، لم ينزل هكذا نجوما سورة بعد سورة وآيات تلو آيات، على حسب النوازل وتوارد الحوادث، وعلى سنن ما نرى عليه أهل الخطابة والشعر، من وجود ما يوجد منهم مفرقا حيناً فحيناً، وشيئاً فشيئا حسب ما يظهر لهم من الأحوال المتجددة والحاجات السانحة، لا يلقى الناظم ديوان شعره دفعةً واحدة، ولا يرمى الخطيب بمجموع خطبه أو رسائله ضربةً واحدة، فلو أنزله اللَّه لأنزله خلاف هذه العادة، وأنزله جملةً واحدة: قال اللَّه تعالى: {وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً واحِدَةً}، فقيل لهم:إن ارتبتم في هذا الذي وقع إنزاله هكذا على مهلٍ وتدريج، فهاتوا أنتم نوْبةً واحدة من نوبه، وهاتوا نجماً فرداً من نجومه: سورة من أصغر السور، أو آيات شتى مفتريات. وهذه هى الغاية في التبكيت، ومنتهى إزاحة العلل ورد العناد.ا.ه.

قلتُ: وهو تحدٍ بعد تحدي لمن كلن له عقل وأعمل فكره ونسى هواه لحظةً واحدة.. فإن تنجيم القرآن (= نزوله مفرقاً ) أدعى لتشتت مذاهبه، وضعف بنيته وعدم اتساق مبانيه فضلا عن معانيه.. ولكن الإعجاز في التئامه لحُمةً واحدةً ونسيجاً متسقاً رغم تنزّله على مدى بضع وعشرين سنة منجماً على الحوادث.. وهذا منحى من الإعجاز فريد لا يدركه إلا المتأملون المتدبرون..([[71]](#footnote-71))

{فاتقوا النار} يقول: فاتقوا أن تَصْلَوُا النار بتكذيبكم رسولي بما جاءكم به من عندي.. ثم وصف جل ثناؤه النارَ التي حَذرهم صِلِيَّها فأخبرهم أنّ الناس وَقودها، وأن الحجارة وَقُودها، فقال:{التي وَقودها الناس والحجارة} قال القرطبي[[72]](#footnote-72): والوقود ( بالفتح ): الحطب. وبالضم: التوقد. والناس هنا عموم، ومعناه الخصوص فيمن سبق عليه القضاء أنه يكون حطبا للنار بكفره، أجارنا الله منها. والحجارة هي حجارة الكبريت الأسود – كما روى عن ابن مسعود والفراء - وخُصَّت بذلك لأنها تزيد على جميع الأحجار بخمسة أنواع من العذاب: سرعة الاتقاد، نتن الرائحة، كثرة الدخان، شدة الالتصاق بالأبدان، قوة حرها إذا حميت.. وقيل: المراد بالحجارة الأصنام، لقوله تعالى:{ إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم} أي حطب جهنم. وعليه فتكون الحجارة والناس وقودا للنار، وذكر ذلك تعظيما للنار أنها تحرق الحجارة مع إحراقها للناس[[73]](#footnote-73)..

{أعدت للكافرين} أعدّت هذه النارُ للجاحدين أنّ الله رَبُّهم، المشركينَ معه في عبادته الأندادَ والآلهة، وهو المتفرد لهم بالإنشاء، والمتوحِّد بالأقوات والأرزاق.



{وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأنْهَارُ}

لما ذكر الله عز وجل جزاء الكافرين ذكر جزاء المؤمنين أيضا؛ وهذه عادة القرآن في اقتران البشارة بالنذارة، والترغيب والترهيب لتجلية المعاني وترسيخها في الشعور والوجدان.

{وبشِّر}، فإنه يعني: أخبرهم. والبشارة أصلها الخبرُ بما يُسَرُّ به المرء، إذا كان أول مَا يُخبَر به.. فلا يقال بشرته إلا إذا كنت أول من يخبره بما يسره ويفرحه ([[74]](#footnote-74)).. وسُميت بشارةً لأنها تؤثر في بشرة الوجه لإنفعال المرء بها.. ولا تستعمل البشارة في الشر وما يسوء إلا تهكماً وتبكيتا كما قال تعالى في المشركين { فبشرهم بعذاب أليم}...

والآية أمر من الله تعالى لنبيَّه صلى الله عليه وسلم بإبلاغ بشارته لخلقه الذين آمنوا به وبرسوله وبما جاء به من عند ربه، وصدّقوا إيمانهم ذلك وإقرَارهم بأعمالهم الصالحة، فقال له: يا محمد، بشِّرْ هؤلاء أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار، خاصةً لهم من دون من عاند وكفر.. والجنات: جمع جنة، والجنة: البستان. { تجري من تحتها الأنهار} أي ماء الأنهار، فنسب الجري إلى الأنهار توسعا، وإنما يجري الماء وحده فحذف اختصارا، كما قال تعالى: {واسأل القرية} أي أهلها؛ وهو من المجاز.. و إنما أراد جل ثناؤه الخبرَ عن ماء أنهارها أنه جارٍ تحت أشجارها وغروسها وثمارها، لا أنه جارٍ تحت أرضها.. ولذلك جاء التعبير { تجري من تحتها} بدلا من { تجري تحتها}..

{كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا}

{كلما رُزقوا منها}: يعني من الجنات، والهاء راجعةٌ على الجنات، وإنما المعنيّ أشجارها، فكأنه قال: كلما رُزقوا - من أشجار البساتين التي أعدّها الله للذين آمنوا وعملوا الصالحات في جناته - من ثمرة من ثمارها رزقًا قالوا: هذا الذي رُزقنا من قبل.. قال القرطبي: ومعنى: {من قبل} يعني في الدنيا، وفيه وجهان: أحدهما: أنهم قالوا هذا الذي وعدنا به في الدنيا. والثاني: هذا الذي رزقنا في الدنيا ; لأن لونها يشبه لون ثمار الدنيا، فإذا أكلوا وجدوا طعمه غير ذلك وقيل: من قبل يعني في الجنة لأنهم يرزقون ثم يرزقون، فإذا أتوا بطعام وثمار في أول النهار فأكلوا منها، ثم أتوا منها في آخر النهار قالوا: هذا الذي رزقنا من قبل، يعني أطعمنا في أول النهار ; لأن لونه يشبه ذلك، فإذا أكلوا منها وجدوا لها طعما غير طعم الأول.[[75]](#footnote-75)

{وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا} والهاء في " به " عائدة على الرزق، فتأويله: وأتوا بالذي رُزقوا من ثمارها متشابهًا.. قال بعضهم: تشابهه أنّ كله حسنٌ لا رَذْلَ فيه. قال قتادة: وإن ثمار الدنيا يُنقَّى منها ويُرْذَل منها، وثمار الجنة حسنٌ كله، لا يُرْذَل منه شيء. وقال بعضهم: متشابها في اللَّوْن والمرْأى، وليس يُشبه الطعمَ. وعن ابن عباس قال: هذا على وجه التعجب، وليس في الدنيا شيء مما في الجنة سوى الأسماء، فكأنهم تعجبوا لما رأوه من حسن الثمرة وعظم خلقها.

{وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ}

{لهم} أى الذين آمنوا وعملوا الصالحات، {فيها} أى الجنات.

والأزواج جمع زَوْج، وهي امرأة الرجل. يقال: فلانة زَوْجُ فلان وزوجته.. فالمرأة زوج الرجل، والرجل زوج المرأة؛ قال الأصمعي: لا تكاد العرب تقول زوجة.. وأما قوله:{مطهَّرة} فإن تأويله أنهن طُهِّرن من كل أذًى وقَذًى وريبةٍ، مما يكون في نساء أهل الدنيا، من الحيض والنفاس والغائط والبول والمخاط والبُصاق والمنيّ، وما أشبه ذلك من الأذى والأدناس والرِّيَب والمكاره، وورد أن نساء الدنيا المؤمنات يكنَّ يوم القيامة أجمل من الحور العين كما قال تعالى: {إِنَّآ أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَآءً فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَاراً عُرُباً أَتْرَاباً} [الواقعة: 35 - 37] أى خلقناهن خلقا جديدا يكن فيه على أحسن ما يكون متحبباتٍ لأزواجهن مُطَهَّراتٍ متساوياتٍ في السن لا يكبرن ولا يفارقن بكارتهن.

{وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (25) } يعني: و {هم} الذين آمنوا وعملوا الصالحات { فيها} في الجنات خالدون.. وخلودهم فيها دوام بقائهم فيها على ما أعطاهم الله فيها من الْحَبْرَةِ والنعيم المقيم..[[76]](#footnote-76).

[فتأمل جلالة المبشّر ومنزلته وصدقه، وعظمته وعظمة من أرسله إليك بهذه البشارة، وقد بشرك به، وضمنه لك، وجعله أسهل شيء عليك وأيسره، وجمع سبحانه في هذه البشارة بين نعيم البدن بالجنات، وما فيها من الأنهار والثمار، ونعيم النفس بالأزواج المطهرة، نعيم القلب، وقرة العين بمعرفة دوام هذا العيش أبد الآباد، وعدم انقطاعه][[77]](#footnote-77).



# في ملامح منهج القرآن في تثبيت العقيدة

1. { يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (21) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (22)}

في هذه الآيات تتبين لنا طريقة القرآن في إثباته أهم أسس العقيدة الحقة بطريقةٍ تتميز: بالسهولة والانسيابية في البرهان، والاستدلال الواضح البسيط الذي يفهمه العامي قبل العالم، ووضوح المقدمات ورسوخها ومن ثَم ترتّب النتائج عليها في يسرٍ وعمق يخترق الشعور والوجدان من أقرب طريقٍ.. بعكس الفلسفة والتعقيد والجدل المتضارب الذي تراه في علم الكلام..

لقد كان هذا الاستدلال الجلى الرصين بوحدانيته تعالى في الربوبية ( خلقا وحفظا ورزقا ) على استحقاق الله وحده دون سواه لتوحيده بالعبادة وكل ما يتصل بها ويقترب من معناها.. استدل بنعمة الإيجاد (= الخلق والإبداع )، وكذا استدل بنعمة الإعداد (تهيئة السماء والأرض بما يصلح للحياة)، ونعمة الإمداد ( رزق الخلائق وتربيتهم في خيره وآلائه).. ثم بالفطرة التي تدرك وجود الخالق الرازق القيوم في قوله { وأنتم تعلمون}.. استدل بذلك كله على وجوب توحيده وحده سبحانه بالعبادة، وصرف الحب والخوف والرجاء والاستعانة والإنابة وكل عبادةٍ له وحده سبحانه..([[78]](#footnote-78))

والتَّوْحِيدُ الَّذِي دَعَتْ إِلَيْهِ الرُّسُلُ، وَنَزَلَتْ بِهِ الْكُتُبُ، هُوَ تَوْحِيدُ الْإِلَهِيَّةِ الْمُتَضَمِّنُ تَوْحِيدَ الرُّبُوبِيَّةِ، وَهُوَ عِبَادَةُ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، فَإِنَّ الْمُشْرِكِينَ مِنَ الْعَرَبِ كَانُوا يُقِرُّونَ بِتَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ، وَأَنَّ خَالِقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاحِدٌ، كَمَا أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْهُمْ بِقَوْلِهِ: {وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ} [لقمان: 25]... وَالْقُرْآنُ مَمْلُوءٌ مِنْ تَقْرِيرِ هَذَا التَّوْحِيدِ وَبَيَانِهِ وَضَرْبِ الْأَمْثَالِ لَهُ.

وَمِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ يُقَرِّرُ تَوْحِيدَ الرُّبُوبِيَّةِ، وَيُبَيِّنُ أَنَّهُ لَا خَالِقَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ ذَلِكَ يسْتَلْزِم أَنْ لَا يُعْبَدَ إِلَّا اللَّهُ، فَيَجْعَلُ الْأَوَّلَ دَلِيلًا عَلَى الثَّانِي، إِذْ كَانُوا يُسَلِّمُونَ المعنى الْأَوَّلَ، وَيُنَازِعُونَ فِي الثَّانِي، فَيُبَيِّنُ لَهُمْ سُبْحَانَهُ أَنَّكُمْ إِذَا كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّهُ لَا خَالِقَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّهُ هُوَ الَّذِي يَأْتِي الْعِبَادَ بِمَا يَنْفَعُهُمْ، وَيَدْفَعُ عَنْهُمْ مَا يَضُرُّهُمْ، لَا شَرِيكَ لَهُ فِي ذَلِكَ، فَلِمَ تَعْبُدُونَ غَيْرَهُ، وَتَجْعَلُونَ مَعَهُ آلِهَةً أُخْرَى؟ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: { أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ}(النَّمْلِ: 59 - 60) ([[79]](#footnote-79)).

.. وهذا من بديع حجاج القرآن وعظيم برهانه وطريقته البسيطة العميقة التي يفهمها العامي ولا يستقلها المتبحر؛ بل يجد من وضوحها ووجازتها ما يعجب كل ذي عقل صحيح.. فإنه استدل بما لا ينكره المعاندون من ربوبيته للخلق جميعا وفقر الخلائق إليه وغناه عنها على ما يجب لله سبحانه من توحيد العبادة والإنابة والاستعانة.

قال تعالى {يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ ۖ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ }

ثم نرى الذكر الحكيم يثبت النبوة بنفس الطريقة العميقة الواضحة التي أثبت بها الوحدانية والبعث..

وإن شئت فاقرأ قوله تعالى: {وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنا عَلى عَبْدِنا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَداءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (23)}

يقول صاحب الكشاف – عفا الله عنا وعنه -: لما احتج عليهم بما يثبت الوحدانية ويحققها، ويبطل الإشراك ويهدمه، وعلم الطريق إلى إثبات ذلك وتصحيحه، وعرفهم أنّ من أشرك فقد كابر عقله وغطى على ما أنعم عليه من معرفته وتمييزه- عطف على ذلك ما هو الحجة على إثبات نبوّة محمد صلى اللَّه عليه وسلم، وما يدحض الشبهة في كون القرآن معجزة، وأراهم كيف يتعرفون أهو من عند اللَّه كما يدعى، أم هو من عند نفسه كما يدعون. بإرشادهم إلى أن يحزروا أنفسهم ويذوقوا طباعهم وهم أبناء جنسه وأهل جلدته. ا.ه.([[80]](#footnote-80))

فهذا التحدي هو من أوقع السبل في إثبات الحجة على المعاند المشاكس..

ثم نعود فنقول: وهنا يعلمنا القرآن كيف نستدل على اعتقادنا من كلام الله وليس بالترهات الفارغة والسفسطة الكلامية الفلسفية المنطقية العقيمة.. ولقد اختلط علم الكلام عند المعتزلة بالفلسفة اليونانية وصار الدليل الشرعي خادما لها.. وكثرت مصطلحاته وتعقيداته واعتماده على المنطق الصوري الفاشل عند الأشاعرة وصار الدليل الشرعي معضداً لا أساساً.. فلله الأمر من قبل ومن بعد.

يؤكد العلامة الزركشي ([[81]](#footnote-81)) أَنَّ الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ قَدِ اشْتَمَلَ عَلَى جَمِيعِ أَنْوَاعِ الْبَرَاهِينِ وَالْأَدِلَّةِ بطريقته الواضحة وحجته الناصعة التي فهمها العالم والعامي لموافقتها للفطرة والبديهة، وَمَا مِنْ بُرْهَانٍ وَدَلَالَةٍ العَقْلِيَّةِ منها وَالسَّمْعِيَّةِ إِلَّا وَكِتَابُ اللَّهِ تَعَالَى قَدْ نَطَقَ بِهِ لَكِنْ أَوْرَدَهُ تَعَالَى عَلَى عَادَةِ الْعَرَبِ ( في البلاغة والفصاحة والوضوح ) دُونَ دَقَائِقِ طُرُقِ الْمُتَكَلِّمِينَ ( والمتفلسفة)، ويرجع ذلك لِأَمْرَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: أن الله تعالى يقول: {وما وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ ليبين لهم}. الْآيَةَ.. فإذا كان القرآن بلسان العرب ويخاطب عقولهم ابتداءاً فهو على طريقتهم ويناسب فهمهم بغير دقائق الفلسفة التي غزت عقول المتعالمين جرَّاء احتكاكهم بثقافة العجم والفرس، ولم تجر عليهم سوى الفرقة والأهواء المُضلِّلة..

وَ الأمر الثَّانِي: أَنَّ الذي يميل إِلَى الدَقِيقِ ( والمُعقَّد ) من وسائل الْمُحَاجَّةِ (الجدل) والإقناع هُوَ الْعَاجِزُ عَنْ إِقَامَةِ الْحُجَّةِ بِالواضح البيِّن مِنَ الْكَلَامِ..

فَإِنَّ مَنِ اسْتَطَاعَ أَنْ يُفْهِمَ ويوصل فكرته والمعنى الذي يريد بِالْأَوْضَحِ الَّذِي يَفْهَمُهُ الْأَكْثَرُونَ من العوام والعلماء لَمْ يَتَخَطَّ ذلك إِلَى الْأَغْمَضِ الَّذِي لَا يَعْرِفُهُ إِلَّا الْأَقَلُّونَ ( المتفلسفون المتحذلقون)، وَلَمْ يَكُنْ يصنع الألغاز والأحاجي والمعقد من القول والفكر..

فَأَخْرَجَ سبحانه وتَعَالَى مُخَاطَبَاتِهِ فِي مُحَاجَّةِ خَلْقِهِ فِي أَجَلِّ صُورَةٍ وأوضحها، ومع ذلك تَشْتَمِلُ عَلَى أَدَقِّ دَقِيقٍ.. لِتَفْهَمَ الْعَامَّةُ مِنْ جَلِيلِهَا وواضحها مَا يُقْنِعُهُمْ وَيُلْزِمِهُمُ الْحُجَّةَ، وَتَفْهَمُ الْخَوَاصُّ من العلماء والمتأملين المتدبرين مِنْ دقائق فقهها مَا يرضي علمهم ويزيدهم يقينا..(([[82]](#footnote-82)

قال القرطبي في تفسيره:

قوله تعالى:{ أعدت للكافرين} ظاهره أن غير الكافرين لا يدخلها وليس كذلك، بدليل ما ذكره في غير موضع من الوعيد للمذنبين وبالأحاديث الثابتة في الشفاعة، على ما يأتي. وفيه دليل على ما يقوله أهل الحق من أن النار موجودة مخلوقة، خلافا للمبتدعة في قولهم إنها لم تخلق حتى الآن.. روى مسلم عن عبد الله بن مسعود قال كنا مع رسول الله إذ سمع وجبة، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: تدرون ما هذا قال قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: هذا حجر رمي به في النار منذ سبعين خريفا فهو يهوي في النار الآن حتى انتهى إلى قعرها. وروى البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: احتجت النار والجنة فقالت هذه: يدخلني الجبارون والمتكبرون وقالت هذه: يدخلني الضعفاء والمساكين فقال الله عز وجل لهذه: أنت عذابي أعذب بك من أشاء وقال لهذه: أنت رحمتي أرحم بك من أشاء ولكل واحدة منكما ملؤها. وأخرجه مسلم بمعناه. يقال: احتجت بمعنى تحتج، للحديث المتقدم حديث ابن مسعود، ولأن النبي صلى الله عليه وسلم قد أريهما في صلاة الكسوف، ورآهما أيضا في إسرائه ودخل الجنة، فلا معنى لما خالف ذلك. وبالله التوفيق.([[83]](#footnote-83))

# مثلٌ في بعوضة

{ إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ (26) الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (27)}.

# المثل والإعجاز

في نبذة مختصرة جدا عن البعوضة التي ضرب بها المثل القرآني العظيم نقول ([[84]](#footnote-84)):

ينتمى البعوض إلى رتبة الحشرات ذات الجناحين، التي تشتمل على 3000 نوع من البعوض.

وينقل البعوض العديد من الأمراض الخطيرة للإنسان.. حيث تقوم أنثى بعوضة (الأنوفيلس ) دون الذكر بنقل مرض الملاريا للإنسان في مناطق كثيرة من العالم وخاصة في إفريقيا، وهو مرض خطير يسبب حمى وتكسر في الدم قاتل.

كما تقوم بعوضة (الكيولكس) بنقل العديد من الأمراض للإنسان مثل: الفيلاريا، وحمى غرب النيل، و التهاب الدماغ، كما تقوم بنقل مرض حمى الوادي المتصدع للحيوان ومنه للإنسان وأيضاً مرض اللسان الأزرق للحيوان. وتنقل بعوضة (الأيدس) مرض الحمى الصفراء خاصة في إفريقيا.

وتتضمن دورة حياة البعوض أربعة اطوار: البيضة , ثم اليرقة , ثم العذراء و الحشرة الكاملة. تلعب الأنثى الدور الرئيسي في نقل المرض للإنسان و الحيوان دون الذكر ( ولعل هذا سر ذكر البعوضة بتاء التأنيث في هذه الآية). وتستطيع البعوضة الوصول لعوائلها من الإنسان والحيوان عن طريق شعيرات حسية دقيقة توجد على أرجلها و رأسها، وتستخدم تقنية عالية جدا في تخدير موضع الجلد الذي تلتصق به ثم شقه بلطف وغرس مجس لمص الدم منه عن طريق آلات متمكنة في جسمها غايةً في الصغر والدقة. و ترتبط البعوضة مع كثير من الكائنات الأكبر أو الصغر منها بعلاقات متميزة أهلتها للتواجد على الأرض منذ اكثر من 150 مليون سنة.

وأما وجه الإعجاز في قوله تعالى:{بعوضة فما فوقها}:-

إذا أخذنا معنى كلمتى {فما فوقها} بأنه ما أدناها في الحجم أو ما أصغر منها، كما جاء في تفسير الطبري، فلقد وُجد أن البعوضة ترتبط بعلاقات معقدة مع الكائنات التي أصغر منها والتي تعيش داخل معدة البعوضة مثل: البكتريا, الفطريات الفيروسات والأوليات، وبعض الكائنات المجهرية الدقيقة جداً التي تعيش فوق سطحها (الحلم).

وُجد أن بعض هذه الكائنات مفيدة وضرورية لحياة البعوضة , وبعضها ضارٍ بها.

وتساعد البكتريا الموجودة في معي (مفرد أمعاء) البعوضة في تصنيع مضادات للفيروسات التي تهاجم البعوضة.

إن السبب في قدرة البعوضة على نقل الأمراض تكمن في سر {فما فوقها} أي ما أصغر منها من كائنات، وهى البكتريا التي تعيش في معدة البعوضة. إن هذه البكتريا تدافع عن البعوضة ضد المسببات المرضية المختلفة التي تدخل مع وجبة الدم التي تأخذها من إنسان أو حيوان مصاب بالمرض.. تحاول البكتريا قتل المسببات المرضية ولكن إذا نجحت تلك المسببات في القضاء على البكتريا المتعايشة مع البعوضة أو إضعافها، فإن تلك المسببات تتكاثر في العدد و تسبب الأمراض.

ولعل نتائج البحث قد كشفت عن بعض السر المعجز في التعبير القرآني {فما فوقها}.. إن هذه الكائنات تحمى البعوضة.. والشيء المعجز أنها تحمى الإنسان أيضاً عن طريق قتل المسببات المرضية التي تنتقل إليه إذا تغذت على البعوضة على دمه.

أما إذا أخذنا معنى {فما فوقها} على أنه فما فوق جسم البعوضة، فلقد وُجدت كائنات دقيقة أصغر من البعوضة تعيش فوق جسمها من الخارج , تفترس البعوضة وتقتلها مثل: الحلم والفطريات.

وإذا أخذنا معنى {فما فوقها} بأنه ما أكبر منها في الحجم، فإننا سنجد أن البعوضة ترتبط بعلاقات معقدة مع الكائنات الأكبر منها وخاصة الإنسان والحيوان. فلقد وُجد أن البعوضة تصيب الإنسان والحيوان بالعديد من الأمراض. ولكن كل المسببات المرضية التي تسبب هذه الأمراض تقع تحت التفسير الأول لمعنى { بعوضة فما فوقها} أى الكائنات الأصغر منها والتي سبق ذكرها. أيضاً نجد أن البعوضة ترتبط مع معظم أفراد المملكة الحيوانية بعلاقات كثيرة. مثل الاسماك , الزواحف , البرمائيات و الثدييات. ولقد عبر القرآن الكريم عن كل تلك العلاقات سواء التي بين الكائنات الأكبر من البعوضة أو الكائنات الأصغر منها (المسببات المرضية) في تعبير معجز {بعوضة فما فوقها }.. وفي نهاية هذا البحث لا أستطيع إلا أن أقف عاجزاً عن التعليق عن تأويل {فما فوقها} في الآية الكريمة، فهى تستطيع أن تحتوى أقوال كل المفسرين سواء المخلوقات الأدنى منها في الحجم أو الأكبر أو الأعظم منها في الخلق، أو بمعنى المخلوقات التي فوق جسم البعوضة نفسها. انتهى.([[85]](#footnote-85))

وهكذا يكشف لنا العلم الحديث لماذا ضرب الله تعالى المثل بالبعوضة فما فوقها.. ويثبت لنا أن الأمر ليس بلاغةً عربيةً فحسب وإنما إعجاز سماوي يفوق الوصف يتجدد في كل زمان وحسب تقدم الإنسان في كل عصر ليضع الحقيقة الأولى والأهم في الوجود أمام الجميع أنه " لا إله إلا الله " وإن القرآن كلامه ورسالته التي جاء بها رسوله محمد صلى الله عليه وسلم لهداية البشرية الحائرة.

# وعن سبب نزول الآية

( روى الواحدى في أسباب النزول، عن ابن عباس أن الله - تعالى - لما أنزل قوله – تعالى:

{ إِنَّ الذين تَدْعُونَ مِن دُونِ الله لَن يَخْلُقُواْ ذُبَاباً وَلَوِ اجتمعوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذباب شَيْئاً لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ } وقوله - تعالى -: { مَثَلُ الذين اتخذوا مِن دُونِ الله أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ العنكبوت اتخذت بَيْتاً } لما نزل قال المشركون: أرأيتم أي شيء يصنع بهذا؟! فأنزل الله تعالى: { إِنَّ الله لاَ يَسْتَحْى أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا.. }. وروى عن الحسن وقتادة أن الله لما ذكر الذباب والعنكبوت في كتابه وضرب بهما المثل ضحك اليهود وقالوا: ما يشبه أن يكون هذا من كلام الله! فأنزل الله هذه الآية: { إِنَّ الله لاَ يَسْتَحْى أَن يَضْرِبَ مَثَلاً }. إلخ الآية... وقال السدى: لما ضرب الله هذين المثلين للمنافقين، يعني قوله تعالى: { مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الذي استوقد نَاراً... } وقوله تعالى: { أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السماء } قال المنافقون: الله أعلى وأجل من أن يضرب هذه الأمثال! فأنزل الله هذه الآية. ويبدوا أن الآية الكريمة قد نزلت للرد على جميع تلك الفرق الضالة، فقد قرر العلماء أن لا مانع من تعدد أسباب النزول للآية الواحدة أو للطائفة من الآيات.) ([[86]](#footnote-86)) ا.ه.

أقول: احتمال الكل هاهنا قَائِمٌ لِأَنَّ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَالْيَهُودَ كَانُوا مُتَوَافِقِينَ فِي إِيذَاءِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَدْ مَضَى مِنْ أَوَّلِ السُّورَةِ إِلَى هَذَا الْمَوْضِعِ ذِكْرُ الْيَهُودِ، وَذِكْرُ الْمُنَافِقِينَ، وَذِكْرُ الْمُشْرِكِينَ. وَكُلُّهُمْ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا، وفي تفسير الفخر: قَالَ الْقَفَّالُ: وَقَدْ يَجُوزُ أَنْ يَنْزِلَ ذَلِكَ ابْتِدَاءً مِنْ غَيْرِ سَبَبٍ لِأَنَّ مَعْنَاهُ فِي نَفْسِهِ مُفِيدٌ.([[87]](#footnote-87))

# المناسبة في الآيات

بعد الحديث الوافي في الآيات قبلها عن هدايات القرآن وموقف طوائف الناس من الصراط المستقيم وضرب الأمثال للمنافقين والصيحة السماوية العامة لكل الناس بتنزيه أرواحهم عن أدناس الشرك واتباع نور التوحيد؛ ثم النذارة لمن أبى إلا الهلاك والبشارة لأهل النجاة والفوز.. بعد هذا كله يجيء الحديث عن الأمثال التي يضربها الله تعالى في القرآن.. وهذه الآيات تشي بأن المنافقين الذين ضرب الله لهم الأمثال – وأيضاً اليهود والمشركون - قد اتخذوا من ورود هذه الأمثال في هذه المناسبة , و أمثالٍ أخرى في القرآن منفذا للتشكيك في صدق الوحي بهذا القرآن , بحجة أن ضرب الأمثال هكذا بما فيها من تصغيرٍ لهم وسخريةٍ منهم لا تصدر عن الله , وأن الله حُقَّ له ألّا يذكر مثل هذه الأشياء الصغيرة كالذباب والعنكبوت في كلامه وهداياته !.. وكان هذا طرفا من حملة التشكيك والبلبلة التي يقوم بها المنافقون واليهود في المدينة , كما كان يقوم بها المشركون في مكة. فجاءت هذه الآيات دفعا لهذا الدس , وبيانا لحكمة وعظمة الله في ضرب الأمثال وإعجازاتها السماوية الكثيرة , وتحذيرا لغير المؤمنين من عاقبة الاستدراج بها , وتطمينا للمؤمنين أن ستزيدهم إيمانا إلى إيمانهم.

# التفسير والمعاني الراقية

يقول الأستاذ سيد قطب –رحمه الله - في ظلاله الرائعة:

[{إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلا ما , بعوضة فما فوقها}..

فالله رب الصغير والكبير , وخالق البعوضة والفيل , والمعجزة في البعوضة هي ذاتها المعجزة في الفيل. إنها معجزة الحياة. معجزة السر المغلق الذي لا يعلمه إلا الله.. على أن العبرة في المثل ليست في الحجم والشكل , إنما الأمثال أدوات للتنوير والتبصير. وليس في ضرب الأمثال ما يُعاب، وما من شأنه الاستحياء من ذكره. والله - جلَّت حكمته - يريد بها اختبار القلوب , وامتحان النفوس: {فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم}..

ذلك أن إيمانهم بالله يجعلهم يتلقون كل ما يصدر عنه بما يليق بجلاله ; وبما يعرفون من حكمته. وقد وهبهم الإيمان نورا في قلوبهم , وحساسية في أرواحهم , وتفتحا في مداركهم , واتصالا بالحكمة الإلهية في كل أمرٍ؛ وفي كل قول يجيئهم من عند الله.

{وأما الذين كفروا فيقولون:ماذا أراد الله بهذا مثلا ?}.. وهو سؤال المحجوب عن نور الله وحكمته , المقطوع الصلة بسُنَّة الله وتدبيره. ثم هو سؤال من لا يرجو لله وقارا , ولا يتأدب معه الأدب اللائق بالعبد الفقير أمام تصرفات الرب القدير. يقولونها في جهلٍ وقصورٍ في صيغة الاعتراض والاستنكار , أو في صورة التشكيك في صدور مثل هذا القول عن الله ! هنا يجيئهم الجواب في صورة التهديد والتحذير بما وراء المثل من تقدير وتدبير: {يضل به كثيرا , ويهدي به كثيرا , وما يضل به إلا الفاسقين}.. والله - سبحانه - يطلق الابتلاءات والامتحانات تمضي في طريقها , ويتلقاها عباده , كل وفق طبيعته واستعداده , وكل حسب طريقه ومنهجه الذي اتخذه لنفسه. والابتلاء واحد.. ولكن آثاره في النفوس تختلف بحسب اختلاف المنهج والطريق..

الشدة تُسلَّط على شتى النفوس , فأما المؤمن الواثق بالله وحكمته ورحمته فتزيده الشدة التجاءا إلى الله وتضرعا وخشية. وأما الفاسق أو المنافق فتزلزله وتزيده من الله بعدا , وتخرجه من الصف إخراجا.

والرخاء يُسلَّط على شتى النفوس , فأما المؤمن التقي فيزيد الرخاء يقظة وحساسية وشكرا. وأما الفاسق أو المنافق فتبطره النعمة ويتلفه الرخاء ويضله الابتلاء.. وهكذا المثل الذي يضربه الله للناس.. { يضل به كثيرا}ممن لا يحسنون استقبال ما يجيئهم من الله , {ويهدي به كثيرا} ممن يدركون حكمة الله.. {وما يضل به إلا الفاسقين}الذين فسقت قلوبهم من قبل وخرجت عن الهدى والحق , فجزاؤهم زيادتهم مما هم فيه من الضلال !

ويفصِّل السياق صفة الفاسقين هؤلاء , كما فصل في أول السورة صفة المتقين ; فالمجال ما يزال - في السورة - هو مجال الحديث عن تلك الطوائف , التي تتمثل فيها البشرية في شتى العصور، فتأتي الإجابة على السؤال: من هم هؤلاء الفاسقين؟: هم {الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه , ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل , ويفسدون في الأرض. أولئك هم الخاسرون}.. فأي عهدٍ من عهود الله هو الذي ينقضون ? وأي أمرٍ مما أمر الله به أن يوصل هو الذي يقطعون؟ وأي لونٍ من الفساد في الأرض هو الذي يفسدون ? لقد جاء السياق هنا بهذا الإجمال لأن المجال مجال تشخيص طبيعةٍ , وتصوير نماذجٍ , لا مجال تسجيل حادثةٍ , أو تفصيل واقعة..

إن الصورة هنا هي المطلوبة في عمومها. فكل عهدٍ بين الله وبين هذا النموذج من الخلق فهو منقوض ; وكل ما أمر الله به أن يوصل فهو بينهم مقطوع ; وكل فسادٍ في الأرض فهو منهم مصنوع.. إن صلة هذا النمط من البشر بالله مقطوعة , وإن فطرتهم المنحرفة لا تستقيم على عهدٍ ولا تستمسك بعروةٍ ولا تتورع عن فساد.

إنهم كالثمرة الفجة التي انفصلت من شجرة الحياة , فتعفنت وفسدت ونبذتها الحياة.. ومن ثَمَّ يكون ضلالهم بالمثل الذي يهدي المؤمنين ; وتجيء غوايتهم بالسبب الذي يهتدي به المتقون..

وننظر في الآثار الهدامة لهذا النمط من البشر الذي كانت الدعوة تواجهه في المدينة في صورة اليهود والمنافقين والمشركين ; والذي ظلت تواجهه وما تزال تواجهه اليوم في الأرض مع اختلافٍ سطحي في الأسماء والعناوين !] انتهى.

إن الكائنات كلها ـ صغيرها وكبيرها ـ صنعة اللّه، خلقها بحكمته، وأبدعها بقدرته.. فهى في معرض ملكه سواء في الإعلان عن تلك الحكمة وهذه القدرة، ففي كل ذرة من ذرات هذا الكون العظيم آيةٌ تحدّث عن جلال اللّه وعظمته!

فللّه ـ سبحانه ـ أن يضرب المثل بأيٍّ من مخلوقاته، وأن يقيم منه شاهدا لما يريد.. فأما الذين آمنوا، فيجدون في هذا المثل هدىً إلى هدىً، ونوراً إلى نورٍ، وأما الذين كفروا فلا تزيدهم الأمثال الكاشفة إلا ضلالاً إلى ضلالٍ، وإلا عمىً إلى عمى.



يقول تعالى في هؤلاء الفاسقين: { الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ (27)}

جاء في بحر العلوم: وصف الله تعالى الفاسقين الذين يشككون في حكمة آيات الله بسبب عماهم؛ فقال تعالى: {الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثاقِهِ}، أي يتركون أمر الله ووصيته من بعد ميثاقه، أي من بعد تغليظه وتأكيده، وذلك أن الله تعالى أمر موسى في التوراة بأن يأمر قومه ليقروا بمحمد صلى الله عليه وسلم ويصدقوه إذا خرج. وكان موسى عليه السلام عاهدهم على ذلك، فلما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم كذَّبوه ولم يصدِّقوه ونقضوا العهد. ويقال: إنه أراد به العهد الذي أخذه من بني آدم من ظهورهم، حيث قال تعالى: { أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قالُوا بَلى } (الأعراف: 172) فنقضوا ذلك العهد والميثاق. ويقال: الميثاق الذي يعرف كل واحد ربه إذا تفكر في نفسه، فكان ذلك بمنزلة أخذ الميثاق عليه، وجميع ما في القرآن من ذكر الميثاق فهو على هذه الأوجه الثلاثة.

وقوله تعالى: {وَيَقْطَعُونَ ما أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ}، عن ابن عباس قال: إنهم أمروا أن يؤمنوا بجميع الأنبياء فآمنوا ببعضهم ولم يؤمنوا ببعضهم، فهذا معنى قوله: {وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ}. ويقال: أمروا بصلة القرابات فقطعوا الأرحام فيما بينهم.

وقوله تعالى: {وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ }، لأنهم يكفرون ويأمرون غيرهم بالكفر، فذلك فسادهم في الأرض { أُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ} أي المغبونون في العقوبة، كما قال في آية أخرى {قُلْ إِنَّ الْخاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ} (الزمر: 15). انتهى بتصرف يسير([[88]](#footnote-88))

وجاء في تفسير الطبري ([[89]](#footnote-89)):

عن الرّبيع بن أنس، في قوله تعالى: {إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلا ما بعوضةً فما فوقها}. قال: هذا مثل ضربه الله للدنيا، إن البعوضة تحيا ما جاعتْ، فإذا سمنت ماتتْ. وكذلك مثل هؤلاء القوم الذين ضرب الله لهم هذا المثل في القرآن: إذا امتلأوا من الدنيا رِيًّا أخذَهم الله عند ذلك. قال: ثم تلا {فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ} (سورة الأنعام: 44)..وعنه قال: مثل الْبَعُوضَة مثل صَاحب الدُّنْيَا؛ لِأَن دأب الْبَعُوضَة أَنَّهَا إِذا شبعت هَلَكت، وَإِذا جاعت عاشت؛ كَذَلِك صَاحب الدُّنْيَا إِذا استكثر من الدُّنْيَا هلك، وَإِذا تَقلل مِنْهَا فَازَ وَنَجَا.. انتهى.

يقول الرائع الزمخشري في الكشاف ما ملخصه ([[90]](#footnote-90)):

[ سيقت هذه الآية لبيان أنَّ ما استنكره الجهلة والسفهاء وأهل العناد والمراء من الكفار واستغربوه؛ من أن تكون المحقّرات من الأشياء مضروباً بها المثل، وليس بموضع للاستنكار والاستغراب، من حيث أنّ التمثيل إنما يُصار إليه لما فيه من كشف المعنى ورفع الحجاب عن الغرض المطلوب، وإدناء ما في الوهم من المشاهدة. فإن كان المُتمثَّل له عظيمًا كان المُتمثَّل به مثله في العظمة، وإن كان حقيراً كان المتمثل به كذلك حقيراً.

فليس العِظَم والحقارة في المضروب به المثل إذاً؛ إلاَّ أمراً تستدعيه حال ما ضرب له المثل، ألا ترى إلى الحق لما كان واضحاً جلياً أبلج، كيف جاء التمثيل له بالضياء والنور؟ وإلى الباطل لما كان بضد صفته، كيف تمثل له بالظلمة؟ كما في قوله تعالى { مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً.. الآيات}.. ولما كانت حال الآلهة التي جعلها الكفار أنداداً لله تعالى ولا حال أحقر منها وأقلّ، جعل الله تعالى بيت العنكبوت مثلها في الضعف والوهن في قوله تعالى { كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً...}، وجُعِلَت أقلّ من الذباب وأخس قدراً، وضُرِبَ لها – مثلاً - البعوضة فالذي دونها مثلاً؛ فليس هناك إذن إلا مثل الحق الذي يؤمن به ذووا القلوب والألباب ويكفر به ذووا الكفر والجهل والهلاك، وأن ذلك سبب زيادة هدى المؤمنين، وانهماك الفاسقين في غيّهم وضلالهم.

والعجب منهم كيف أنكروا ذلك وما زال الناس يضربون الأمثال بالبهائم والطيور وأحناش الأرض والحشرات والهوام، وهذه أمثال العرب بين أيديهم تسير في حواضرهم وبواديهم قد تمثّلوا فيها بأحقر الأشياء فقالوا: أجمع من ذرّة، وأجرأ من الذباب، وأسمع من قراد. وأصرد من جرادة، وأضعف من فراشة. وآكل من السوس. وقالوا في البعوضة: أضعف من بعوضة، وأعز من مخ البعوض.

ولقد ضربت الأمثال في الإنجيل بالأشياء المحقرة، كالنخالة وحبة الخردل، والحصاة، والأرضة، والدود، والزنابير. والتمثيل بهذه الأشياء وبأحقر منها مما تغني - عند مَن عنده قليل عقل - استقامته وصحته ووقوعه على مقامه بكل حكمة وبلاغة، ولكنه طبع المعاند الجاهل المبهوت الذي لا يبقى له تمسُّكٌ بدليلٍ ولا تشبثٌ بأمارة ولا إقناع يعول على المكابرة والمغالطة؛ إذا لم يجد سواها نصير كذبٍ وضلال. ] انتهى من الكشاف بتصرفٍ وصياغة.

# ومن فقه المعاني واللغة في الآية

* { لا يستحيي} أي لا يمتنع من ضرب المثل وبيان الحق بذكر البعوضة وبما فوقها.

ويقال: لا يمنعه الحياء أن يضرب المثل[[91]](#footnote-91). قال المفسرون: والحياء: تَغَيَّرَ وانكسارٌ يعتري الإنسانَ من خوفِ ما يُعَابُ بِهِ ويُذَم، واستعماله هُنَا في حَقِّ الله - تعالى- مَجَازٌ عن التَّرْكِ والامتناع؛لأن من يستحيي من شيءٍ يترك فعله فكان التعبير والتأويل - في هذا الموضع وأمثاله - بلازم الحياء وثمرته وهو الامتناع، ( قال القاضي البيضاوي: وإنما عدل به عن الترك، لما فيه من التمثيل والمبالغة.ا.ه.)، وفي « صحيح مسلم » عن أم سلمة قالت: « جاءت أم سليم إلى النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم فقالت: يا رسولَ الله إنَّ اللهَ لا يَسْتَحي من الحَقِّ » المعنى لا يأمر بالحَيَاء فيه، ولا يمتنع من ذكره ([[92]](#footnote-92)).

وجعل الزمخشريُّ ( الاستحياء) هنا من باب المُقَابلةِ، يعني كأنَّ الكُفَّارَ لَمَّا قالوا: أَمَا يَسْتَحي رَبُّ محمد أن يضرب المثَلَ بالمُحْقّرَات، « قُوبِلَ » قولهم ذلك بقوله تعالى: { إِنَّ الله لاَ يَسْتَحْى أَن يَضْرِبَ مَثَلاً }..؛ كما قال تعالى: { ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين} فكان المكر من الله مجازا لا حقيقةً في مقابل مكرهم من باب المشاكلة والمشابهة اللفظية مع الاختلاف في المعنى المراد؛ فهم يمكرون؛ والله تعالى يرد مكرهم عليهم إلى نحورهم؛ سمى كلاهما مكراً من باب [ المشاكلة] عند علماء البلاغة.. ولله درّ أمر التنزيل وإحاطته بفنون البلاغة وأصنافها، لا تكاد تستغرب منها فناً إلا عثرت عليه في القرآن على أقوم منهجٍ وأسد طريقة.([[93]](#footnote-93))....

قلتُ: ومنهج السلف في إمرار مثل هذه الصفات المتشابهة كما جاءت بغير تعطيل ولا تمثيل ولا تكييف؛ وهو الحق الذي لا محيد عنه وإلا لانجر ذلك بنا إلى التأويل المذموم الذي يفتح أبوابا لا تنسد وتفسد علينا الدين.... وهذه عقيدة أهل الحديث في إثبات ما أثبته الله لذاته العلية بلا تكييف أو تمثيل أو تعطيل أو تحريف.. نثبت لله صفاته على الوجه الذي يليق به سبحانه، ونفوض المعنى فلا يعلمه إلا الله تعالى، وهذا في سائر صفاته كالغضب والفرح والاستحياء وغيره ([[94]](#footnote-94))..

يقول الأستاذ محمد عبده كما نقل عنه في [تفسير المنار ص: 211 ]: أجمعت الأمة الإسلامية على أن الله - تعالى - منزه عن مشابهة المخلوقات وقد قام البرهان العقلي والبرهان النقلي على هذه العقيدة، فكانت هي الأصل المحكم في الاعتقاد الذي يجب أن يرد إليه غيره وهو التنزيه، فإذا جاء في نصوص الكتاب أو السنة شيء ينافي ظاهره التنزيه فللمسلمين فيه طريقتان:

( إحداهما ) طريقة السلف وهي التنزيه الذي أيد العقل فيه النقل كقوله - تعالى -: ( ليس كمثله شيء ) ( 43: 11 ) وقوله - عز وجل -: ( سبحان ربك رب العزة عما يصفون ) ( 37: 180 ) وتفويض الأمر إلى الله - تعالى - في فهم حقيقة ذلك، مع العلم بأن الله يعلمنا بمضمون كلامه ما نستفيد به في أخلاقنا وأعمالنا وأحوالنا، ويأتينا في ذلك بما يقرب المعاني من عقولنا ويصورها لمخيلاتنا.

( والثانية ) طريقة الخلق وهي التأويل، يقولون: إن قواعد الدين الإسلامي وضعت على أساس العقل، فلا يخرج شيء منها عن المعقول، فإذا جزم العقل بشيء وورد في النقل خلافه يكون الحكم العقلي القاطع قرينة على أن النقل لا يراد به ظاهره ولا بد له من معنى موافق يحمل عليه فينبغي طلبه بالتأويل. ( قال الأستاذ بعد ذلك ): وأنا على طريقة السلف في وجوب التسليم والتفويض فيما يتعلق بالله - تعالى - وصفاته وعالم الغيب، وأننا نسير في فهم الآيات على كلا الطريقتين؛ لأنه لا بد للكلام من فائدة يحمل عليها؛ لأن الله - عز وجل - لم يخاطبنا بما لا نستفيد منه معنى.

(يقول العلامة رشيد رضا معلقاً )([[95]](#footnote-95)): وينبغي أن تعلم أيها القارئ المؤمن: أن من الخير لك أن تطمئن قلبا بمذهب السلف ولا تحفل بغيره، فإن لم يطمئن قلبك إلا بتأويل يرضاه أسلوب اللغة العربية فلا حرج عليك، فإن الله لا يكلف نفسا إلا وسعها، وأئمة علماء السلف قد تأولوا بعد الظواهر كما فعل الإمام أحمد وغيره في آيات المعية، وآخرون في غيرها، والذي عليك - قبل كل شيء - أن توقن بأن كلام الله كله حق، وألا تؤول شيئا منه بسوء القصد، وكذا ما صح عن رسوله - صلى الله عليه وسلم - من أمر الدين بغير شبهة. والتفسير الموافق للغة العرب لا يسمى تأويلا وإنما يجب معه تنزيه الخالق وعدم تشبيه عالم الغيب بعالم الشهادة من كل وجه..ا.ه.



* قوله تعالى { فَمَا فَوْقَهَا } يقول الزمخشري فيه معنيان:

أحدهما: فما تجاوزها وزاد عليها في المعنى الذي ضربت فيه مثلاً، وهو القلّة والحقارة، نحو قولك لمن يقول: فلان أسفل الناس وأنذلهم؛ هو فوق ذاك، تريد هو أبلغ وأعرق فيما وصف به من السفالة والنذالة.

والمعنى الثاني: فما زاد عليها في الحجم، كأنه قصد بذلك ردّ ما استنكروه من ضرب المثل بالذباب والعنكبوت، لأنهما أكبر من البعوضة. كما تقول لصاحبك وقد ذمّ مَن تعرفه؛ يبخل بأدنى شيء فقال: فلان بخل بالدرهم والدرهمين، فتقول: هو لا يبالي أن يبخل بنصف درهم فما فوقه؛ تريد بما فوقه ما بخل فيه وهو الدرهم والدرهمان كأنك قلت: فضلاً عن الدرهم والدرهمين.

ونحوه في الاحتمالين ما سمعناه في صحيح مسلم عن إبراهيم عن الأسود قال: ( دخل شباب من قريش على عائشة رضي الله عنها وهي بمِنَى وهم يضحكون. فقالت: ما يضحككم؟ قالوا: فلان سقط على طُنُب فُسْطاط (= وتد خيمة) فكادت عنقه أو عينه أن تذهب. فقالت: لا تضحكوا. إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: « ما من مسلم يشاك شوكة فما فوقها إلا كتبت له بها درجة ومحيت بها عنه خطيئة » يحتمل فما عدا الشوكة وتجاوزها في القلة وهي نحو نخبة النملة في قوله عليه الصلاة والسلام: " ما أصاب المؤمن من مكروه فهو كفارة لخطاياه حتى نخبة النملة " وهي عضتها. ويحتمل ما هو أشد من الشوكة وأوجع كالسقوط على طنب الفسطاط.. فإن قلت: كيف يضرب المثل بما دون البعوضة وهي النهاية في الصغر؟ قلت: ليس كذلك، فإن جناح البعوضة أقل منها وأصغر بدرجات، وقد ضربه رسول الله صلى الله عليه وسلم مثلاً للدنيا، وأنشدت لبعضهم:

يَا مَنْ يَرَى مَدَّ البَعُوضِ جَنَاحَها... في ظُلْمَة اللَّيْلِ البَهِيمِ الأَلْيَلِ

وَيَرى عُرُوقَ نِيَاطِها في نَحرِها... والمُخَّ في تِلْكَ العِظَامِ النُّحَّلِ

اغْفِرْ لِعَبْدٍ تابَ مِنْ فَرَطاتِه ... ما كانَ مِنْهُ في الزَّمانِ الاوَّلِ ] انتهى ([[96]](#footnote-96))

يقول أبو الليث السمرقندي (المتوفى: 373هـ) في تفسيره:

[وقال بعضهم: فما فوقها أي بما دونها في الصغر، وهذا من أسماء الأضداد يذكر الفوق، ويراد به دونه، كما يذكر الوراء ويراد به الأمام مثل قوله: {وَيَذَرُونَ وَراءَهُمْ يَوْماً ثَقِيلًا} [الإنسان: 27] أي أمامهم، فكذلك الفوق يذكر ويراد به ما دونه، ، فكيف يمتنع من ضرب المثل بالبعوضة، ولو اجتمعت الإنس والجن على أن يخلقوا بعوضة لا يقدرون عليه.] انتهى([[97]](#footnote-97))



* { يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً}، قال السمرقندي: أي إنما ضرب المثل ليضل به كثيراً من الناس، يعني يخذلهم ولا يوفقهم..

{ وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً}، يعني يوفق به على معرفة ذلك المثل كثيراً من الناس وهم المؤمنون. وقال بعضهم: معنى قوله {يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً}، أي يسميه ضالاً، كما يقال: فسّقت فلاناً، أي سميته فاسقاً، لأن الله تعالى لا يضل به أحداً، وهذا طريق المعتزلة، وهو خلاف جميع أقاويل المفسرين، وهو غير مستعمل في اللغة أيضاً، لأنه يقال: ضلله إذا سمَّاه ضالاً ولا يقال: أضله إذا سماه ضالاً، ولكن معناه ما ذكره المفسرون أنه يخذل به كثيراً من الناس مجازاة لكفرهم.. ثم قال تعالى: {وَما يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفاسِقِينَ} أي وما يهلك به وأصل الضلالة الهلاك؛ ففي اللغة يقال: ضلّ الماء في اللبن إذا صار ذاب فيه وهلك. والمعنى: وما يهلك بمثل هذا المثل، وما يخذل به، إلا الفاسقين، وأصل الفسق في اللغة هو: الخروج عن الطاعة، والعرب تقول: فسقت الرطبة إذا خرجت من قشرها ويقال للفأرة: فويسقة، لأنها تخرج من الجحْر وقال الله تعالى {فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ} [الكهف: 50] أي خرج عن طاعة ربه]انتهى ([[98]](#footnote-98)).

يقول العلامة البيضاوي:

[ {الْفاسِقِينَ} أي الخارجين عن حد الإيمان، كقوله تعالى: {إِنَّ الْمُنافِقِينَ هُمُ الْفاسِقُونَ} من قولهم: فسقت الرُطَبة عن قشرها إذا خرجت. وأصل الفسق: الخروج عن القصد..

والفاسق في الشرع: الخارج عن أمر الله بارتكاب الكبيرة، وله درجات ثلاث:

الأولى: التغابي وهو أن يرتكبها أحياناً مستقبحاً إياها.

الثانية: الانهماك وهو أن يعتاد ارتكابها غير مبالٍ بها.

الثالثة: الجحود وهو أن يرتكبها مستصوباً إياها (ومستحلا لها)، فإذا شارف هذا المقام وتخطى خططه خلع ربقة الإيمان من عنقه، ولابس الكفر. وما دام هو في درجة التغابي أو الانهماك فلا يسلب عنه اسم المؤمن لاتصافه بالتصديق الذي هو مسمى الإيمان.. والمعتزلة لما قالوا: الإيمان: عبارة عن مجموع التصديق والإقرار والعمل، والكفر تكذيب الحق وجحوده. جعلوه قسماً ثالثاً نازلاً بين منزلتي المؤمن والكافر لمشاركته كل واحد منهما في بعض الأحكام ( أقول – محرره -: ولكن المعتزلة حكموا عليه بالخلود في النار مثل قول الخوارج وهذا مخالف للحق الذي قرره البيضاوي بتفصيله رحمه الله تعالى).] انتهى ([[99]](#footnote-99))

وزيادة لهذا التفصيل نقول: أجمع علماء السنة والجماعة أن الإيمان اعتقادٌ وتصديقٌ وإقرارٌ بالقلب؛ وقولٌ باللسان؛ وعملٌ بالقلب والجوارح.. ومن هنا كان أصل الايمان عند اهل السنة والجماعة هو اعتقاد القلب وتصديق العمل لهذا الاعتقاد.. فإذا ما ترك مسلمٌ العمل بالكلية واعتقد عدم قيمته خرج من الايمان بالكلية حتى يتوب.. وإن اعتقد بقلبه ان العمل من الدين وعصى بجوارحه وفعل الذنوب والكبائر.. فالذنوب في حاله نوعان: نوع من الذنوب المُكفِّرة تقدح في أصول الايمان فيكْفُر المرء بها؛ مثل سب الدين أو سب الله أو الرسول أو الاستهزاء بهما أو الاستهزاء بالدين والقرآن أو تولي الكفار ومساعدتهم على المسلمين؛ أو استحلال الكبائر بقلبه معتقدا حلها كمَن يستحل الحكم بغير ما أنزل الله تعالى ويرى الحكم الوضعي البشري أكمل أو مساوٍ لحكم الله ورسوله... وما إلى ذلك؛ فهذه كلها ذنوبٌ تجحد أصل ادعاء الايمان وتخرج لدائرة الكفر؛ وإن اختلفنا في تكفير الشخص المعين بها إلا بعد انتفاء الموانع التي تمنع إطلاق اسم الكفر عليه من الجهل، والتأويل بعد البيان، والخطأ، والنسيان والإكراه...

وأما النوع الآخر من الذنوب هى الذنوب غير المُكفِّرَة والتي لا تقدح في أصول الايمان ولا يصر عليها صاحبها فهو على قدرٍ من الايمان بقدر فعله لأمر الله وقدر تركه لما نهى الله عنه.. وهذا إيمانه يزيد وينقص؛ فإن لقى الله بكبيرة لم يتب منها فهو في ذمة الله ومشيئته إن شاء عذبه وإن شاء عفا عنه، فإن مات على التوحيد مع ذنوبه وإن كثرت ولم تفك عقد الإيمان؛ فقد صحت الأحاديث في إخراجه من النار إن دخلها لتنقيته من الذنوب ودخوله الجنة.. وفي هذا يكون الجمع بين الأدلة والآيات والآثار؛ وهو منهج أهل الوسطية في الدين والحق من سلف المؤمنين.

وههنا يكون أهل السنة وسط بين ( المرجئة) الذين يجعلون الايمان مجرد التصديق لا ينقصه ذنب وإن عظم، ولا تضر معه الكبائر مادام القلب مسلما (كما يزعمون) فلا زيادة فيه ولا نقصان.. ولازم هذا أن يكون إيمان أشد الناس فسقاً كإيمان أبي بكر الصديق وعمر رضى الله عنهما وهذا لا يسيغه عاقل..

ويكون اعتقاد أهل السنة أيضاً غير المتنطعين من الخوارج والمعتزلة الذين يجعلون الإيمان هو العمل، ففاعل الكبيرة عندهم ليس بمؤمنٍ (على الإطلاق) وهو مخلد في النار إلا أن الخوارج قالوا: هو كافر عليه في الدنيا والآخرة أحكام الكفار، والمعتزلة قالوا: هو فاسق ومنزلةٌ بين المؤمن والكافر في الدنيا.. وهو في الآخرة مخلد في النار.

* وحين النظر إلى العدول عن الكافرين، والتعبير عنهم بالفاسقين..

فقد كان المتوقع أن يكون الجواب هكذا: « وما يضلّ به إلّا الكافرين ».. ولكن لكلام اللّه حساب غير هذا الحساب، وتقدير فوق هذا التقدير، فجاءت فاصلة الآية هكذا: { وَ ما يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفاسِقِينَ }.. والفسق معناه في اللغة: الخروج، يقال: فسق وانفسق الرّطب عن قشره: أي خرج. والكافر فاسق وكذلك المنافق والمشرك، لأنه خرج عن طريق الهدى والإيمان، وركب طريق الضّلال والكفر، خرج عن فطرته التي فطره اللّه عليها، ونقض الميثاق الذي واثقه اللّه عليه[[100]](#footnote-100).. وارتاب في الحق بعدما عرفه واستنار به ثم داهمته ظلمات نفاقه؛ وكما في سورة المدثر - من قول الله:{ وليقولَ الذينَ في قلوبهمْ مَرَضٌ والكافرونَ ماذا أرَاد الله بهذا مثلا. كذلك يُضلّ اللهُ مَن يشاءُ ويهدي من يشاء}.. وإنه من الدقة الراقية في الأداء القرآني هذا الوصف بأنهم فاسقين.. خصوصا في مثل هذا الموضع الذي يتعانق فيه المعنى اللغوي والشرعي للكلمة؛ وقد روعى فيها قصد المنافقين المرتابين في كتاب الله تعالى كما قال أبو جعفر الطبري: وقوله "وأما الذين كفرُوا"، يعني الذين جحدوا آيات الله، وأنكرُوا ما عرفوا، وستروا ما علموا أنه حق، وذلك صفةُ المنافقين، وإياهم عَنَى الله جلّ وعز - ومن كان من نظرائهم وشركائهم من المشركين من أهل الكتاب وغيرهم - بهذه الآية.

* وقوله تعالى: { يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا } إن قلت: لم وُصف المهديون بالكثرة وهم القلة في هذه الدنيا، { وَقَلِيلٌ مّنْ عِبَادِىَ الشكور } ( سبأ: 13 )، { وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ } ( ص: 24 ). وقوله (ص) «الناس كإبل مائة لا تكاد تجد فيها راحلة» متفق عليه؟

قلت: أهل الهدى كثير في أنفسهم، وحين يوصفون بالقلة إنما يوصفون بها بالقياس إلى أهل الضلال. وأيضاً فإنّ القليل من المهديين كثير في الحقيقة وإن قلّوا في الصورة، فسمّوا ذهاباً إلى الحقيقة كثيراً كما قال الشاعر:

إنَّ الكِرَام كثيرٌ في البِلادِ وإن... قَلُّوا، كَمَ غَيْرُهُمْ قَلٌّ وإنّ كَثُروا ] ا.ه. من تفسير الزمخشري ([[101]](#footnote-101))



* لبعض المفسرين في حروف القرآن رأى تكذِّبه بلاغة القرآن وفصاحة كلام الله تعالى ودقة ادائه لمعانيه.. يرون أن بعض هذه الحروف زيادة لتأكيد المعنى ويقولون عنها ( صلة للكلام أو تطولا فيه) وهذا ما سنرده بعون الله على مدى تدبرنا لكتاب الله تعالى..

فههنا نرى معنى {ما} في قوله تعالى {يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها}.. وفيها أقوال نوجزها ببساطة:

الأول: انها صلة الكلام (= زائدة) وهو كما سنبين لا يتفق مع إعجاز القرآن وبلاغته.. ويكون معنى الكلام: إن الله لا يستحيي أن يضربَ بعوضةً مثلا فما فوقها..[[102]](#footnote-102)؛ وهى ك{ما} كالتي في قوله: { فبما نقضهم ميثاقهم } [ النساء: 155 ] بمعنى: (فبنقضهم ميثاقهم).. ولنتأمل النظم - على كونها صلة الكلام - فإن الكلام لا يستقيم بغيرها وتهوي فصاحته وتهن بلاغته من دونها، كأنه قيل: لا يستحيي أن يضرب مثلاً حقاً.. أو كأنه قيل: لا يستحي البتة أن يضرب مثلا.. ف {ما} في هذه الآية ليست زائدةً بحال.. ومثلها في قوله تعالى: { فبما رحمة من الله لنت لهم} ( أى فبرحمةٍ عظيمةٍ من الله لنت لهم)؛ فأفادت (ما) هنا ما لم يفيده الكلام بدونها.

الثاني: أن تكون بمعنى "الذي" الموصولة، لأن معنى الكلام: إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلاً الذي هو بعوضةً في الصغر والقِلة فما فوقها.. فحذف صدر الجملة ( هو )كما حذف في قوله تعالى: { تَمَامًا عَلَى الذي أَحْسَنَ } [ الأنعام: 154 ] ( أى تماما على الذي هو أحسن )...[[103]](#footnote-103)

الثالث: ذكره الزمخشري في تفسيره الكشاف: أن تكون { ما } هذه إبهامية = للإبهام؛ وهي التي إذا اقترنت باسم نكرة أبهمته إبهاماً وزادته عموماً في المعنى، كقولك: أعطني كتاباً مّا، تريد: أعطني أيّ كتاب كان.

الرابع: فأن تجعل المعنى على: إن الله لا يستحيى أن يضرب مثلا ما بين بعوضة إلى ما فوقها..قال الطبري: ثم حذف ذكر "بين" و"إلى"، إذ كان في نصب البعوضة ودخول الفاء في "ما" الثانية، دلالة عليهما، كما قالت العرب: "له عشرون ما ناقةً فجملا". وكذلك يقولون في كل ما فيه حسنٌ وبلاغة من الكلام[[104]](#footnote-104).

الخامس: قاله الزمخشري من باب تتبع فقه لغة العرب يقول: ووجه آخر حسن جميل، وهو أن تكون (ما) التي فيها معنى الاستفهام، لما استنكفوا من تمثيل الله لأصنامهم بالمحقرات قال: إنّ الله لا يستحيي أن يضرب للأنداد ما شاء من الأشياء المحقّرة مثلاً، بله البعوضة فما فوقها، كما يقال فلان لا يبالي بما وهب ما دينار وديناران.. ( كأنه قيل: وما يضير دينار وديناران) والمعنى: أن لله أن يتمثل للأنداد وحقارة شأنها بما لا شيء أصغر منه وأقل.

وهكذا نعلم ما في{ما} هذه من البلاغة والدقة في التعبير ما لا يدركه إلا من عرف لغة العرب وبلاغتها وعظمة القرآن وحفظه لأصول اللغة وفصاحتها وبيانها.. اللهم زدنا فهما في كلامك وتدبرا لكتابك.



وقد ذكر الشيخ العثيمين رحمه الله تعالى في تفسيره من فوائد هذه الآية:

(1): إثبات الحياء لله عزّ وجلّ؛ لقوله تعالى: ( إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلاً ما ). ووجه الدلالة: أن نفي الاستحياء عن الله في هذه الحال دليل على ثبوته فيما يقابلها؛ وقد جاء ذلك صريحاً في السنة، كما في قول النبي صلى الله عليه وسلم: "إن ربكم حييّ كريم يستحيي من عبده إذا رفع يديه إليه أن يردهما صِفراً"؛ والحياء الثابت لله ليس كحياء المخلوق؛ لأن حياء المخلوق انكسار لما يَدْهَمُ الإنسان ويعجز عن مقاومته؛ فتجده ينكسر، ولا يتكلم، أو لا يفعل الشيء الذي يُستحيا منه؛ وهو صفة ضعف ونقص إذا حصل في غير محله...

(2): أن الله تعالى يضرب الأمثال؛ لأن الأمثال أمور محسوسة يستدل بها على الأمور المعقولة؛ انظر إلى قوله تعالى: {مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً} (العنكبوت: 41)؛ وهذا البيت لا يقيها من حَرّ، ولا برد، ولا مطر، ولا رياح {وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت} (العنكبوت: 41)؛ وقال تعالى: {والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه} (الرعد: 14): إنسان بسط كفيه إلى غدير مثلاً، أو نهر يريد أن يصل الماء إلى فمه! هذا لا يمكن؛ هؤلاء الذين يمدون أيديهم إلى الأصنام كالذي يمد يديه إلى النهر ليبلغ فاه؛ فالأمثال لا شك أنها تقرب المعاني إلى الإنسان إما لفهم المعنى؛ وإما لحكمتها، وبيان وجه هذا المثل.. ومنها: رحمة الله تعالى بعباده حيث يقرر لهم المعاني المعقولة بضرب الأمثال المحسوسة لتتقرر المعاني في عقولهم...

(3 ): أن البعوضة من أحقر المخلوقات؛ لقوله تعالى: { بعوضة فما فوقها }؛ ومع كونها من أحقر المخلوقات فإنها تقض مضاجع الجبابرة؛ وربما تهلك؛ لو سُلطت على الإنسان لأهلكته وهي هذه الحشرة الصغيرة المهينة...

(4 ): أن القياس حجة؛ لأن كل مثل ضربه الله في القرآن، فهو دليل على ثبوت القياس...

(5): فضيلة الإيمان، وأن المؤمن لا يمكن أن يعارض ما أنزل الله عزّ وجلّ بعقله؛ لقوله تعالى: {فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم}، ولا يعترضون، ولا يقولون: لِم؟، ولا: كيف؟؛ يقولون: سمعنا، وأطعنا، وصدقنا؛ لأنهم يؤمنون بأن الله عزّ وجلّ له الحكمة البالغة فيما شرع، وفيما قدر...

(6): إثبات الربوبية الخاصة؛ لقوله تعالى: { من ربهم }؛ واعلم أن ربوبية الله تعالى تنقسم إلى قسمين: عامة؛ وخاصة؛ فالعامة هي الشاملة لجميع الخلق، وتقتضي التصرف المطلق في العباد؛ والخاصة هي التي تختص بمن أضيفت له، وتقتضي عناية خاصة؛ وقد اجتمعتا في قوله تعالى: {قالوا آمنا برب العالمين \* رب موسى وهارون} (الأعراف: 121، 122): فالأولى ربوبية عامة؛ والثانية خاصة بموسى، وهارون؛ كما أن مقابل ذلك "العبودية" تنقسم إلى عبودية عامة، كما في قوله تبارك وتعالى: {إن كل من في السموات والأرض إلا آتي الرحمن عبداً} (مريم: 93)؛ وخاصة كما في قوله تعالى: {تبارك الذي نزل الفرقان على عبده} (الفرقان: 1)؛ والفرق بينهما أن العامة هي الخضوع للأمر الكوني؛ والخاصة هي الخضوع للأمر الشرعي؛ وعلى هذا فالكافر عبد لله بالعبودية العامة؛ والمؤمن عبد لله بالعبودية العامة، والخاصة..

(7): أن ديدن الكافرين الاعتراض على حكم الله، وعلى حكمة الله؛ لقوله تعالى: { وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلًا }؛ وكل من اعترض ولو على جزء من الشريعة ففيه شبه بالكفار؛ فمثلاً لو قال قائل: لماذا ينتقض الوضوء بأكل لحم الإبل، ولا ينتقض بأكل لحم الخنزير إذا جاز أكله للضرورة مع أن الخنزير خبيث نجس؟ فالجواب: أن هذا اعتراض عل حكم الله عزّ وجلّ؛ وهو دليل على نقص الإيمان؛ لأن لازم الإيمان التام التسليم التام لحكم الله عزّ وجلّ. إلا أن يقول ذلك على سبيل الاسترشاد، والاطلاع على الحكمة؛ فهذا لا بأس به..

(8) ومن فوائد الآية: أن لفظ الكثير لا يدل على الأكثر؛ لقوله تعالى: { يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً }؛ فلو أخذنا بظاهر الآية لكان الضالون، والمهتدون سواءً؛ وليس كذلك؛ لأن بني آدم تسعمائة وتسعة وتسعون من الألف ضالون؛ وواحد من الألف مهتدٍ؛ فكلمة: { كثيراً } لا تعني الأكثر؛ وعلى هذا لو قال إنسان: عندي لك دراهم كثيرة، وأعطاه ثلاثة لم يلزمه غيرها؛ لأن "كثير" يطلق على القليل، وعلى الأكثر..

(9): أن إضلال من ضل ليس لمجرد المشيئة؛ بل لوجود العلة التي كانت سبباً في إضلال الله العبد؛ لقوله تعالى: { وما يضل به إلا الفاسقين }؛ وهذا كقوله تعالى: {فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين} (الصف: 5).

(10): الرد على القدرية الذين قالوا: إن العبد مستقل بعمله. لا علاقة لإرادة الله تعالى به؛ لقوله تعالى: ( وما يضل به إلا الفاسقين )..)انتهى.

# وعودة للتوحيد دائماً ( الآيات 28، 29)

قال الله تعالى: {كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (28) هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (29)}

جاء في تفسير المنار: الْكَلَامُ مُتَّصِلٌ بِمَا قَبْلَهُ وَمُرْتَبِطٌ بِهِ ارْتِبَاطًا مُحْكَمًا، و َالْخِطَابُ لِلْفَاسِقِينَ الَّذِينَ يَضِلُّونَ بِذلك الْمَثَلِ المضروب من قبل (مثل البعوضة)؛فَإِنَّهُ وَصَفَهُمْ أَوَّلًا بِنَقْضِ الْعَهْدِ الْإِلَهِيِّ الْمُوَثَّقِ، و َقَطْعِ ما أمر بِهِ سُبْحَانَهُ أَنْ يُوصَلَ، ثُمَّ بَعْدِ هَذَا الْبَيَانِ جَاءَ بِهَذَا الِاسْتِفْهَامِ التَّعَجُّبِيِّ عَنْ صِفَةِ كُفْرِهِمْ مُقْتَرِنًا بِالْبُرْهَانِ النَّاصِعِ عَلَى أَنَّهُ لا وجه لَهُ وَلَا شُبْهَةَ تُسَوِّغُ الْإِقَامَةَ عَلَيْهِ..ا.ه.([[105]](#footnote-105))

إن الكفر بالله في مواجهة هذه الأدلة الدامغة والنعم التي لا تحصى لأمر يدعو إلى العجب والدهشة، إن القرآن يواجه البشر بما لا محيص لهم من الاعتراف به، لقد كانوا أمواتا فأحياهم، فمن الذي أنشأ لهم هذه الحياة؟! من أين جاءت هذه الحياة التي تموج بها الأرض والتي تتميز بها عما عداها من الموات؟ لقد جاءت من عند الله، هذا هي الإجابة التي يرتضيها العقل، وتتماشى معها الفطرة السليمة، وإلا فنقول لمن يأبى التسليم بهذه الحقيقة: أين الجواب؟ إن القرآن الكريم في هذه الكلمات الموجزات يفتح سجل الحياة كله ويطويه: من همود الموت أول مرة، إلى الحياة في الأرض ثم الموت مرة أخرى، ثم الحياة كرة أخرى للحساب والجزاء. ثم يمضي بنا السياق القرآني متحدثا عن غاية الوجود الإنساني وعن دوره العظيم في الأرض: { هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً}.. إن كلمة {لكم} ذات دلالةٍ عميقةٍ على أن الإنسان خلق لأمر عظيم، خلق ليكون مستخلفا في الأرض، ليكون المالك والسيد لهذا الميراث الواسع، وكل قيمة من القيم المادية لا يجوز أن تطغى على قيمة الإنسان وتذله وتخضعه، فكرامة الإنسان أولا واستعلاء الإنسان أولا ثم تجيء القيم المادية تابعة مُسَخَّرَة.

{كيف تكفرون بالله}: الاستفهام هنا للتعجب مع التقريع والتوبيخ. لعدم وجود مقتض للكفر.

{وكنتم أمواتاً فأحياكم}: هذا برهان على بطلان كفرهم, إذ كيف يكفر العبد ربه وهو الذى خلقه بعد أن لم يكن شيئا.. قال ابن كثير: أي: قد كنتم عدما فأخرجكم إلى الوجود، كما قال تعالى: { أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون، أم خلقوا السماوات والأرض بل لا يوقنون } ( الطور: 35، 36)، والآيات في هذا كثيرة.. عن ابن عباس: ( كنتم أمواتا فأحياكم ) أمواتا في أصلاب آبائكم، لم تكونوا شيئا حتى خلقكم، {ثم يميتكم} موتة الحق، {ثم يحييكم} حين يبعثكم..إن إماتة الحى واحياء الميت كلاهما دالٌ على وجود الرب تعالى وقدرته.

وعبر عن الحال قبل الوجود بالموت بجامع ما يشتركان فيه من عدم الإحساس، كما قال في الأصنام: {أموات غير أحياء } ( النحل: 21 )، وقال؟{وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون } ( يس: 33 ).

{ثم إليه ترجعون}: إِلَى الله مصيركم.. يريد بعد الحياة الثانية وهو البعث الآخر...تُرَدُّونَ في الآخرة فيجزيكم بِأَعْمَالِكُمْ..

قلتُ: وفي هذه الآية أسلوب آخر من أساليب تقرير مهمات العقيدة في القرآن العظيم.. ففي هاتين الآيتين استدل على فساد الشرك وحقيقة التوحيد بالفطرة والمسلمات التي لا يجادل فيها عاقل ثم انتقل منها إلى إثبات عقيدة التوحيد وفيها إثبات البعث والجزاء.. قال ابن جزي: هذه الآية في معرض الردّ على الكفار، وإقامة البرهان على بطلان قولهم، فإن قيل: إنما يصح الاحتجاج عليهم بما يعترفون به، فكيف يحتج عليهم بالبعث وهم منكرون له؟

فالجواب أنه ألزموا من ثبوت ما اعترفوا به من الحياة والموت ثبوت البعث، لأن القدرة صالحة لذلك كله. ([[106]](#footnote-106))..قال ابن القيم: فهذا استدلال قاطع على أن الإيمان بالله أمر مستقر في الفطر والعقول وأنه لا عذر لأحد في الكفر به البتة، فذكر تعالى أربعة أمور، ثلاثة منها مشهودة في هذا العالم، والرابع منتظر موعود به وعد الحق:

الأول: كونهم كانوا أمواتاً لا أرواح فيهم بل نطفاً وعلقاً ومضغة مواتاً لا حياة فيها.

الثاني: أنه تعالى أحياهم بعد هذه الإماتـة.

الثالث: أنه تعالى يميتهم بعد هذه الحياة.

الرابع: أنه يحييهم بعد هذه الإماتة فيرجعون إليه، فما بال العاقل يشهد الثلاثة الأطوار الأول، ويكذب بالرابع، وهل الرابع إلا طور من أطوار التخليق...قلت: فجاء البرهان مترابطا تأخذ كل حقيقة فيه بعنق الأخرى وتزرعها نبتاً قويا في الوجدان والشعور ([[107]](#footnote-107))..

يقول العلامة السعدي:

{هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الأرْضِ جَمِيعًا} أي: خلق لكم، بِرَّاً بكم ورحمة، جميع ما على الأرض، للانتفاع والاستمتاع والاعتبار.

وقوله: {ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}.

{اسْتَوَى} ترد في القرآن على ثلاثة معاني: فتارة لا تعدى بالحرف، فيكون معناها، الكمال والتمام، كما في قوله عن موسى: {وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى} (أى كمل وتم خلقه وعقله)..

وتارة تكون بمعنى "علا "و "ارتفع "وذلك إذا عديت بـ "على "كما في قوله تعالى: {ثم استوى على العرش}، وقوله{الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى }، وقوله {لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ}..

وتارة تكون بمعنى "قصد "كما إذا عديت بـ "إلى "كما في هذه الآية، أي: لما خلق تعالى الأرض، قصد إلى خلق السماوات {فسواهن سبع سماوات} فخلقها وأحكمها، وأتقنها، {وهو بكل شيء عليم} فـ {يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها} و {يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ} يعلم السر وأخفى.

وكثيرا ما يقرن سبحانه بين خلقه الخلق وإثبات علمه كما في هذه الآية، وكما في قوله تعالى: {أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ} لأن خلقه للمخلوقات، أدل دليل على علمه، وحكمته، وقدرته ] انتهى([[108]](#footnote-108)).

# نكتٌ[[109]](#footnote-109) بلاغية ومعنوية

* قولـه تعالى {كَيْفَ تَكْفُرُونَ بالله}.. في التعبير ب {كيف} قولان:

أحدهما: أنه استفهام في معنى التعجب، وهذا التعجب للمؤمنين، أي: اعجبوا من هؤلاء كيف يكفرون، وقد ثبتت حجة اللـه عليهم، قالـه ابن قتيبة والزجاج.

والثاني: أنه استفهام خارج مخرج التقرير والتوبيخ. تقديره: ويحكم كيف تكفرون باللـه؟ٰ قالـه ابن الانباري.

وهو من باب (الالتفات) للتوبيخ والتقريع، فقد كان الكلام بصيغة الغيبة ثم التفت فخاطبهم بصيغة الحضور، وهو ضرب من ضروب البلاغة وتنويع الخطاب دفعاً للرتابة. أى: كيف تكفرون بِاللَّه بعد نصب الدَّلَائِل ووضوح الْبَرَاهِين؟ !.. قال الزمخشري: ومثله في قولك: أتكفرون باللَّه ومعكم ما يصرف عن الكفر ويدعو إلى الإيمان؟..

* وفي الحياتين، والموتتين أقوال:

أصحها: أن الموتة الأولى، كونهم نطفا وعلقا ومضغا، فأحياهم في الأرحام ثم يميتهم بعد خروجهم الى الدنيا، ثم يحييهم للبعث يوم القيامة، وهذا قول ابن عباس وقتادة و مقاتل والفراء وثعلب، والزجاج، وابن قتيبة، وابن الانباري.

* وفي قوله تعالى: {هُوَ الَّذِي خلق لكم مَا فِي الأَرْض جَمِيعًا} قال الخازن: لتنتفعوا به في مصالح الدين والدنيا؛ أما مصالح الدين فهو الاعتبار والتفكر في عجائب مخلوقات الله تعالى الدالة على وحدانيته، وأما مصالح الدنيا فهو الانتفاع بما خلق فيها.

قال ابن عطية: و{لَكُمْ}: معناه للاعتبار، ويدل على ذلك ما قبله وما بعده من نصب العبر: الإحياء، والإماتة، والخلق، والاستواء إلى السماء وتسويتها..

واستدل بالآية بعض علماء أصول الفقه أن كل ما في الأرض من مطاعم ومشارب وملابس ومراكب مباحٌ.. الأصل فيه الإباحة إلا ما حرمه الدليل الحاصر من الكتاب أو السنة لقوله: {خلق لكم ما في الأرض جميعا}.. وللأمانة العلمية فإن في هذا الاستدلال خلاف مشهور.

{ثمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء} قَالَ ابْن عَبَّاس وَأكْثر الْمُفَسّرين من السّلف: أَي ارْتَفع وَعلا إِلَى السَّمَاء. وَقَالَ الْفراء وَابْن كيسَان وَجَمَاعَة من النَّحْوِيين مَعْنَاهُ: أقبل على خلق السَّمَاء؛ لِأَنَّهُ خلق الأَرْض أَولا، ثمَّ أقبل على خلق السَّمَاء، كَمَا ذكر فِي " حم السَّجْدَة ". {فسواهن سبع سموات} أي: هيأهن وخلقهن ودبرهن وقومهن، والتسوية في كلام العرب التقويم والإصلاح والتوطئة، وهذا يدل على كمال خلق السموات:كما قال تعالى (وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً )..

هذه الآية تدل على أن خلق الأرض قبل خلق السماء بدليل لفظة " ثم" التي هي للترتيب والانفصال؛وكذلك آية حم السجدة تدل أيضا على خلق الأرض قبل خلق السماء لأنه قال فيها {قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (9) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ (10) ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (11) } (فصلت: 9 – 11)

فما الجواب عن قوله تعالى { وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا }. دحاها: يعني بسطها ومهدها وهذا قول الأكثر ).

الجواب: دحيت الارض بعد خلق السموات.. وفي صحيح البخاري: أن ابن عباس سئل عن هذا بعينه، فأجاب بأن الارض خلقت قبل السماء وأن الأرض إنما دحيت بعد خلق السماء، وكذلك أجاب غير واحد من علماء التفسير قديما وحديثا وقد حررناه وحاصل ذلك أن الدحي مفسر بقوله تعالى: { أخرج منها ماءها ومرعاها والجبال أرساها } ففسر الدحي بإخراج ما كان مودعا فيه بالقوة إلى الفعل لما أكملت صورة المخلوقات الأرضيه ثم السماوية دحى بعد ذلك الارض؛ فأخرجت ما كان مودعا فيها من المياه؛ فنبتت النباتات على اختلاف أصنافها وصفاتها وألوانها وأشكالها، وكذلك جرت هذه الأفلاك، فدارت بما فيها من الكواكب الثوابت والسيارة.. والله سبحانه وتعالى أعلم.

# من مباحث العقيدة: إثبات صفة العلم لله تعالى

في هذه الآية إثبات صفة العلم لله سبحانه..

معنى الإيمان بما وصف الله تعالى بِهِ نَفْسَهُ وَوَصَفَهُ بِهِ رَسُولُهُ - صَلَّى اللَّهُ عليه وسلم - من الأسماء الحسنى والصفات العلى وإمرارها كما جاءت (وليس معنى إمرارها كما جاءت، تركها بدون معرفة معناها، فهذا مذهب المفوضة، وفيه اتهام للرسول - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه أنهم كانوا يقرءون كلاماً لا يفهمونه كما لو كان أعجمياً، ولكن المراد إمرارها كما جاءت بلا كيف مع إثبات الصفة، فقوله تعالى - على سبيل المثال - {وهو السميع البصير} (الشورى:11) معناه مفهوم، وهو إثبات السمع والبصر لله تعالى ولكن دون تكييف.).

\*تنبيهان:

أ-أسماء الله تعالى توقيفية، أي أنه ليس كل فعل يتعلق بالله يشتق له منه اسم إلا ما أثبته الله تعالى لِنَفْسِهِ وَأَثْبَتَهُ لَهُ رَسُولُهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلم -.

مثال: قوله تعالى: {ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم..} فإنه لا يجوز اشتقاق اسم الذاهب على أنه اسم له تعالى ما دام أن الله لم يذكر ذلك اسماً له في كتابه، ولم يذكره رسوله - صلى الله عليه وسلم -.

ب-ورد في القرآن أفعال أطلقها الله على نفسه على سبيل الجزاء والعدل والمقابلة، وهي فيما سيقت له مدح وكمال، ولكن لا تطلق عليه عز وجل مجردة بدون ذكر ما تتعلق به..

مثال قوله تعالى: {ويمكرون ويمكر الله..}، وقوله تَعَالَى: {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ..}، وقوله تعالى: {الله يستهزئ بهم..} فلا يقال أنه سبحانه يمكر ويستهزئ ويخادع، ومن باب أولى لا يقال أن من أسمائه الماكر والمخادع و.. تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، لكن يصح أن يقال أنه تعالى يمكر بالكافرين، ويستهزئ بالمنافقين... وهكذا في كل ما ذكره الله تعالى عن نفسه من اسم أو فعل متعلقاً أو مقيداً بشيء، أو مقترناً بمقابله بحيث يوهم ذكره بدونه نقصاً لم يجز إطلاقه عليه تعالى مجرداً دون ذكر متعلقه، ومن ذلك قوله تعالى: {إنا من المجرمين منتقمون}، وقوله تعالى: {والله عزيز ذو انتقام} ولم يرد إطلاق المنتقم.

ومن ذلك المعطي المانع، والضار النافع، فلا يطلق على الله المانع الضار على الانفراد، بل لابد من ازدواجها بمقابلاتها، فإنها لم تطلق على الله في الوحي منفردة.

* دلالة الأسماء الحسنى في حق الله تعالى:

1-تدل على الذات مطابقة..

2-تدل على الصفات المشتقة تضمناً، وهذه أربعة أقسام:

\*الأول: الاسم العلم (الله) المتضمن لجميع معاني الأسماء.

\*الثاني: ما يتضمن صفة ذات كاسمه (السميع).

\*الثالث: ما يتضمن صفة فعل كاسمه (الخالق).

\*الرابع: ما يتضمن تنزهه تعالى وتقدسه عن النقائص والعيوب، مثل: (القدوس) و (السلام).

3-تدل على الصفات غير المشتقة التزاماً.

مثال: دلالة اسْمِهِ تَعَالَى (الرَّحْمَنِ) عَلَى ذَاتِهِ عَزَّ وَجَلَّ مطابقة، وعلى الرحمة تضمناً، وعلى صفة الحياة والوجود والقيومية والإرادة وغيرها التزاماً.

أما أسماء غيره تعالى فلا تدل على الذات، فقد يسمى الرجل حكيماً وهو جاهل، وعزيزاً وهو حقير.. أما الله تعالى فلا يُخَالِفُ اسْمٌ لَهُ صِفَتَهُ وَلَا صِفَتُهُ اسْمًا. انتهى ([[110]](#footnote-110))

قال العلامة السعدي: واعلم أن من القواعد المتفق عليها بين سلف الأمة وأئمتها، الإيمان بأسماء الله وصفاته، وأحكام الصفات.. فيؤمنون مثلا بأنه رحمن رحيم، ذو الرحمة التي اتصف بها، المتعلقة بالمرحوم. فالنعم كلها، أثر من آثار رحمته، وهكذا في سائر الأسماء. يقال في العليم: إنه عليم ذو علم، يعلم به كل شيء، وقدير، ذو قدرة يقدر على كل شيء..([[111]](#footnote-111))

وأهل السنة يثبتون لله تعالى ما أثبته في كتابه وعلى لسان رسوله.. بلا تمثيل ولا تأويل؛ فكما أن ذاته العلية لا تشبهها ذات؛ فكذلك صفاته لا تشبهها، ولا تدانيها الصفات..{ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير}...

يقول الدكتور عمر الأشقر([[112]](#footnote-112)):

ونعلم أن الله - سبحانه - متصف بصفة العلم، وقد سمى نفسه - سبحانه - بعدة أسماء تفيد هذه الصفة، منها (العليم) (إنَّه هو السَّميع العليم) (الشعراء: 220)، ومنها: (الخبير) ويختص بأن يعلم ما يكون قبل أن يكون. ومنها (الحكيم) ويختص بأن يعلم دقائق الأوصاف. ومنها: (الشهيد) ويختص بأن يعلم الغائب والحاضر. ومعناه أنّه لا يغيب عنه شيء. ومنها (الحافظ) ويختص بأنّه لا ينسى ما علم. ومنها (المحصي) ويختص بأنه لا تشغله الكثرة عن العلم مثل ضوء النور، واشتداد الريح، وتساقط الأوراق، فيعلم عند ذلك عدد أجزاء الحركات في كل ورقة.

وعلمه تعالى شامل للكليات والجزئيات:

فقد زعم الفلاسفة أنّ الله يعلم الكليات، ولا يعلم الجزئيات، وكذبوا في قولهم، فعلم الله محيط شامل لا تخفى عليه خافية من الأرض، ولا في السماء، يعلم كل حركة في برّ أو بحر، فما من ورقة تسقط من شجرة، أو حبّة تندثر في الرمال، أو نبتة صغيرة تشق الأرض، أو نبتة تيبس أو تموت إلا وعلم الله محيط بها (ويعلم ما في البرّ والبحر وما تسقط من ورقةٍ إلاَّ يعلمها ولا حبَّةٍ في ظُلُمَاتِ الأرض ولا رطبٍ ولا يابسٍ إلاَّ في كتاب مُّبينٍ) (الأنعام: 59).

وهذه الأعداد التي لا حصر لها من الدواب لا يخفى على الله منها شيء (وما من دابَّةٍ في الأرض إلاَّ على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كلٌ في كتابٍ مُّبينٍ) (هود: 6)، وليس من شيء يصل إلى الأرض، أو يصعد من الأرض إلى السماء إلا وقد أحاط الله به علماً (يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السَّماء وما يعرج فيها وهو الرَّحيم الغفور) (سبأ: 2).

وهذا الإنسان لا يخفى على الله منه شيء، فعلم الله به محيط يعلم عمله البادي الظاهر، ويعلم ما استكن في أعماق نفسه، (قل إن تخفوا ما في صدوركم أو تبدوه يعلمه الله) (آل عمران: 29)، (وهو الله في السَّماوات وفي الأرض يعلم سرَّكم وجهركم) (الأنعام: 3)، وهو علم محيط بالجزئيات من أمور الإنسان (وما تكون في شأنٍ وما تتلوا منه من قرآنٍ ولا تعملون من عملٍ إلاَّ كُنَّا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه) (يونس: 61).

وانظر إلى هذا العلم الذي لا تفلت منه الذرة الصغيرة (يا بنيَّ إنَّها إن تَكُ مثقال حبَّةٍ من خردلٍ فتكن في صخرةٍ أو في السَّماوات أو في الأرض يأت بها الله إنَّ الله لطيف خبيرٌ) (لقمان: 16).

لقد استوى في علم الله السرّ والعلانية، والصغير والكبير، والغيب والشهادة: (الله يعلم ما تحمل كلُّ أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد وكلُّ شيءٍ عنده بمقدارٍ - عالم الغيب والشَّهادة الكبير المتعال - سواءٌ منكم مَّن أسرَّ القول ومن جهر به ومن هو مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وسارب بالنَّهار) (الرعد: 8-10).

وصدق الله إذ يقول: (وما يعزب عن رَّبّك من مثقال ذرَّةٍ في الأرض ولا في السَّماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلاَّ في كتابٍ مُّبينٍ) (يونس: 61)..انتهى.

* أما عن الآثار المترتبة من علمنا بأن الله هو العليم سبحانه:-

أولاً: الخوف من الله وخشيته، ومراقبته في السر والعلن، لأن العبد إذا أيقن أن الله تعالى عالم بحاله مطلع على باطنه وظاهره، فإن ذلك يدفعه إلى الاستقامة على أمر الله ظاهراً وباطناً.

ثانياً: اليقين بشمول علم الله تعالى لكل شيء في السماوات والأرض، وللبواطن والظواهر، يثمر في قلب العبد تعظيم الله تعالى وإجلاله والحياء منه، كما يعين على التخلص من الآفات القلبية التي تخفى على الناس ولكنها لا تخفى على الله كآفة الرياء والحسد والغل والعجب والكبر.

قال ابن القيم: فإن قلت: فما السبيل إلى حفظ الخواطر، قلت: أسباب عدة، أحدها: العلم الجازم باطلاع الرب سبحانه ونظره إلى قلبك، وعلمه بتفصيل خواطرك، والثاني: حياؤك منه، والثالث: إجلالك له أن يرى مثل تلك الخواطر في بيته الذي خلق لمعرفته ومحبته.

ثالثاً: إن يقين العبد بعلم الله تعالى الشامل لكل شيء، ومن ذلك علمه سبحانه بحال عبده المصاب وما يقاسيه من الآلام، إن ذلك يثمر في القلب الرجاء والأنس بالله ويدفع اليأس والقنوط من القلب.

رابعاً: ونستفيد من معرفتنا أن الله عليم بكل شيء: وجوب مراقبة الله، لأن العاقل إذا علم أن الله سبحانه وتعالى يعلم كل شيء، فسوف يراقب ربه، بلسانه وجنانه وأركانه، فبلسانه: لا ينطق بما حرم الله، وبجنانه: لا يعتقد بقلبه خلاف الحق، وبجوارحه: لا يستعملها في المحرمات، فيستعمل العين في النظر إلى الحرام، ويستعمل اليد في البطش الحرام، ويستعمل الآذان في السماع الحرام.

وأيضاً نستفيد من معرفتنا أن الله عليم بكل شيء: الرغبة والنشاط والرجاء، لأن الإنسان يعلم أن الله يعلم بكل أعماله الصالحة، وأنه لن يضيع منها شيء.

# قصة الخليقة.. والصراع القديم بين الخير والشر ( الآيات 30-39)

يقول ربنا تبارك وتعالى:

{وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (30) وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (31) قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (32) قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (33) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (34) وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (35) فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (36) فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (37) قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (38) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (39) } [البقرة: 30-39]

# من نكت التدبر والتأمل لهذه الآيات

# عبقرية السياق القرآني

لقد خلق الله – تعالى - (آدم ) المسكين وكان أول جنس الإنسانية الفريد.. وُجد آدم وقد حفته أصابع الاتهام (الملائكي) بالإفساد والتخريب دون كامل درايةٍ بقلبه وعقله والحقيقة العظيمة التي خلقه الله لأجلها.. وُجد وقد قسا عليه قلب الحقد والحسد والتكبر (الإبليسي الشيطاني اللعين ) دون جنايةٍ منه إلا أنَّ الله تعالى أحبَّه وأكرمه.. لقد كان الوحيد من جنسه روحاً، وفكراً، وتركيباً، وسماتاً...

هذا المخلوق العجيب الذي خلقه الله تعالى { في أحسن تقويم} وخلق له { ما في الأرض جميعا} ليسير على نور الله تعالى فيعمر هذه الأرض ويرفع راية التوحيد ويزرع الحياة بالخير والجمال.. يعرفه ربه أنما خلقه لأمر عظيم فيقول له:{ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون}..{.. فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (38) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (39البقرة)}..

تأتي هذه القصة التي تمثل قصة الإنسانية في بدايتها، وقصة صراعها مع الشر إلى آخر الدهر.. تأتي هذه القصة في هذه الآيات معطوفةً على آيات خلق السماوات والأرض انْتِقَالًا بِالناس - والمكذّبين خاصةً –وترقياً بهم فِي الِاسْتِدْلَالِ عَلَى وحدانية الله تعالى، وَعَلَى بُطْلَانِ شِرْكِهِمْ.. وهو امتنانٌ من الله على خلقه بعد امتنان.. فالله الذي خلق الناس وخلق لهم ما في الأرض جميعا للانتفاع به والاعتبار هو سبحانه الذي يقص على الناس قصة خلق أبيهم على ما فيها من مراقي التكريم والتشريف لآدم وذريته.. ليتذكروا عظمة خالقهم لعلهم يعرفون الله تعالى ويعبدونه، ويتقونه حق التقوى، فكانت قصة أبي البشرية التي تذكّرنا كل وقتٍ بتكريم الله تعالى لنا في شخص آدم عليه السلام، وأنَّ من كان هذا شأنه لا يجوز له ولا ينبغي أن يهبط إلى مستنقعات الشرك ودركات عبادة الأدني وقد كرَّمه الله العلى الكبير..

وَكذلك كان هذا الانتقال في سياق الآيات من باب (حسن التخلص البلاغي الرائع) من ذكر خلق السماوات والأرض إلى ذكر خلق الإنسان الذي يسخَّر الله تعالى له الأرض لكي يقيم عبادته فيها ويعمرها.. وليزداد تشريف هذا النبى الأمي الكريم بتعليم الله إياه وأمته من كل العلوم في هذا القرآن العظيم الذي أنزله الله حافظاً خالدا لتاريخ الهداية الربانية عبر الأمم؛ وليكون دليل صدقٍ أمام الذين يدعون العلم من أهل الكتب السماوية قبل محمد صلوات الله عليه كما قال تعالى {وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (52) صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ( الشورى53)} وبذلك يتصل مداد الاستدلال على الوحدانية وكذا صدق القرآن والرسول، ومحاجة اهل الكتاب بعلومهم التي يدعون، وهو السياق العام لسورة البقرة الزهراء.

فَإِيرَادُ وَاوِ الْعَطْفِ هنا جاء مناسبا تماماً لموضعه من بدء واستئناف كلامٍ جديدٍ، وقصةٍ عظيمةِ الشأن في مسار البشرية وصراعها مع الشر الشيطاني عبر العصور، وكذلك ربط السياق في هذا الموضع بسياق الآيات قبله والسياق العام لسورة البقرة العظيمة، فتأمله فإنه موضع تدبرٍ شريف.

يقول العلامة الطبري في تفسيره: قَدْ ذَكَرْنَا فِيمَا مَضَى أَنَّ اللَّه جَلَّ ثَنَاؤُهُ خَاطَبَ الَّذِينَ خَاطَبَهُمْ بِقَوْلِهِ: { كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاَللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ } بِهَذِهِ الْآيَات وَاَلَّتِي بَعْدهَا مُوَبِّخهمْ مُقَبِّحًا إلَيْهِمْ سُوء فِعَالهمْ وَمَقَامهمْ عَلَى ضَلَالهمْ مَعَ النِّعَم الَّتِي أَنْعَمَهَا عَلَيْهِمْ وَعَلَى أَسْلَافهمْ , وَمُذَكِّرهمْ بِتَعْدِيدِ نِعَمه عَلَيْهِمْ وَعَلَى أَسْلَافهمْ، ومُحذّرهم بَأْسه أَنْ يَسْلُكُوا سَبِيل مَنْ هَلَكَ مِنْ أَسْلَافهمْ فِي مَعْصِيَة اللَّه , فَيَسْلُك بِهِمْ سَبِيلهمْ فِي عُقُوبَته ; وَمُعَرِّفهمْ مَا كَانَ مِنْهُ مِنْ تَعَطُّفه عَلَى التَّائِب مِنْهُمْ اسْتِعْتَابًا مِنْهُ لَهُمْ. فَكَانَ مِمَّا عَدَّدَ مِنْ نِعَمه عَلَيْهِمْ , أَنَّهُ خَلَقَ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْض جَمِيعًا , وَسَخَّرَ لَهُمْ مَا فِي السَّمَوَات مِنْ شَمْسهَا وَقَمَرهَا وَنُجُومهَا وَغَيْر ذَلِكَ مِنْ مَنَافِعهَا الَّتِي جَعَلَهَا لَهُمْ وَلِسَائِرِ بَنِي آدَم مَعَهُمْ مَنَافِع , فَكَانَ فِي قَوْله: { كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاَللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إلَيْهِ تُرْجَعُونَ } مَعْنَى: اُذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْت عَلَيْكُمْ , إذْ خَلَقْتُكُمْ وَلَمْ تَكُونُوا شَيْئًا , وَخَلَقْت لَكُمْ مَا فِي الْأَرْض جَمِيعًا , وَسَوَّيْت لَكُمْ مَا فِي السَّمَاء. ثُمَّ عَطْف بِقَوْلِهِ: { وَإِذْ قَالَ رَبّك لِلْمَلَائِكَةِ } عَلَى الْمَعْنَى الْمُقْتَضَى بِقَوْلِهِ: { كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاَللَّهِ } إذْ كَانَ مُقْتَضِيًا مَا وَصَفْت مِنْ قَوْله: اُذْكُرُوا نِعْمَتِيَ إذْ فَعَلْت بِكُمْ وَفَعَلْت , وَاذْكُرُوا فِعْلِي بِأَبِيكُمْ آدَم , إذْ قُلْت لِلْمَلَائِكَةِ إنِّي جَاعِل فِي الْأَرْض خَلِيفَة.انتهى.

أقول: لقد جاءت هذه الآيات بعد ذلك الخطاب الاستدلالي العميق الذي يخاطب الشعور والوجدان والعقل والمنطق.. ذلك الخطاب الذي ينادي بعودة الإنسان لفطرته وما تدعوه إليه جذور خلقته من توحيد ربه سبحانه.. ثم يجئ الخطاب لهذا الإنسان يذكِّره بقصة وجوده وخلقه ومكانته في هذا الكون وتكريمه الذي حباه به ربه ليستحيي أن يشرك بربه أحداً.. كيف ذلك وهو الذي خلقه وكرَّمه وخلق له ما في الأرض جميعه لينتفع به وليتعظ وليستخدمه في إنهاء مهمته في خلافة الله تعالى في أرضه بتنفيذ أمره وإقامة توحيده..

وهكذا ترى الآيات تنتقل بين أنواع الخطاب وطرق الاستدلالات وتنوع الأساليب في إعجازٍ متصلٍ يأخذ بتلابيب العقل والنفس والشعور.

# القصة في القرآن الكريم.. وقفات مبدأية

لقد احتلت القصة في القرآن الكريم مكانةً عظيمةً وموقعاً فريداً.. فإذا كان كثيرٌ من العلماء يجمعون معظم أغراض القرآن العظيم في التوحيد والأحكام الشرعية والقصص؛ ويزيد بعضهم الأخلاق وهى من باب الشريعة والأحكام؛ فإن القصص القرآني هو من الوسائل العميقة الأثر في تقرير عقيدة التوحيد، وفي تدشين الآداب الراقية والأخلاق الحسنة، وربما جمع القصص القرآني بيان بعض الفقه والأحكام الشرعية كذلك؛ وهو ما سياقبلنا على مدى قصص القرآن العظيم.. وبذلك يتبين لنا أهمية القصص القرآني كوسيلة راقية للهداية الربانية، وأسلوب حكيم لتربية النفوس على الحق والخير والجمال والنور.. ويحدد لنا ربنا تعالى في الذكر الحكيم كثيراً من أغراض قصص القرآن فيقول سبحانه: { لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (111) } [يوسف: 111]..

فمن خلال هذه الآيات وحين نستقرأها جيداً يتبين بجلاءٍ أن القصص القرآني لم يكن أبداً للتسلية أو السرد التاريخي، فليس القرآن كتاب تاريخ أو كتاب أدب صرف يُقصد منه السرد الأدبي لقصص الماضين.. كلا! فالقصص القرآني العظيم جاء في موضعه من تنويع أساليب الهداية والنور الرباني الذي هو المقصد الأول والأسمى للكتاب المجيد.. وأخذ القصص مكانه المحكم بين آيات القرآن ليكون الصورة العامة والشاملة للهداية الربانية، فمن أهم أغراض القصص في القرآن:

1. الدلالة على صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما جاء به من عقيدة التوحيد وأيده القرآن المعجز الذي خرق حواجز الغيب (الماضي والحاضر والمستقبل)، وجاء مصدِّقاً وموافقاً لما جاء به الرسل وجاءت به الكتب السماوية قبله، ليعلم الذين أوتوا العلم صدق هذا الرسول بما جاء به مما لا يستطيع أن يعلمه إياه إلا رب العالمين.. يقول تعالى: {ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ (44)} [آل عمران: 44]..ويقول أيضاً: {ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ (102)} [يوسف: 102]..
2. إن في القصص القرآني العبرة والعظة والتعليم للناس بما كان من أمر الأمم والحياة قبلهم حتى لا يسلكوا طرق الضلالة وحتى يروا النور والسبيل واضحاً فيسلكوه.. فالقصة من أبرع أساليب الاعتبار والتربية ومخاطبة العقل الباطن للافراد والجماعات..يقول ربنا: {فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (176)} [الأعراف: 176].
3. إن هذا القرآن جاء بحجة الإسلام الدامغة وقضيته الناصعة العادلة؛ فعلَّم نبيه ما لم يكن يعلم، وعلم أمته تاريخ الهداية وسبيل الحق الممتدة عبر التاريخ مع الأمم والرسل..وكان في قصصه الرد على تساؤلات المؤمنين، وتفنيد لضلالات المشككين على أنصح وأجلى وأرحم ما يكون بلا نزيد ولا إخلال.. ويقول سبحانه: {نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ (3)} [يوسف: 3].. ويقول: {نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى (13)} [الكهف: 13]..
4. وكذلك كان القصص الحكيم تسليةً لقلب رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين معه؛ وتثبيتا لفؤاده بذكر ما لاقت الدعوة الحقة من الاضطهادات وانتصارها رغم كل شئ عبر تاريخ الرسل والأنبياء والمصلحين قبله ويقول سبحانه: {وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (120)} [هود: 120]..

هذه بعض أغراض القصة في القرآن العظيم.. ولكننا نتحدث عن خصائص عامة للقصة في القرآن:

1. إن القصة في القرآن لا تهتم بالتفاصيل إلا بقدر الهدف والسياق المعنوي الذي جاءت في خلاله القصة، بعكس ما يحدث في الكتب التي ألفها اهل الكتاب وادعوا أنها مقدسة من عرض تفاصيل سخيفة تبعد كونها من كلام الله تماما.
2. إن القصة القرآنية تاخذ مكانها في السياق القرآني لتؤكد وتوطد الفكرة التي يدور حولها السياق في كل سورة، وكذلك فإن التفاصيل والأسلوب يتنوع ليوافق هذا السياق ليؤدي ذلك الداء الراقي ويضع كلام الله موضعه العظيم في الهداية والنور..

قال سيد قطب في ظلاله:

يرد القصص في القرآن في مواضع ومناسبات. وهذه المناسبات التي يساق القصص من أجلها هي التي تحدد مساق القصة، والحلقة التي تعرض منها، والصورة التي تأتي عليها، والطريقة التي تؤدى بها. تنسيقا للجو الروحي والفكري والفني الذي تعرض فيه. وبذلك تؤدي دورها الموضوعي، وتحقق غايتها النفسية، وتلقي إيقاعها المطلوب.

ويحسب أناس أن هنالك تكراراً في القصص القرآني، لأن القصة الواحدة قد يتكرر عرضها في سور شتى.

ولكن النظرة الفاحصة تؤكد أنه ما من قصة، أو حلقة من قصة قد تكررت في صورة واحدة، من ناحية القدر الذي يساق، وطريقة الأداء في السياق. وأنه حيثما تكررت حلقة كان هنالك جديد تؤديه، ينفي حقيقة التكرار.

ويزيغ أناس فيزعمون أن هنالك خلقاً للحوادث أو تصرفاً فيها، يقصد به إلى مجرد الفن- بمعنى التزويق الذي لا يتقيد بواقع- ولكن الحق الذي يلمسه كل من ينظر في هذا القرآن، وهو مستقيم الفطرة، مفتوح البصيرة، هو أن المناسبة الموضوعية هي التي تحدد القدر الذي يعرض من القصة في كل موضع، كما تحدد طريقة العرض وخصائص الأداء. والقرآن كتاب دعوة، ودستور نظام، ومنهج حياة، لا كتاب رواية ولا تسلية ولا تاريخ. وفي سياق الدعوة يجيء القصص المختار، بالقدر وبالطريقة التي تناسب الجو والسياق، وتحقق الجمال الفني الصادق، الذي لا يعتمد على الخلق والتزويق، ولكن يعتمد على إبداع العرض، وقوة الحق، وجمال الأداء.

وقصص الأنبياء في القرآن يمثل موكب الإيمان في طريقه الممتد الواصل الطويل. ويعرض قصة الدعوة إلى الله واستجابة البشرية لها جيلاً بعد جيل كما يعرض طبيعة الإيمان في نفوس هذه النخبة المختارة من البشر، وطبيعة تصورهم للعلاقة بينهم وبين ربهم الذي خصهم بهذا الفضل العظيم.. وتتبع هذا الموكب الكريم في طريقه اللاحب يفيض على القلب رضى ونوراً وشفافية ويشعره بنفاسة هذا العنصر العزيز- عنصر الإيمان- وأصالته في الوجود. كذلك يكشف عن حقيقة التصور الإيماني ويميزه في الحس من سائر التصورات الدخيلة.. ومن ثم كان القصص شطراً كبيراً من كتاب الدعوة الكريم. انتهى.([[113]](#footnote-113))

# حروف المعاني واثر اللغة في تدبر القرآن، واختلاف الاستنباطات من آياته

من بلاغيات اللغة في هذه الآية حروف المعاني { إذ } و{إذا} واستخدامهما في القرآن العظيم..وهى من حروف المعاني، كما أَن حروف الهجاءِ يقال لها حروف المباني.. وحروف المعاني هى حروف تستخدم في اللغة لتفيد معاني خاصة وتسمى الحروف الوظيفية لأن لها وظيفة في توجيه معنى التركيب اللغوي؛ فهى بذلك لها من الأهمية الكثير في بيان معاني القرآن؛ فلقد أولى كثير من اللغويّين القُدامى والمحدثين حروف المعاني عناية بالغة، ولا عجب، فهذه الكلمات الصغيرة في مَبْناها، عُدة المتكلم و"أدواته" في تأليف الكلام. وهي لرَصْف المعاني كالمِلاط ( الأسمنت وغيره الذي يوضع بين الأحجار) لرصْف المباني، بها تأتلف أجزاؤه، وتتوثَّق تراكيبه. وحروف المعاني قليلة العدد، ولكنّها واسعة التكرار والانتشار بين أجزاء الكلام، فلا يُزاحم هذه المخلوقات الصغيرة الدقيقة مُزاحم من أقسام الكلام، وقد ترتَّب على قلتها عدداً، وأهميتها عُدَّةً أن تداخلت معاني كثير منها، وتعاورت على المعنى الواحد، مع فروق قد تتَّضح فلا تَلْتَبس، وقد تَدِق حتى لتخفى أو تكاد.

يقول الإمام الرازي: "لما كان المرجع في معرفة شرعنا إلى القرآن والأخبار -وهما واردان بلغة العرب ونحوهم وتصريفهم- كان العلم بشرعنا موقوفاً على العلم بهذه الأمور، وما لا يتم الواجب المطلق إلا به -وكان مقدوراً للمكلف- فهو واجب".

وغير خاف، أثر اللغة العربية -بنحوها وبلاغتها- في فهم القرآن الكريم، بل قد جعل العلماء المعرفة بلسان العرب من أهم الشروط المطلوبة لمن أراد أن يفسر القرآن، ويستنبط منه الأحكام والتشريعات.

وكان اختلاف العلماء في بعض المسائل النحوية مفض إلى اختلافهم في بعض المسائل الفقهية. وأكثر ما يبدو ذلك في اختلافهم في تحديد المراد بـ (حروف الجر). ونوضح ذلك من خلال ثلاث آيات كريمة:

الآية الأولى: قوله سبحانه في تقرير صفة الوضوء: {فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق} (المائدة:6)، فقد اختلفت أنظار الفقهاء هنا -وتبعهم المفسرون- في دخول المرافق في الغَسل أو عدم دخولها، وهم في ذلك على رأيين:

الأول: وهو رأي الجمهور، الذين يرون وجوب إدخالهما في الغَسل؛ لأنهم يرجحون دخول ما بعد (إلى) في حكم ما قبلها إذا كان من جنسه، والمرفق من جنس اليد، والكعب من جنس الرِّجل.

ومن أدلة الجمهور أيضاً، أن (إلى) قد تكون هنا بمعنى (مع)، وقد جاءت كذلك في قوله تعالى: {قال من أنصاري إلى الله} (آل عمران:52)، أي: مع الله. وقوله سبحانه: {ويزدكم قوة إلى قوتكم} (:52)، أي: مع قوتكم.

الثاني: رأي متأخري المالكية، الذين يرون أن المرفق والكعب غير داخلين في وجوب الغَسل؛ لأنهم يرجحون أن ما بعد (إلى) غير داخل في حكم ما قبلها. وقد يُستدل لرأيهم بقوله تعالى: {ثم أتموا الصيام إلى الليل} (البقرة:187)، فـ {الليل} غير داخل بالصيام قطعاً.

الآية الثانية: قوله تعالى في تقرير صفة الوضوء أيضاً: {وامسحوا برءوسكم} (المائدة:6). اختلف الفقهاء -وتبعهم المفسرون- في المقدار المطلوب مسحه من الرأس، ومرجع الخلاف إلى اختلافهم في معنى (الباء) الواردة في قوله سبحانه: {برءوسكم}؛ إذ إن الباء، قد تأتي بمعنى (الإلصاق)، وقد تأتي بمعنى (التبعيض)، وقد تأتي لمعان أُخر.

وحاصل اختلافهم هنا على أقوال ثلاثة:

أولها: أن (الباء) زائدة؛ والتقدير: (امسحوا رؤوسكم). والمفروض بحسب هذا القول مسح الرأس كله. وإلى هذا ذهب المالكية، وهو الراجح فيما روي عن الإمام أحمد.

ثانيها: أن (الباء) للإلصاق، أي: امسحوا ملصقين أيديكم برؤوسكم، والمفروض بحسب هذا القول مسح الرأس كله؛ لأن الإلصاق يقتضي ذلك. وهذا القول رجحه ابن تيمية، وقد قال في هذا الصدد: "لو قال: فامسحوا رؤوسكم، أو وجوهكم، لم تدل على ما يلتصق بالمسح، فإنك تقول: مسحت رأس فلان، وإن لم يكن بيدك بَلَل، فإذا قيل: فامسحوا برؤوسكم وبوجوهكم، ضُمِّن المسح معنى الإلصاق، فأفاد أنكم تلصقون برؤوسكم وبوجوهكم شيئاً بهذا المسح".

وأنت ترى أنه لا خلاف بين هذين القولين من حيث فرضية مسح الرأس في الوضوء، وإنما الخلاف في تحديد معنى (الباء) في الآية.

ثالثها: أن (الباء) للتبعيض، وهي بمعنى (من)، كقوله تعالى: {عينا يشرب بها المقربون} (المطففين:28)، أي: منها. وبحسب هذا القول، يكون المفروض مسح بعض الرأس، وهذا قول الحنفية والشافعية، بل قال الشافعي: يجزئ مسح شعرة واحدة.

الآية الثالثة: قوله عز وجل في تقرير فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: {ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر} (آل عمران:104). اختلاف العلماء في معنى (من) في قوله سبحانه: {منكم} على قولين:

أولاهما: أن (من) في الآية للتبعيض، والمعنى: ليكن منكم فئة قائمة على الأمر بالمعروف والنهي على المنكر. وبحسب هذا المعنى، يكون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض على الكفاية، إذا قام به البعض سقط عن الباقين. ويُستدل لهذا القول بقوله تعالى: {فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم} (التوبة:122). وقد رجح القرطبي هذا القول في معنى (من) في هذه الآية.

ثانيهما: أن (من) في الآية لبيان الجنس، والمعنى: كونوا أمة آمرة بالمعروف ناهية عن المنكر، ويؤيد هذا القول قوله صلى الله عليه وسلم: (من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان) رواه مسلم.

ومما ينبغي الاهتمام به في هذا السياق أمرين:

الأول: أن حروف الجر -وتسمى حروف المعاني- ينوب بعضها عن بعض، فحرف الجر (في) في قوله سبحانه: {ولأصلبنكم في جذوع النخل} (طه:71)، هو بمعنى (على)، أي: على جذوع النحل. وهذا كثير في القرآن لمن تتبعه، وللعلماء فيه مذاهب.

الثاني: أن حروف الجر تحمل أكثر من معنى، وقد يرجح بعض العلماء معنى على معنى، لدليل يظهر له، ومن ثم تختلف أنظارهم في بناء الأحكام بناء على اختلافهم في تحديد المراد من هذا الحرف أو ذاك.

وهكذا كثير من الحروف الوظيفية من أمثال ( الباء واللام والكاف وألا وإن وأن و....غيرها) مما هو مذكور في كتب الأصول (أصول الفقه) لأهميته في استنباط الفقه.. وهو كذلك هام جدا في فهم القرآن العظيم وتفسيره وتدبر معانيه؛ فتنبه.... وهنا أيضاً دقة نظر الفقهاء وسماحة الدين في اختلافهم المبني على استنباطٍ سليمٍ ومعرفة بالسنة واللغة وغيرها من العلوم اللازمة للمجتهد في الدين.. وإنما ذكرنا هذا في معرض بيان الواجب على مَن يريد تدبر هذا القرآن العظيم وأنه يلزمه معرفة اللغة العربية التي قال فيها رب العزة: { تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ۩ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}..

ثم نعود إلى ( إذ) في هذه الآية الكريمة:

يقول القرطبي: " إِذْ " وَ "إِذَا" حَرْفَا تَوْقِيتٍ ( لبيان زمان الفعل)، فَإِذْ لِلْمَاضِي، وَإِذَا لِلْمُسْتَقْبَلِ، وَقَدْ تُوضَعُ إِحْدَاهُمَا مَوْضِعَ الْأُخْرَى. وَقَالَ الْمُبَرِّدُ: إِذَا جَاءَ حرف " إِذْ" مَعَ مُسْتَقْبَلٍ (فعل مضارع) كَانَ مَعْنَاهُ مَاضِيًا، نَحْوَ قَوْلِهِ:" وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ" (الأنفال: 30) " وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ" (الأحزاب: 37) معناه إذ مَكَرُوا، وَإِذْ قُلْتَ. وَإِذَا جَاءَ" إِذَا" مَعَ الْمَاضِي كَانَ مَعْنَاهُ مُسْتَقْبَلًا، كَقَوْلِهِ تَعَالَى:" فَإِذا جاءَتِ الطَّامَّةُ" (النازعات: 34) " فَإِذا جاءَتِ الصَّاخَّةُ" (عبس: 33) و" إِذا جاءَ نَصْرُ اللَّهِ" (النصر: 1) أي يجئ. وَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ:" إِذْ" زَائِدَةٌ، وَالتَّقْدِيرُ: وَقَالَ رَبُّكُ، وَأَنْكَرَ هَذَا الْقَوْلَ الزَّجَّاجُ وَالنَّحَّاسُ وَجَمِيعُ الْمُفَسِّرِينَ. قَالَ النَّحَّاسُ: وَهَذَا خَطَأٌ، لِأَنَّ" إِذْ" اسْمٌ وَهِيَ ظَرْفُ زَمَانٍ لَيْسَ مِمَّا تُزَادُ. وَقَالَ الزَّجَّاجُ: هَذَا اجْتِرَامٌ (أو اجتراء) مِنْ أَبِي عُبَيْدَةَ، ذَكَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ خَلْقَ النَّاسِ وَغَيْرِهِمْ، فَالتَّقْدِيرُ وَابْتَدَأَ خَلْقَكُمْ إِذْ قَالَ، فَكَانَ هَذَا مِنَ الْمَحْذُوفِ الَّذِي دَلَّ عَلَيْهِ الْكَلَامُ، كَمَا قَالَ: فَإِنَّ الْمَنِيَّةَ مَنْ يَخْشَهَا... فَسَوْفَ تُصَادِفُهُ أَيْنَمَا

يُرِيدُ أَيْنَمَا ذَهَبَ. وَيُحْتَمَلُ أَنْ تَكُونَ مُتَعَلِّقَةً بِفِعْلٍ مُقَدَّرٍ تَقْدِيرُهُ وَاذْكُرْ إِذْ قَالَ. وَقِيلَ: هُوَ مَرْدُودٌ إِلَى قوله تعالى:" اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ" [البقرة: 21] فَالْمَعْنَى الَّذِي خَلَقَكُمْ إِذْ قَالَ رَبُّكُ لِلْمَلَائِكَةِ. انتهى ([[114]](#footnote-114))

# هل الإنسان خليفة الله في الأرض؟

وجدت في موقع الدكتور/ يوسف القرضاوي على الشبكة العنكبوتية ( الإنترنت) هذا البحث الرائع فنقلته لنفاسته ([[115]](#footnote-115))...

وفيه كان السؤال من أحدهم: قرأت في مجلة إسلامية مقالا لكاتب إسلامي تحت عنوان: هل الإنسان خليفة الله في الأرض؟"، وقد أجاب الأستاذ عن هذا السؤال بالنفي، منكرًا بشدة ما شاع على ألسنة الباحثين المعاصرين وفي كتاباتهم أن الإنسان خليفة الله في الأرض. قائلاً: "ولا شك أن فكرة خلافة الإنسان لله في الأرض مأخوذة عن نظرية الحلول والاتحاد، ونظرية القطب والغوث لغلاة الصوفية".

فهل توافقون على هذا الرأي؟ وهل مما ينافى الإسلام أن نقول: إن الإنسان خليفة الله في الأرض؟ فقد كنا نحسب أن فكرة خلافة الإنسان لله فكرة مسلمة في الدين، ولا حرج في القول بها، حتى قرأنا هذه المقالة فشككنا في الأمر. لذا نرجو توضيح وجهة نظركم في هذه القضية مع الأدلة المقنعة، نفع الله بكم.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته، ،

جواب العلامة الدكتور يوسف القرضاوي:

لا ريب أن للموضوع خطرة وأهميته في الفكر الإسلامي القديم والحديث حيث يتعلق بتحديد مكانة الإنسان في نظر الإسلام، وتعيين درجته في سلم الكائنات، وهو أمر تعرض له المتكلمون والفلاسفة والمفسرون والمتصوفون في مناسبات شتي، كما جرى في هذا العصر على ألسنة العلماء والأدباء والباحثين الإسلاميين. حتى أصبح كالحقيقة.. كما أن بعض المستشرقين المتعصبين حاولوا أن ينفثوا سمومهم في هذه القضية مستغلين بعض العبارات ليتهموا الإسلام بالتحقير من شأن الإنسان.

ومن هنا أرى الأمر يحتاج إلى إيضاح لحقيقته وكشف لغوامضه، حتى يكون السائل على بينة من الأمر.

وأود أن أذكر السائل وقبله الكاتب الفاضل أن هذا القول "خلافة الإنسان لله في الأرض" ليس من مبتكرات الأدباء الإسلاميين المعاصرين، وليس أيضًا من مخترعات الغلاة من الصوفية، بل هو مروي عن سادات المفسرين من الصحابة والتابعين ومن بعدهم، وهو أحد الرأيين أو الآراء المذكورة في معنى الخلافة في قوله تعالى: (إني جاعل في الأرض خليفة) (البقرة: 30)، ولم يكد يخلو من ذكره كتاب من كتب التفسير في القديم أو الحديث. وأكتفي هنا بمقالين من كتب التفسير القديم:

الأول: ما ذكره ابن الجوزي في تفسيره: فقد ذكر في معنى خلافة بني آدم قولين أحدهما: أنه: خليفة عن الله تعالى في إقامة شرعه، ودلائل توحيده، والحكم في خلقه، وهذا قول ابن مسعود.

والثاني: ما قاله الفخر الرازي: القول الثاني: إنما سماه الله خليفة؛ لأنه يخلف الله في الحكم بين المكلفين من خلقه، وهو المروي عن ابن مسعود وابن عباس والسدي، وهذا الرأي متأكد بقوله: (إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق) (ص: 26). ا هـ.

وإذا كانت الآيات الكريمة تتحدث عن قصة آدم فإن السياق يدل على أن المرشح للخلافة هو وذريته من بعده، بدليل قول الملائكة: (أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك) (البقرة: 30). فإنهم لا يقصدون بقولهم هذا آدم عليه السلام، بل يقصدون به هذا النوع الجديد من الخليقة بوجه عام بما عرفوا من طبيعة تكوينه، أو بقياسه على من سبقه من سكان الأرض، أو بإعلام من الله لهم- على اختلاف الأقوال والاحتمالات في الموضوع.

ولست أريد هنا أن أرجح أحد القولين أو الأقوال في معنى "الخليفة" في الآية الكريمة وإن كان سياق القصة، من إعلان الله لملائكته، مقدم هذا المخلوق الجديد قبل وجوده، وتعاليمه الأسماء كلها، وإظهار تفوقه على الملائكة في اختبار علني، وأمر الملائكة بالسجود لهذا الكائن الفريد، وجعل هذا السجود مرتبًا على قوله: (فإذا سويته ونفخت فيه من روحي) وطرد إبليس من رحمة الله، وتجليله باللعنة إلى يوم الدين، حين أبى أن يستجيب لأمر الله بسجود التحية والتكريم لهذا المخلوق - كل هذا قد يجعل النفس أميل إلى أن الإخبار الإلهي للملائكة بأنه جاعل في الأرض خليفة لا يدل على أنه مجرد مخلوق يخلف من كان قبله من سكان الأرض، بل نختار ما قاله السيد صديق حسن خان في تفسيره "فتح البيان" بعد أن ذكر الأقوال في المراد بالخلافة والخليفة: (والصحيح أنه إنما سمي خليفة، لأنه خليفة الله في أرضه، لإقامة حدوده وتنفيذ قضاياه).

ومعروف أن السيد صديق أحد المستمسكين بالسلفية وهو من علماء أهل الحديث المستقلين.

أقول: لست في مقام الترجيح، وحسبي أن هذا الرأي مأثور ومتكرر في مصادر التفسير، ولم يطعن فيه أحد - فيما أعلم - قبل الإمام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم رحمهما الله، وإن كان ابن القيم أدنى إلى الرفق والاعتدال في القضية من شيخه. فقد عرض للمسألة في كتابه "مفتاح دار السعادة" وهو يشرح الحديث الذي رواه أبو نعيم وغيره عن كميل بن زياد عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه في فضل العلم وأهله وحملته وفيه: (أولئك خلفاء الله في أرضه ودعاته إلى دينه).

قال: (قوله "أولئك خلفاء الله في أرضه" حجة أحد القولين في أنه يجوز أن يقال: فلان "خليفة الله في أرضه") وساق حجج أصحاب هذا القول من القرآن والحديث، ثم ساق دليل الطائفة التي منعت هذا الإطلاق - وهي التي سنذكرها ونناقشها بعد - ثم قال: (إن أريد بالإضافة إلى الله أنه خليفة عنه، فالصواب قول الطائفة المانعة منها، وإن أريد بالإضافة أن الله استخلفه عن غيره ممن كان قبله، فهذا لا يمتنع فيه الإضافة.. حقيقتها: خليفة الله الذي جعله خلفًا عن غيره. وبهذا يخرج الجواب عن قول أمير المؤمنين "أولئك خلفاء الله في أرضه") ا هـ.

وأنا من أكثر الناس إعجابًا بشيخ الإسلام ابن تيمية، وتلميذه المحقق ابن القيم، وبالثروة العلمية العظيمة التي خلفاها لهذه الأمة، كما أقدر دوافعهما النبيلة التي جعلتهما ينكران هذه الفكرة "خلافة الله" بعد أن غلا فيها بعض المتصوفة غلوا أفسدها، ولكني أرى أن الأدلة التي اعتمدا عليها في منع القول بخلافة الإنسان لله في الأرض، ليست قاطعة ولا راجحة.

وعمدة أدلتهما هنا أمران:

أحدهما: أن أبا بكر رضي الله عنه حين قالوا له: يا خليفة الله، قال: لست بخليفة الله، ولكني خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم، حسبي ذلك.

الثاني: أن الخليفة من يقوم مقام غيره... والله تعالى لا يجوز أن يكون أحد خلفا عنه: لأنه لا سمي له ولا كفء، بل هو سبحانه يكون خليفة لغيره. كما في حديث: "اللهم أنت الصاحب في السفر، والخليفة في الأهل".

وبالنظر في الدليل الأول نجده قيل في مقام معين له خصوصية ينفرد بها عن سواه. ذلك هو مقام الإمام الأعظم الذي بويع رئيسًا للدولة بعد رسول الله. مظنة الغلو في مثل هذه الحالة قائمة ومعروفة لدى كثير من الأمم، التي ورث المسلمون ملكهم، وأقربهم الفرس: الذين يضفون على ملوكهم ورؤسائهم نوعًا من التقديس والتأليه، وأبو بكر رضي الله عنه - مع أنه رئيس دولة - صاحب عقيدة يريد لها أن تسود وأن تظل سليمة من التشويه والتحريف، وتخصيصه وحده - دون المسلمين جميعًا - بأنه خليفة الله، يخشى منه أن يكون غلوا في التعظيم الذي ينفرد به الحكام عادة. لهذا رفضه رضي الله عنه، واكتفى بأنه خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولهذا قال: "حسبي ذلك" فهذا التعقيب منه يدل على ما ذكرناه. وقد ورد أن أحد الشعراء خاطب أبا بكر بقوله:

أخليفة الرحمن إنا معشر حنفاء نسجد بكرة وأصيلا

عرب نرى لله في أموالنا حـق الزكاة منزلاً تنزيلا

وسواء بلغ هذا الشعر أبا بكر أم لم يبلغه، فقد قيل في عصر أبي بكر، ولم ينقل ألينا أن أحدًا من الصحابة أنكره.

وبذلك يبين لنا أن عبارة أبي بكر ليست نصًا في إنكار خلافة الله العامة لكل البشر، لأنها سيقت في مناسبة خاصة لغرض خاص.

ونظير هذا ما روي عن أبي ذر أنه أنكر على معاوية أن يسمى مال الخزانة الإسلامية "مال الله" وأصر على أن يسميه " مال المسلمين " مع أن إضافة المال إلى الله تعالى واردة في القرآن الكريم: (وآتوهم من مال الله الذي آتاكم) (النور: 33)، ولكنه هنا خشي أن تهون كلمته " مال الله " من حق أفراد الجماعة في المال، فتمتد إليه يد ولي الأمر في غير مصلحة المسلمين أصحاب المال الحقيقيين.

والذي يعنينا هنا أن العبارة، قد تكون جائزة في نفسها، ولكن يأتي اعتبار معقول، يمنع استعمالها في مقام معين.

وبالنظر إلى الدليل الثاني: لا نسلم أن الخلافة عن الله تستلزم أن يكون الإنسان سميًا لله وكفوًا، تعالى الله عن ذلك. فإن الخليفة هو الوكيل والنائب، ولله تعالين يوكل من يشاء من خلقه فيما شاء من أمره. كما وكل ملائكته في بعض شئون خلقه، وكما أناب الإنسان في تنمية المال وإنفاقه، على ما يرضي الله سبحانه مالك المال وصاحبه الحقيقي، قال تعالى: (وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه) (الحديد: 7).

قال الزمخشري في تفسير الآية: يعني أن الأموال التي في أيديكم إنما هي أموال الله بخلقه وإنشائه لها، وإنما مولكم إياها وخولكم الاستمتاع بها، وجعلكم خلفاء في التصرف فيها، فليست هي بأموالكم في الحقيقة، وما أنتم فيها إلا بمنزلة الوكلاء والنواب أ هـ.

وقد شاع بين جمهور المسلمين حديث قدسي يقول:" المال مالي والفقراء عيالي والأغنياء وكلائي، فإذا بخل وكلائي على عيالي أذقتهم وبالي ولا أبالي" وليس لهذا الحديث سند يعرف، ولكن معناه لا غبار عليه، وتلقيه بالقبول يدل على أن فكرة الاستخلاف في مال الله عميقة الجذور في عقلية المسلمين.

وقد أصبحت هذه الفكرة أساسًا لما عليه المفكرون الإسلاميون في هذا العصر، لتوضيح معالم نظرية الإسلام الاقتصادية.

وابن القيم نفسه بعد أن رجح عدم الجواز بأن يقال: (إن أحدًا وكيل الله؛ لأن الوكيل من يتصرف عن موكله بطريق النيابة، والله عز وجل لا نائب له..) عاد فقال: (على أنه لا يمتنع أن يطلق ذلك باعتبار أنه مأمور بحفظ ما وكله فيه ورعايته والقيام به) (مدارج السالكين 2/126، 127، ط. السنة المحمدية بالقاهرة).

والخلاصة:

إن القول بالخلافة لله في حد ذاته ليس خطأ ولا خطرًا ولا يؤدي إلى كل هذا الانزعاج، وإن في استطاعتنا أن ننتفع بهذه الفكرة، ونجردها من تحريف الغلاة من الصوفية، ونبرز بها نظرة الإسلام إلى الإنسان، وموضعه الرفيع في هذا الكون، في مقابل النظرات المادية الحديثة التي هبطت به إلى أسفل سافلين، وجعلته من أحفاد القردة، وأقارب الخنازير.

إن الخلافة عن الله توحي بأمور أربعة ليس منها ولا في واحد منها ضرر ولا خطر على الإنسان، بل فيها الخير الكثير لمن تدبرها:

أولها: أن الإنسان ليس مطلق التصرف في هذا الكون يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، ولا يسأل عما يفعل، ولا يحاسب على ما يحكم، إنما هو مخلوق مستخلف من خالق الكون وخالقه، موكل بأن يعمره ويتصرف فيه وفق أمر موكله وإرشاد مستخلفه.

ثانيها: أن الله قد أعطاه شرفًا عظيمًا بهذه المنزلة التي خصه بها دون سائر المخلوقات العلوية والسفلية. شرفًا غبطته عليه الملائكة المقربون وعبر عنه الإمام الرازي بقوله: إن الله جعل آدم خليفة له... ومعلوم أن أعلى الناس منصبًا عند الملك من كان قائمًا مقامه في الولاية والتصرف وكان خليفة له... وهذا متأكد بقوله تعالى: (ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السموات وما في الأرض...) (لقمان: 20)، ثم أكد هذا التعميم بقوله: (خلق لكم ما في الأرض جميعا) (البقرة: 29)، فبلغ آدم في منصب الخلافة إلى أعلى الدرجات، فالدنيا خلقت متعة لبقائه، والآخرة مملكة لجزائه، وصارت الشياطين ملعونين بسبب التكبر عليه، والجن رعيته، والملائكة في طاعته وسجوده والتواضع له، ثم صار بعضهم حافظين له ولذريته، وبعضهم منزلين لرزقه، وبعضهم مستغفرين له.

ثالثها: أن هذا الإنسان المستخلف لا بد أن يكون قد أعطي من الطاقات والمواهب وهيئ له من الأسباب والمعينات والآلات ما يمكنه من القيام بحق هذه الخلافة، وإلا كان استخلافه في هذه الأرض عبثًا يتنزه عنه الإله العليم الحكيم.

ولعلنا نلمح من هذه المواهب موهبة العلم والمعرفة التي برزت في تعلم آدم للأسماء كلها بتعليم الله عز وجل.

كما نجد الوسائل المعينة على مهمة الخلافة في مثل قوله تعالى في الآية السابقة لقصة استخلاف آدم: (هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعًا) (البقرة: 29)، أو في آيات أخرى مثل (وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعًا منه). (الجاثية: 13).

رابعها: أن الإنسان الذي لا يقوم بحق هذه الخلافة ولا يرعى أمانتها، لا يستحق أن يحظى بشرف اسمها، وحمل عنوانها، ووجب أن يسحب منه لقب " خليفة الله " فخلفاء الله هم المؤمنون الصادقون المذكورون في قوله تعالى: (ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون) (الأنبياء: 105).

وأخيرًا فإن في ديار العرب والمسلمين اليوم من المذاهب المنحرفة، والأفكار الهدامة، والعقائد المستوردة، والفرق الباطنية المناوئة للإسلام وأمته - ما هو أولى بأن توجه إلى مقاومته جهود العلماء والكتاب والمفكرين من الغيورين على عقيدة الإسلام، وشريعة الإسلام، وأمة الإسلام. انتهى ما أجاب به العلامة القرضاوي وهو رد واعٍ ووافٍ وتحقيق فريد في بابه..

ويقول ابن كثير في تفسيره لهذه الآية:{ وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون ( 30 )}.. قال: وقد استدل القرطبي وغيره بهذه الآية على وجوب نصب الخليقة، ليفصل بين الناس فيما اختلفوا فيه، ويقطع تنازعهم وينتصر لمظلومهم من ظالمهم، ويقيم الحدود، ويزجر عن تعاطي الفواحش إلى غير ذلك من الأمور المهمة التي لا تمكن إقامتها إلا بالإمام، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب. والإمامة تنال بالنص كما يقوله طائفة من أهل السنّة في أبي بكر. أو بالإيماء إليه كما يقول آخرون منهم، أو باستخلاف الخليفة آخر بعده كما فعل الصدّيق بعمر بن الخطاب، أو بتركه مشورة في جماعة صالحين كذلك كما فعله عمر، أو باجتماع أهل الحل والعقد على مبايعته أو بمبايعة واحد منهم له، فيجب التزامها عند الجمهور، وحكى على ذلك إمام الحرمين الإجماع، واللّه أعلم.

ويجب أن يكون ذكراً، حراً، بالغاً، عاقلاً، مسلماً، عدلاً، مجتهداً، بصيراً، سليم الأعضاء، خبيراً بالحروب والأراء، قرشياً على الصحيح؛ ولا يشترط الهاشمي ولا المعصوم من الخطأ خلافاً للغلاة والروافض. ولو فسق الإمام هل ينعزل أم لا؟ فيه خلاف، والصحيح أنه لا ينعزل لقوله عليه الصلاة والسلام: "إلا أن تروا كفراً بواحاً عندكم من اللّه فيه برهان" (كفراً بواحاً: قال ابن الأثير: أي جهارً من باح بالشيء يبوح به إذا أعلنه. النهاية في غريب الحديث)، فأما نصب إمامين في الأرض أو أكثر فلا يجوز لقوله عليه الصلاة والسلام: "من جاءكم وأمْرُكم جَميعٌ يريد أن يفرِّق بينكم فاقتلوه كائنا من كان" وهذا قول الجمهور. انتهى. ([[116]](#footnote-116))

ولقد وجدت في تفسير المنار [ ص: 216- 218 ] تحقيق منيف للعلامة رشيد رضا يقول فيه:

[ إن للمفسرين في ( الخليفة ) مذهبين: ذهب بعضهم إلى أن هذا اللفظ يشعر بأنه كان في الأرض صنف أو أكثر من نوع الحيوان الناطق وأنه انقرض، وأن هذا الصنف الذي أخبر الله الملائكة بأن سيجعله خليفة في الأرض سيحل محله ويخلفه، كما قال - تعالى - بعد ذكر إهلاك القرون: ( ثم جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم ) ( 10: 14 ) وقالوا: إن ذلك الصنف البائد قد أفسد في الأرض وسفك الدماء، وأن الملائكة استنبطوا سؤالهم بالقياس عليه؛ لأن الخليفة لا بد أن يناسب من يخلفه ويكون من قبيله كما يتبادر إلى الفهم، ولكن لما لم يكن دليل على أنه يكون مثله من كل وجه وليس ذلك من مقتضى الخلافة، أجاب الله الملائكة بأنه يعلم ما لا يعلمون مما يمتاز به هذا الخليفة على من قبله، وماله سبحانه في ذلك من الحكمة البالغة.

( قال الأستاذ محمد عبده): وإذا صح هذا القول فليس آدم أول الصنف العاقل من الحيوان على هذه الأرض، وإنما كان أول طائفة جديدة من الحيوان الناطق تماثل الطائفة أو الطوائف البائدة منه في الذات والمادة، وتخالفها في بعض الأخلاق والسجايا.

هذا أحسن ما يجلى فيه هذا المذهب، وأكثر ما قالوه فيه قد سرى إلى المسلمين من أساطير الفرس وخرافاتهم، ومنه أنه كان في الأرض قبل آدم خلق يسمون بالحن والبن، أو الطم والرم، والأكثرون على أن الخلق الذين كانوا في الأرض قبل آدم مباشرة كانوا يسمون الجن، والقائلون منهم بالحن ( بالمهملة ) والبن قالوا: إنهم كانوا قبل الجن، وقالوا: إن هؤلاء عاثوا في الأرض فسادا، فأبادهم الله ( كما تقدم آنفاً ) وقالوا: إن الله - تعالى - أرسل إليهم إبليس في جند من الملائكة فحارب الجن فدحرهم وفرقهم في الجزائر والبحار. وليس لهم في الإسلام سند يُحتج به على هذه القصص، ولكن تقاليد الأمم الموروثة في هذه المسألة تنبئ بأمر ذي بال، وهي متفقة فيه بالإجمال، ألا وهو ما قلناه من أن آدم ليس أول الأحياء العاقلة التي سكنت الأرض.

هذا هو المذهب الأول في تفسير الخليفة..

وذهب الآخرون إلى أن المراد: إني جاعل في الأرض خليفة عني؛ ولهذا شاع أن الإنسان خليفة الله في أرضه. وقال - تعالى -: ( يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض ) ( 38: 26 ) والظاهر - والله أعلم - أن المراد بالخليفة آدم ومجموع ذريته، ولكن ما معنى هذه الخلافة، وما المراد من هذا الاستخلاف، هل هو استخلاف بعض الإنسان على بعض، أم استخلاف البعض على غيره؟.

جرت سنة الله في خلقه بأن تُعلم أحكامه للناس وتُنفَّذ فيهم على ألسنة أناس منهم يصطفيهم ليكونوا خلفاء عنه في ذلك، وكما أن الإنسان أظهر أحكام الله وسننه الوضعية ( أي الشرعية؛ لأن الشرع وضع إلهي ) كذلك أظهر حكمه وسننه الخلقية الطبيعية، فيصح أن يكون معنى الخلافة عاما في كل ما ميز الله به الإنسان على سائر المخلوقات، نطق الوحي ودل العيان والاختيار على أن الله - تعالى - خلق العالم أنواعا مختلفة، وخص كل نوع غير نوع الإنسان بشيء محدود معين لا يتعداه. فأما ما لا نعرفه إلا من طريق الوحي كالملائكة فقد ورد فيها من الآيات والأحاديث ما يدل على أن وظائفه محدودة. قال - تعالى -: ( يسبحون الليل والنهار لا يفترون ) ( 21: 20 ) ( وإنا لنحن الصافون وإنا لنحن المسبحون ) ( 37: 165، 166 ) ( والصافات صفا فالزاجرات زجرا ) ( 37: 1، 2 ) ( والنازعات غرقا والناشطات نشطا والسابحات سبحا فالسابقات سبقا فالمدبرات أمرا ) ( 79: 1 - 5 ) على قول من قال: إن المراد بها الملائكة، إلى غير ذلك مما يدل على أنهم طوائف لكل طائفة وظيفة محدودة، وورد في الأحاديث: أن منهم الساجد دائما، والراكع دائما إلى يوم القيامة.

وأما ما نعرفه بالنظر والاختبار فهو حال المعدن والجماد ولا علم له ولا عمل. وحال النبات وإنما تأثير حياته في نفسه، فلو فرض أن له علما وإرادة فهما لا أثر لهما في جعل عمل النبات مبينا لحكم الله وسننه في الخلق، ولا وسيلة لبيان أحكامه وتنفيذها، فكل حي من الأحياء المحسوسة والغيبية فإن له استعدادا محدودا، وعلما إلهاميا محدودا، وعملا محدودا، وما كان كذلك لا يصلح أن يكون خليفة عن الذي لا حد لعلمه وإرادته، ولا حصر لأحكامه وسننه، ولا نهاية لأعماله وتصرفه.

وأما الإنسان فقد خلقه الله ضعيفا. كما قال في كتابه: ( وخلق الإنسان ضعيفا ) ( 4: 28 ) وخلقه جاهلا كما قال - تعالى -: ( والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا ) ( 16: 78 ) ولكنه على ضعفه وجهله عبرة لمن يعتبر، وموضع لعجب المتعجب؛ لأنه مع ضعفه يتصرف في الأقوياء، ومع جهله في نشأته يعلم جميع الأسماء، يولد الحيوان عالما بالإلهام ما ينفعه وما يضره، وتكمل له قواه في زمن قليل، ويولد الإنسان وليس له من الإلهام إلا الصراخ بالبكاء، ثم يحس ويشعر بالتدريج البطيء بالنسبة إلى غيره من الحيوان، ويعطى قوة أخرى تتصرف بشعوره وإحساسه تصرفا يكون له به السلطان على هذه الكائنات، فيسخرها ويذللها بعد ذلك كما تشاء تلك القوة الغريبة وهي التي يسمونها العقل، ولا يعقلون سرها، ولا يدركون حقيقتها وكنهها، فهي التي تغني الإنسان عن كل ما وهب للحيوان في أصل الفطرة من الكساء الذي يقيه البرد والحر، والأعضاء التي يتناول بها غذاءه والتي يدافع بها عن نفسه ويسطو على عدوه، وغير ذلك من المواهب التي يعطاها الحيوان بلا كسب، حتى كان له بها من الاختراعات العجيبة ما كان، وسيكون له من ذلك ما لا يصل إليه التقدير والحسبان.

فالإنسان بهذه القوة غير محدود الاستعداد ولا محدود الرغائب ولا محدود العلم ولا محدود العمل، فهو على ضعف أفراده يتصرف بمجموعه في الكون تصرفا لا حد له بإذن الله وتصريفه، وكما أعطاه الله - تعالى - هذه المواهب والأحكام الطبيعية ليظهر بها أسرار خليقته، وملكه الأرض وسخر له عوالمها، أعطاه أحكاما وشرائع، حد فيها لأعماله وأخلاقه حدا يحول دون بغي أفراده وطوائفه بعضهم على بعض، فهي تساعده على بلوغ كماله؛ لأنها مرشد ومرب للعقل الذي كان له تلك المزايا؛ فلهذا كله جعله خليفته في الأرض وهو أخلق المخلوقات بهذه الخلافة.

ظهرت آثار الإنسان في هذه الخلافة على الأرض، ونحن نشاهد عجائب صنعه في المعدن والنبات، وفي البر والبحر والهواء، فهو يتفنن ويبتدع ويكتشف ويخترع ويجد ويعمل، حتى غير شكل الأرض فجعل الحزن سهلا، والماحل خصبا، والخراب عمرانا، والبراري بحارا أو خلجانا، وولد بالتلقيح أزواجا من النبات لم تكن كالليمون المسمى " يوسف أفندي " فإن الله - تعالى - خلقه بيد الإنسان وأنشأه بكسبه، وقد تصرف في أبناء جنسه من أنواع الحيوان كما يشاء بضروب التربية والتغذية والتوليد، حتى ظهر التغير في خلقتها وخلائقها وأصنافها فصار منها الكبير والصغير، ومنها الأهلي والوحشي، وهو ينتفع بكل نوع منها ويسخره لخدمته كما سخر القوى الطبيعية وسائر المخلوقات، أليس من حكمة الله الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى، أن جعل الإنسان بهذه المواهب خليفته في الأرض، يقيم سننه، ويظهر عجائب صنعه، وأسرار خليقته، وبدائع حكمه، ومنافع أحكامه، وهل وجدت آية على كمال الله - تعالى - وسعة علمه أظهر من هذا الإنسان الذي خلقه الله في أحسن تقويم؟..] ا.ه.

# ومع الآيات نسير...

{وَإِذْ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قالُوا أَتَجْعَلُ فِيها مَنْ يُفْسِدُ فِيها وَيَسْفِكُ الدِّماءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ (30)}

هو امتنان من الله سبحانه على خلقه بعد امتنان؛ فبعد ذكره تعالى دلائل وحدانيته ومنته في خلقهم؛ ذكَّرهم بعظيم منته في خلق السماوات والأرض وإعدادهما وتسخيرهما لمسيرة حياة الإنسانية؛ ثم بعد ذلك ذكر تتمة منته سبحانه على خلقه بذكر خلق الإنسان وتكريمه واستخلافه.. لتتكامل لبنات فلسفة الإسلام في الإجابة على الأسئلة الأكثر جدلا في تاريخ الفكر الإنساني حول وجود البشرية والهدف منه.. ولتتضح قيمة الإنسان بين المخلوقات الإلاهية..قال البيضاوي: هذه الآية تعداد لنعمة ثالثة تعم الناس كلهم، فإن خلق آدم وإكرامه وتفضيله على ملائكته بأن أمرهم بالسجود له، إنعام يعم ذريته.ا.ه ([[117]](#footnote-117))..

يخبر تعالى بامتنانه على بني آدم بتنويهه بذكرهم في الملأ الأعلى قبل إيجادهم..

وكانت هذه هى الأولى في بيان مقدار وقيمة الإنسان بين المخلوقات في فلسفة الإسلام.. فإن الآية خرجت مخرج التنويه بالأمر العظيم قبل حصوله.. وكأن هذا الكائن الضعيف الذي يذكره الله تعالى بوصف الخلافة في الأرض قبل خلقه من المكانة عند الله تعالى أن يطالعنا في كتابه الخالد بقصة الحوار الذي حدث حول طبيعته وطبيعة مهمته قبل وجوده.. أفيليق بعد هذا بذلك الإنسان أن يرمي بهذا التكريم في مستنقعات الشرك وعبادة غير الله الخلاق العظيم؟!

يقول تعالى: { وإذ قال ربك للملائكة...} الآية

(وإضافة {رب} إلى محمد - صلى الله عليه وسلم - ومخاطبته بالكاف تشريف منه سبحانه له، وإظهار لاختصاصه بهذا الذكر الحكيم.) ([[118]](#footnote-118)).. وليؤكد ان القرآن هو معجزة المصطفى صلوات الله عليه – الكبرى ودليل نبوته الصادقة.. عن [أبي هريرة](http://library.islamweb.net/newlibrary/showalam.php?ids=3) قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: " ما من الأنبياء نبيٌ إلا أُعطي ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيت وحيا أوحاه الله إلي فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة "([[119]](#footnote-119))..

قال البيضاوي: وقوله تعالى {إني جاعل}: من فعل "جعل " الذي له مفعولان وهما { في الْأَرْضِ خَلِيفَةً }، ويجوز أن يكون " جاعل " بمعنى خالق.

و "الخليفة " من يخلف غيره وينوب منابه، والمراد به آدم عليه الصلاة والسلام لأنه كان خليفة الله في أرضه، وكذلك كل نبي استخلفهم الله في عمارة الأرض وسياسة الناس وتكميل نفوسهم وتنفيذ أمره فيهم، لا لحاجة به تعالى إلى من ينوبه، بل لقصور المستخلف عليه (وهم عوام الناس) عن قبول فيضه، وتلقي أمره بغير وسط، ولذلك لم يستنبئ ملكاً كما قال الله تعالى:{ وَلَوْ جَعَلْناهُ مَلَكاً لَجَعَلْناهُ رَجُلًا }.. ألا ترى أن الأنبياء لما فاقت قوتهم، واشتعلت قريحتهم بحيث { يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لم تمسسه نار}، أرسل إليهم الملائكة.. ومَنْ كان منهم أعلى رتبة كلَّمه بلا واسطة، كما كلم موسى عليه السلام في الميقات، ومحمدا صلّى الله عليه وسلّم ليلة المعراج، ونظير ذلك في الطبيعة أن العظم لما عجز عن قبول الغذاء من اللحم لما بينهما من التباعد، جعل الباري تعالى بحكمته بينهما الغضروف المناسب لهما ليأخذ من هذا ويعطي ذلك.

أو على معنى أنه خليفة يخلف مَن سكن الأرض قبله، أو هو وذريته لأنهم يخلف بعضهم بعضاً ( قلت: وهذا المعنى أيده الطبري و ابن تيمية وابن كثير في تفسيره حيث قال: {إني جاعل في الأرض خليفة} أي قوماً يخلف بعضهم بعضاً قرناً بعد قرن، وجيلاً بعد جيل، كما قال تعالى: {هو الذي جعلكم خلائف الأرض}، وقال: {ويجعلكم خلفاء الأرض}، وليس المراد ههنا بالخليفة آدم عليه السلام فقط كما يقوله طائفة من المفسرين، إذ لو كان ذلك لما حسن قول الملائكة: {أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء}، فإنهم أرادوا أن من هذا الجنس من يفعل ذلك، وكأنهم علموا ذلك بعلم خاص، أو بما فهموه من الطبيعة البشرية، أو أنهم قاسوهم على من سبقهم في الأرض.ا.ه.)

قال البيضاوي: قصد آدم وذريته ولم يقل " خلائف "، وإفراد اللفظ: إما للاستغناء بذكره عن ذكر بنيه كما استغني بذكر أبي القبيلة في قولهم: مضر وهاشم؛ يقصد أبناء قبيلة مضر وهاشم. أو أن " خليفة " على تأويل مَن يخلفكم، أو خلفاً يخلفكم.ا.ه.

قال العلامة ابن عاشور: وقول الله هذا موجه إلى الملائكة على وجه الإخبار ليسوقهم إلى معرفة فضل الجنس الإنساني على وجه يزيل ما علم الله أنه في نفوسهم من سوء الظن بهذا الجنس، وليكون كالاستشارة لهم تكريما لهم فيكون تعليما في قالب تكريم مثل إلقاء المعلم فائدة للتلميذ في صورة سؤال وجواب.. وليسن الاستشارة في الأمور كلها ومن كل الناس فلا يستغني عن الاستشارة كبير أو صغير، ولتنبيه الملائكة على ما دق وخفي من حكمة خلق آدم كذا ذكر المفسرون ([[120]](#footnote-120))..ولإظهار فضله الراجح على ما فيه من المفاسد بسؤالهم، وجوابه وبيان أن الحكمة تقتضي إيجاد ما يغلب خيره، فإن ترك الخير الكثير لأجل الشر القليل شر كثير إلى غير ذلك.([[121]](#footnote-121))

وقد فصَّل القول الشيخ الإمام محمد عبده في تفسيره متأملاً من وجوهٍ فقال:

( أحدها ) أن الله - تعالى - في عظمته وجلاله يرضى لعبيده أن يسألوه عن حكمته في صنعه، وما يخفى عليهم من أسرار في خلقه ولا سيما عند الحيرة، والسؤال يكون بالمقال ويكون بالحال والتوجه إلى الله - تعالى - في استفاضة العلم بالمطلوب من ينابيعه التي جرت سننه - تعالى - بأن يفيض منها ( كالبحث العملي والاستدلال العقلي والإلهام الإلهي ) وربما كان للملائكة طريق آخر لاستفاضة العلم غير معروفة لأحد من البشر فيمكننا أن نحمل سؤال الملائكة على ذلك.

( ثانيهما ) إذا كان من أسرار الله - تعالى - وحكمه ما يخفى على الملائكة فنحن أولى بأن يخفى علينا، فلا مطمع للإنسان في معرفة جميع أسرار الخليقة وحكمها؛ لأنه لم يؤت من العلم إلا قليلا.

( ثالثها ) أن الله - تعالى - هدى الملائكة في حيرتهم، وأجابهم عن سؤالهم لإقامة الدليل بعد الإرشاد إلى الخضوع والتسليم، وذلك أنه بعد أن أخبرهم بأنه يعلم ما لا يعلمون علم آدم الأسماء ثم عرضهم على الملائكة كما سيأتي بيانه.

( رابعها ) تسلية النبي - صلى الله عليه وسلم - عن تكذيب الناس، ومحاجتهم في النبوة بغير برهان على إنكار ما أنكروا وبطلان ما جحدوا، فإذا كان الملأ الأعلى قد مثلوا على أنهم يختصمون ويطلبون البيان والبرهان فيما لا يعلمون، فأجدر بالناس أن يكونوا معذورين، وبالأنبياء أن يعاملوهم كما عامل الله الملائكة المقربين؛ أي فعليك أيها الرسول أن تصبر على هؤلاء المكذبين وترشد المسترشدين، وتأتي أهل الدعوة بسلطان مبين. وهذا الوجه هو الذي يبين اتصال هذه الآيات بما قبلها، وكون الكلام لا يزال في موضوع الكتاب وكونه لا ريب فيه، وفي الرسول وكونه يبلغ وحي الله - تعالى - ويهدي به عباده، وفي اختلاف الناس فيهما.

ومن خواص القرآن الحكيم الانتقال من مسألة إلى أخرى مباينة لها أو قريبة منها مع كون الجميع في سياق موضوع واحد ([[122]](#footnote-122)).....

{قالُوا أَتَجْعَلُ فِيها مَنْ يُفْسِدُ فِيها وَيَسْفِكُ الدِّماءَ}..

(والفساد: ضد الصلاح، وسفك الدم: صبه، قاله ابن فارس والجوهري: ولا يستعمل السفك إلا في الدم، {ونحن نسبح بحمدك} أى نسبحك متلبسين بحمدك على أن شرفتنا وهديتنا لتسبيحك.

والتسبيح في كلام العرب التنزيه والتبعيد من السوء على وجه التعظيم. والتقديس: التطهير، أي ونطهرك عما لا يليق بك مما نسبه إليك الملحدون وافتراه الجاحدون. وقال بعض المفسرين: ونقدس لك: أي نطهر أنفسنا ونهذبها لأجلك.. فقابل الفساد الذي أكبره الشرك بالتسبيح، وقابلوا سفك الدم بتطهير النفس من المعاصي.

ومعنى: { نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ }: ننزِّهك عما لا يليق بصفاتك، وقال ابن عبَّاس وابن مسعود: تسبيحُ الملائكةِ صلاتهم للَّه سبحانه، وقال قتادةُ: تسبيحهم قولهم: «سبحانَ اللَّهِ» على عُرْفِه في اللغة، و{ بِحَمْدِكَ }: معناه نَصِلُ التسبيح بالحمدِ، ويحتمل أن يكون قولهم:{ بِحَمْدِكَ } اعتراضا بين الكلامين؛ كأنهم قالوا: ونحن نسبِّح ونقدِّس، وأنت المحمود في الهداية إِلى ذلك، وخرَّج مسلم في صحيحه عن أبي ذَرٍّ قال: قال لِي رسُولُ اللَّهِ صلّى الله عليه وسلم: «أَلاَ أُخْبِرُكَ بِأَحَبِّ الكَلاَمِ إِلَى اللَّهِ تعالى؟ إِنَّ أَحَبَّ الكَلاَمِ إِلَى اللَّهِ تعالى: «سبحان الله وَبِحَمْدِهِ»، وفي رواية: «سُئِلَ صَلَّى اللَّه عَلَيْه وسلَّم، أَيُّ الكَلاَمِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: مَا اصطفى اللَّهُ لِمَلاَئِكَتِهِ أَوْ لِعِبَادِهِ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ».. وفي صحيحَي البخاريِّ ومسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلم: «كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي المِيزَانِ، حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ الله العظيم»، وهذا الحديث به ختم البخاريُّ رحمه اللَّه صحيحه..

{وَنُقَدِّسُ لَكَ }: قال الضَّحَّاك وغيره: معناه: نُطَهِّرُ أنفسنا لك ابتغاء مرضاتك، والتقديسُ: التطهير بلا خلافٍ، ومنه الأرض المقدَّسة، أي: المطهَّرة، وقال آخرون: {وَنُقَدِّسُ لَكَ }: معناه: نقدِّسك، أي: نعظِّمك ونطهِّر ذكرك ممَّا لا يليقُ به، قاله مجاهد وغيره. انتهى([[123]](#footnote-123))

قال القاضي البيضاوي – رحمه الله:

هذا تَعَجُبٌ من الملائكة أن يستخلف الله سبحانه لعمارة الأرض وإصلاحها مَن يفسد فيها، أو يستخلف مكان أهل الطاعة ( الملائكة) أهل المعصية (من البشر الحمقى الضالين)، واستكشافٌ عما خفي عليهم من الحكمة التي بهرت تلك المفاسد وألغتها، واستخبارٌ عما يرشدهم ويزيح شبهتهم كسؤال المتعلم معلمه عما يختلج في صدره، وليس – أبداً - باعتراضٍ على الله تعالى جلت قدرته، ولا طعناً في بني آدم على وجه الغيبة، فإنهم أعلى من أن يظن بهم ذلك لقوله تعالى: { بَلْ عِبادٌ مُكْرَمُونَ لاَ يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ }.. وإنما عرفوا أن من بني آدم المفسدون وسافكي الدماء إما بإخبارٍ من الله تعالى، أو بتلقي من اللوح المحفوظ، أو باستنباطٍ عما ركز في عقولهم أن العصمة من خواصهم والبشر ليس لهم عصمة وفيهم الشهوات والغضب، أو بقياس لما رأوه من خلق سكن الأرض قبلهم فأفسد وسفك الدماء فقاسوا السابق على الآتي.

{وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ}.. هذه جملة حال.. والمعنى: أتستخلف عصاة ونحن معصومون أحقاء بذلك، والمقصود منه الاستفسار، وليس العجب والتفاخر. وكأنهم علموا أن المجعول خليفة ذو ثلاث قوى عليها مدار أمره: الشهوة والغضب وهما قوتان تؤديان به إلى الفساد وسفك الدماء، وقوة العقل تدعوه إلى المعرفة والطاعة. ونظروا إلى تلك القوى مفردة وقالوا: ما الحكمة في استخلافه، وهو باعتبار هاتين القوتين لا تقتضي الحكمة إيجاده فضلاً عن استخلافه، وأما باعتبار القوة العقلية فنحن – أى الملائكة - نقيم ما يُتوقع منها سليماً عن معارضة تلك المفاسد الحادثة من هذا الجنس الجديد. وغفلوا عن فضيلة كل واحدة من القوتين ( الشهوة والغضب) إذا صارت مُهذَّبة مِطْوَاعة للعقل، متمرنة على الخير كالعفة والشجاعة ومجاهدة الهوى والإنصاف. ولم يعلموا أن وجود هذه الصفات مجتمعة مع تهذيبها يفيد ما يقصر عنه الآحاد، كالإحاطة بالجزئيات واستنباط الصناعات واستخراج منافع الكائنات الذي هو المقصود من استخلاف آدم وذريته، وإليه أشار تعالى إجمالاً بقوله: {قالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ}([[124]](#footnote-124))..

فقصة آدم واستخلافه في الأرض هى فلسفة الارتقاء والتهذيب والرجوع إلى أصل التكريم الرباني في البشرية.. قصة آدم قصة الخطأ والتوبة.. قصة الذنب والاستغفار.. قصة الترقي من السئ إلى الحسن، ومن الحسن للأحسن.. فليس مَن جبل على الطاعة في أصل خلقته كمن رُكِّبَت فيه الشهوات والنقص وهو يجاهد نفسه ليرضي ربه؛ كما قال تعالى { ونفسٍ وما سواها، فألهمها فجورها وتقواها، قد أفلح من زكاها، وقد خاب من دساها }.. هذا هو بيت القصيد الذي لم يدركه ولم يعلمه الملائكة في خضم استعلامهم وتعجبهم الذي قابلهم الله تعالى فيه بإعلامهم بإحاطة ولطيف علمه وأنهم ينبغي لهم التسليم لحكمته تعالى..وكما روى مسلم في صحيحه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللَّهُ بِكُمْ وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ فَيَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ».

يقول العلامة ابن القيم ([[125]](#footnote-125)):

أظهر سُبْحَانَهُ علمه لِعِبَادِهِ ولملائكته بِمَا جعله فِي الارض من خَواص خلقه وَرُسُله وأنبيائه وأوليائه، وَمن يتَقرَّب إليه ويبذل نَفسه فِي محبته ومرضاته مَعَ مجاهدة شَهْوَته وهواه فَيتْرك محبوباته تقربا إليه سبحانه، وَيتْرك شهواته ابْتِغَاء مرضاته، ويبذل دَمه وَنَفسه فِي محبته، ويخصه بِعلم لَا تعلمه الملائكة يسبح بحمد ربه آنَاء اللَّيْل وأطراف النَّهَار، ويعبده مَعَ معارضات الْهوى والشهوة وَالنَّفس والعدو.. إِذْ تعبد الملائكة من غير معَارض يعارضهم وَلَا شَهْوَة تعتريهم وَلَا عَدو يسلطه الله عَلَيْهم بل عبادتهم لله تعالى بِمَنْزِلَة النَّفس لأحدهم ).ا.ه.

و يقول العلامة ابن كثير:

وقول الملائكة هذا ليس على وجه الاعتراض على اللّه، ولا على وجه الحسد لبني آدم كما قد يتوهمه بعض المفسرين، وإنما هو سؤال استعلام واستكشاف عن الحكمة في ذلك، يقولون: يا ربنا ما الحكمة في خلق هؤلاء، مع أن منهم من يفسد في الأرض ويسفك الدماء؟ فإن كان المراد عبادتك فنحن نسبِّح بحمدك ونقدِّس لك أي نصلّي لك ولا يصدر منا شيء من ذلك؟

قال اللّه تعالى مجيباً لهم عن هذا السؤال: {إني أعلم ما لا تعلمون}، أي إني أعلم من المصلحة الراجحة في خلق هذا الصنف على المفاسد التي ذكرتموها ما لا تعلمون أنتم، فإني سأجعل فيهم الأنبياء، ، ويوجد منهم الصديقون والشهداء والصالحون، والعُبَّاد والزهاد، والأولياء والأبرار، والمقربون، والعلماء العاملون، والخاشعون والمحبون له تبارك وتتعالى، المتبعون رسله صلوات اللّه وسلامه عليهم.

وقيل: معنى ذلك: إن لي حكمة مفصلة في خلق هؤلاء لا تعلمونها.. أو {ما لا تعلمون} من وجود إبليس بينكم وليس هو كما وصفتم أنفسكم به. وقيل: بل تضمن قولهم: {أتجعل فيها من يفسد فيها.. الآية} طلباً منهم أن يسكنوا الأرض بدل بني آدم، فقال اللّه تعالى ذلك: {إني أعلم ما لا تعلمون} من أن بقاءكم في السماء أصلح لكم وأليق بكم. ذكرها الرازي مع غيرها من الأجوبة والله أعلم ([[126]](#footnote-126))،

وقال العلامة ابن القيم: فالرب تعالى كان يعلم ما في قلب إبليس من الكفر والكبر والحسد ما لا يعلمه الملائكة. فلما أمرهم بالسجود ظهر ما في قلوب الملائكة من الطاعة والمحبة، والخشية والانقياد، فبادروا إلى الامتثال، وظهر ما في قلب عدوه من الكبر والغش والحسد. فأبى واستكبر وكان من الكافرين. واللّه أعلم.

( ولما كان سؤالهم واقعا على صفة تستلزم إثبات شيء من العلم لأنفسهم.. أجاب الله سبحانه عليهم بقوله: {إني أعلم ما لا تعلمون}.. وفي هذا الإجمال ما يغني عن التفصيل، لأن من عَلِم ما لا يعْلَم مُخاطِبُه كان حقيقاً بأن يُسَلِّم له ذلك المخاطِب ما يصدر عنه، وعلى من لا يعلم أن يعترف لمن يعلم – سبحانه - بأن أفعاله صادرة على ما يوجبه العلم وتقتضيه المصلحة الراجحة والحكمة البالغة.. ولم يذكر مُتَعَلَّق قوله تعالى: {تعلمون}- ( فلم يحدد ماهو الذي يعلمه ولا يعلمونه) - ليفيد التعميم، ويذهب السامع عند ذلك كل مذهب ويعترف بالعجز ويُقِرُّ بالقصور.) ([[127]](#footnote-127))..

قلتُ: وهذا درس هام نتعلمه من هذه المحاورة الربانية الشريفة..فإن التسليم لله تعالى عند المسلم نابعٌ من معرفته بالله سبحانه، وأنه العليم الخبير القدير الحكيم {عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (3)} [سبأ: 3]، {إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ (5) } [آل عمران: 5، 6].. وكل فعله حكمةٌ ورحمةٌ يدور بين العدل والفضل.. وبهذا الدرس الراقي يخرج المؤمن المتدبر لآيات الله منشرح القلب واثق اليقين.

( قَوْله تَعَالَى: {وَعلم آدم الْأَسْمَاء كلهَا} أما آدم إِنَّمَا سمى آدم؛ لِأَنَّهُ خلق من أَدِيم الأَرْض، وَلما خلقه الله تَعَالَى علمه أَسمَاء الْأَشْيَاء بأجمعها.

قَالَ ابْن عَبَّاس: علمه أَسمَاء الْأَشْيَاء حَتَّى الْقَصعَة والقصيعة.

وَإِنَّمَا علمه ذَلِك تكريما وتشريفا لَهُ. وَذَلِكَ دَلِيل على أَن الْأَنْبِيَاء أفضل من الْمَلَائِكَة وَإِن كَانُوا رسلاً كَمَا ذهب إِلَيْهِ أهل السّنة ( والراجح أنها ليست أفضلية بإطلاق فبعض البشر أفضل من بعض الملائكة، وبعض الملائكة خير من بعض البشر).

{ثمَّ عرضهمْ} فَإِن المسميات لما جمعت من يعقل وَمن لَا يعقل؛ كنى بِلَفْظ مَن يعقل تَغْلِيبًا لَهُ.

وَإِنَّمَا عرضهمْ على الْمَلَائِكَة لإِظْهَار فضيلته عَلَيْهِم، فَإِنَّهُم كَانُوا قد قَالُوا: لن يخلق الله خلقا أكْرم عَلَيْهِ منا، فَقَالَ: {أنبئوني} أخبروني {بأسماء هَؤُلَاءِ إِن كُنْتُم صَادِقين} فِيمَا زعمتم.

قَوْله تَعَالَى: {قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا علم لنا إِلَّا مَا علمتنا} قد ذكرنَا معنى التَّسْبِيح. وَمعنى الْآيَة: أَنَّك أجل من أَن نحيط بِشَيْء من علمك؛ إِلَّا الَّذِي علمتنا مِنْهُ.

{إِنَّك أَنْت الْعَلِيم} أَي: الْعَالم {الْحَكِيم} لَهُ مَعْنيانِ أَحدهَا: الْحَاكِم، وَهُوَ القَاضِي بِالْعَدْلِ.

وَالثَّانِي: معنى الْحَكِيم: الْمُحكم لِلْأَمْرِ كَيْلا يتَطَرَّق إِلَيْهِ الْفساد.

قَوْله تَعَالَى: {قَالَ يَا آدم أنبئهم بِأَسْمَائِهِمْ} لما عرضهمْ على الْمَلَائِكَة فعجزوا؛ يَقُول الله تَعَالَى لآدَم: أخْبرهُم بِأَسْمَائِهِمْ {فَلَمَّا أنباهم بِأَسْمَائِهِمْ} فَأخْبرهُم آدم بأسماء تِلْكَ المسميات، وَالْحكمَة الَّتِي لأَجلهَا خلقُوا، فَلَمَّا أخْبرهُم بهَا {قَالَ الله} تَعَالَى للْمَلَائكَة: {ألم أقل لكم إِنِّي أعلم غيب السَّمَوَات وَالْأَرْض} فَإِنَّهُ قد قَالَ لَهُم: {إِنِّي أعلم مَالا تَعْمَلُونَ} وغيب السَّمَوَات وَالْأَرْض كل مَا غَابَ وخفي عَن الْأَبْصَار.

(وَأعلم مَا تبدون) أَي قَوْلكُم: أَتجْعَلُ فِيهَا من يفْسد فِيهَا.

{وَمَا كُنْتُم تكتمون} فِيهِ قَولَانِ: أَحدهمَا: مَا كتموا من قَوْلهم: لن يخلق الله خلقا أكْرم عَلَيْهِ منا.

وَالثَّانِي: مَعْنَاهُ مَا كتمه إِبْلِيس فيهم حِين خلق آدم؛ فَإِنَّهُ قد قَالَ: إِن سلطت عَلَيْهِ لأهلكنه وَإِن سلط عَليّ لَا أطيعه.) ا.ه. ([[128]](#footnote-128))

قال البيضاوي رحمه الله:"قالُوا سُبْحانَكَ لاَ عِلْمَ لَنا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنا" هو اعتراف منهم بالعجز والقصور، وإشعار بأن سؤالهم كان استفساراً ولم يكن اعتراضاً، وأنه قد بان لهم ما خفي عليهم من فضل الإنسان والحكمة في خلقه، وإظهار لشكر نعمته بما عرفهم وكشف لهم ما اشتبه عليهم، ومراعاة للأدب بتفويض العلم كله إليه..{إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيم} الذي لا يخفى عليه خافية. {الْحَكِيم} المحكم لمبدعاته الذي لا يفعل إلا ما فيه حكمة بالغة. ا.ه

«وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْماءَ كُلَّها، ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ، فَقالَ: أَنْبِئُونِي بِأَسْماءِ هؤُلاءِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ. قالُوا: سُبْحانَكَ لا عِلْمَ لَنا إِلَّا ما عَلَّمْتَنا. إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ. قالَ: يا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمائِهِمْ. فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمائِهِمْ، قالَ: أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ: إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ، وَأَعْلَمُ ما تُبْدُونَ وَما كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ»..

يقول سيد قطب في الظلال: ها نحن أولاء نشهد ما شهده الملائكة في الملأ الأعلى.. ها نحن أولاء نشهد طرفاً من ذلك السر الإلهي العظيم الذي أودعه الله هذا الكائن البشري، وهو يسلمه مقاليد الخلافة في الأرض.. سر القدرة على تسمية الأشخاص والأشياء بأسماء يجعلها- وهي ألفاظ منطوقة- رموزاً لتلك الأشخاص والأشياء المحسوسة. وهي قدرة ذات قيمة كبرى في حياة الإنسان على الأرض. ندرك قيمتها حين نتصور الصعوبة الكبرى، لو لم يوهب الإنسان هذه القدرة، والمشقة في التفاهم والتعامل، حين يحتاج كل فرد لكي يتفاهم مع الآخرين على شيء أن يستحضر هذا الشيء بذاته أمامهم ليتفاهموا بشأنه... إنها مشقة هائلة لا تتصور معها حياة! وإن الحياة ما كانت لتمضي في طريقها لو لم يودع الله هذا الكائن القدرة على الرمز بالأسماء للمسميات.ا.ه. ([[129]](#footnote-129))

أقول: هكذا يأتي بعض بيان العبرة والحكمة من خلق هذا المخلوق الضعيف ليكون خليفة الله في أرضه لعمارتها وتوحيد ربه سبحانه.. هذا البيان يأتي في خضم تعليم لبني الإنسان أن يسلموا لله تعالى حكمته وعلمه.. بيانٌ يأتي في صورة اختبار للملائكة يردهم إلى مكانهم وموقعهم بين المخلوقات، فإن كان كلامهم الذي قالوه استعلاماً عن حكمة الله تعالى في خلق مَن يفسد ويسفك الدماء مع وجودهم وهم أهل الطاعة والتسبيح.. إن كان كلامهم هذا يشعر بأنهم ربما رأوا في منة الله بخلقهم ميزاتٍ لا توجد في غيرهم.. جاءت هنا الآيات لتضع كل مخلوقٍ من مخلوقات الله العاقلة في مكانه ووظيفته..والحقيقة أن اختبار الملائكة بما أودع الله تعالى في آدم وذريته من ملكات وخصائص لا توجد في الملائكة الكرام؛ وهى ملكات وخصائص ضرورية لمسيرة حياة الإنسان على الأرض..

هذا الاختبار هو توضيح لحقيقة عقائدية هامة: أن الله تعالى يخلق ويهيئ في خلقه من الخصائص والملكات ما يساعد ما خلقه على إتمام مهمته في الوجود.. فالعبث لا وجود له في قاموس العقيدة الإسلامية.. لأن الله يقول: {أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (115) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ (116)} (المؤمنون: 115، 116)..

ولذلك يقترن الخلق مع الهداية في القرآن: {سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (1) الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى (2) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى (3) } (الأعلى: 1 – 4)..والهداية المقترنة بالخلق ههنا هى هداية كل المخلوقات صغرت أو كبرت لوظائفها ومهامها في الحياة والوجود..

وهكذا كل عضو وكل آلة في جسم الإنسان والحيوان والنبات؛ بل والجماد.. وكل وظيفةٍ في ذلك؛ كلها هداها الله تعالى لمهمتها في الحياة.. وهذا في ذاته دليلٌ عظيم من أدلة وحدانية الله لا يدركه إلا المتأملون في خلق الله المتدبرون لمعاني كلامه...

يقول الرازي:

وقوله تعالى:{قَدَّرَ } يَتَنَاوَلُ الْمَخْلُوقَاتِ فِي ذَوَاتِهَا وَصِفَاتِهَا كُلَّ وَاحِدٍ عَلَى حَسَبِهِ.. فالله سبحانه قدر السموات وَالْكَوَاكِبَ وَالْعَنَاصِرَ وَالْمَعَادِنَ وَالنَّبَاتَ وَالْحَيَوَانَ وَالْإِنْسَانَ بِمِقْدَارٍ مَخْصُوصٍ مِنَ الخلق لا يصلح لها إلا ما قدَّره الله تعالى، وَقَدَّرَ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا مِنَ الْبَقَاءِ مُدَّةً مَعْلُومَةً وَمِنَ الصِّفَاتِ وَالْأَلْوَانِ وَالطَّعُومِ وَالرَّوَائِحِ وَالْأَوْضَاعِ وَالْحُسْنِ وَالْقُبْحِ وَالسَّعَادَةِ وَالشَّقَاوَةِ وَالْهِدَايَةِ وَالضَّلَالَةِ مِقْدَارًا مَعْلُومًا مثلمَا قَالَ تعالى: { وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنا خَزائِنُهُ، وَما نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ } (الْحِجْرِ: 21).. وَتَفْصِيلُ هَذِهِ الْجُمْلَةِ مِمَّا لَا يَفِي بِشَرْحِهِ الْمُجَلَّدَاتُ، بَلِ الْعَالَمُ كُلُّهُ مِنْ أَعْلَى عِلِّيِّينَ إِلَى أَسْفَلِ السَّافِلِينَ، تَفْسِيرُ هَذِهِ الْآيَةِ. وَتَفْصِيلُ هَذِهِ الْجُمْلَةِ.

أَمَّا قَوْلُهُ تعالى:{ فَهَدى } عِبَارَةٌ عَنْ خَلْقِ الْقُوَى فِيما خلق سبحانه بِحَيْثُ تَكُونُ كُلُّ قُوَّةٍ مَصْدَرًا لِفِعْلٍ مُعَيَّنٍ، وَيَحْصُلُ مِنْ مَجْمُوعِهَا تَمَامُ الْمَصْلَحَةِ ومهمة الخلق، وَقَالَ آخَرُونَ: هَدَاهُ لِلْمَعِيشَةِ وَرَعَاهُ، وَقَالَ آخَرُونَ: هَدَى الْإِنْسَانَ لِسُبُلِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ وَالسَّعَادَةِ وَالشَّقَاوَةِ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُ جَعَلَهُ حَسَّاسًا مدركاً مُتَمَكِّنًا مِنَ الْإِقْدَامِ عَلَى مَا يَسُرُّهُ وَالْإِحْجَامِ عَمَّا يَسُوءُهُ؛ كَمَا قَالَ تعالى: { إِنَّا هَدَيْناهُ السَّبِيلَ إِمَّا شاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً } (الْإِنْسَانِ: 3)، وَقَالَ: { وَنَفْسٍ وَما سَوَّاها فَأَلْهَمَها فُجُورَها وَتَقْواها } (الشَّمْسِ: 7، 8)، وَقَالَ الْفَرَّاءُ: قَدَّرَ فَهَدَى وَأَضَلَّ، فَاكْتَفَى بِذِكْرِ الهداية عن الإضلال وكلاهما من الله..وَقَالَ آخَرُونَ: هَدَى أَيْ دَلَّهُمْ بِأَفْعَالِهِ عَلَى تَوْحِيدِهِ وَجَلَالِ كِبْرِيَائِهِ، وَنُعُوتِ صَمَدِيَّتِهِ، وَفَرْدَانِيَّتِهِ، وَذَلِكَ لِأَنَّ الْعَاقِلَ يَرَى فِي العالم أفعال مُحْكَمَةً مُتْقَنَةً مُنْتَسِقَةً مُنْتَظِمَةً، فَهِيَ لَا مَحَالَةَ تَدُلُّ عَلَى الخالق سبحانه، وَقَالَ قَتَادَةُ فِي قَوْلِهِ: {فَهَدى }.. إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى مَا أَكْرَهَ عَبْدًا عَلَى مَعْصِيَةٍ، وَلَا عَلَى ضَلَالَةٍ، وَلَا رَضِيَهَا لَهُ وَلَا أَمَرَهُ بِهَا، وَلَكِنْ رَضِيَ لكم الطاعة، وَأَمَرَكُمْ بِهَا، وَنَهَاكُمْ عَنِ الْمَعْصِيَةِ. انتهى([[130]](#footnote-130))

الخلاصة: أن الله تعالى أودع آدم علم المسميات بأسمائها والتعبير عنها ليستطيع العيش على الأرض، وقد أودعه الله العقل وملكات التعلم والمشاهدة لمسيرة الحياة واكتشافها حتى يعيش عمره كله ليعرف طبائع المخلوقات، ويكتشف أسرارها، ويدرك في كل لحظة من حياته عظمة الخالق العظيم، فيسبح ربه على علمٍ ونظرٍ واعتبارٍ في الوجود.. وهذا من أكبر معاني استخلاف آدم وذريته في الوجود.. {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ (27) وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ (28)} (فاطر: 27، 28)..

يقول صاحب الظلال: ( فلما علم الله آدم هذا السر، وعرض على الملائكة الكرام ما عرض لم يعرفوا الأسماء. لم يعرفوا كيف يضعون الرموز اللفظية للأشياء والشخوص.. وجهروا أمام هذا العجز بتسبيح ربهم، والاعتراف بعجزهم، والإقرار بحدود علمهم، وهو ما علَّمهم سبحانه.. وعرَّف آدم عليه السلام.. ثم كان هذا التعقيب الذي يردهم إلى إدراك حكمة العليم الحكيم:

«قالَ: أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ: إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ، وَأَعْلَمُ ما تُبْدُونَ وَما كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ؟»([[131]](#footnote-131))

وهذه الخاتمة لهذا الدرس الرباني العملي هى الخلاصة الفريدة لعمقٍ هام من أعماق العقيدة في الله تعالى، وأبعادها الثابتة في الإسلام.. وهى التسليم الكامل لله تعالى في علمه وحكمته وتقديره وتدبيره.. وهذا أصل من أول وأهم أصول التوحيد والإيمان...

## لطيفة

قال أبو جعفر الطبري في قوله تعالى { قالَ: أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ: إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ، وَأَعْلَمُ ما تُبْدُونَ وَما كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ}: وأولى هذه الأقوال بتأويل الآية ما قاله ابن عباس، وهو أن معنى قوله: "وأعلم ما تُبدون"، وأعلم ما تُظهرون بألسنتكم، "وما كنتم تكتمون"، وما كنتم تخفونه في أنفسكم.. والذي أظهروه بألسنتهم ما أخبرَ الله جل ثناؤه عنهم أنهم قالوه، وهو قولهم: { أتجعل فيها.. الآية}؛ والذي كانوا يكتمونه، ما كان منطويًا عليه إبليس من الخلاف على الله في أمره، والتكبُّر عن طاعته.

قال: والذي قاله ابن عباس يدلّ على صحته خبرُ الله جل ثناؤه عن إبليس وعصيانه إياه، إذْ دعاه إلى السجود لآدم فأبى واستكبر، وإظهارُه لسائر الملائكة من معصيته وكبره، ما كان له كاتمًا قبل ذلك.

قال: وذلك أنّ من شأن العرب، إذا أخبرتْ خبرًا عن بعض جماعة بغير تسمية شخص بعينه، أن تخرج الخبر عنه مخرج الخبر عن جميعهم، وذلك كقولهم:" قُتل الجيش وهُزموا"، وإنما قتل الواحد أو البعض منهم، وهزم الواحد أو البعض. فتخرج الخبر عن المهزوم منه والمقتول مخرج الخبر عن جميعهم، كما قال جل ثناؤه: {إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ} (سورة الحجرات: 4)، ذُكر أن الذي نادَى رسولَ الله صلى الله عليه وسلم - فنزلت هذه الآية فيه - كان رجلا من جماعة بني تميم، كانوا قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم. فأخرج الخبر عنه مُخرج الخبر عن الجماعة. فكذلك قوله: {وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون}، أخرج الخبر مُخرج الخبر عن الجميع، والمراد به إبليس بينهم.ا.ه.([[132]](#footnote-132))

# قصة الصراع

ثم يبتدأ فصل جديد في قصة آدم – عليه السلام - أو لنقل قصة البشرية بأسرها منذ ابتدائها وإلى مصيرها النهائي.. وذلك الصراع الطويل المرير بين الخير والشر..بين (آدم) وذريته، و(إبليس) وذريته..فهل سيثبت الإنسان جدارته بالتكريم الإلهي، أم سيصدق إبليس؛ ذلك الشيطان اللعين ظنه على بني آدم، ويثبت أنهم ما كانوا أهلاً للتكريم.. إنها قصة الاستكبار والغرور.. قصة الخطأ والتوبة.. قصة الضعف الإنساني أمام الشهوات، وقوته بإنابته لربه سبحانه...

{وإذ قلنا للملائكة: اسجدوا لآدم. فسجدوا}..

إنه التكريم في أعلى صوره، لهذا المخلوق الذي يفسد في الأرض ويسفك الدماء، ولكن الله وهبه من الأسرار ما يرفعه على الملائكة في صورة من الصور. لقد وُهب سر المعرفة، كما وُهب سر الإرادة المستقلة التي تختار الطريق.. إن ازدواج طبيعته التي فيها الإفساد وفيها المعرفة وتكريم الرب سبحانه، وقدرته على تحكيم إرادته في شق طريقه، واضطلاعه بأمانة الهداية إلى الله وعمارة الكون بمنهج الله تعالى.. إن هذا كله هو بعض أسرار تكريمه.

ويبقى المعنى الأرقى في تكريم آدم حين أمر الله الملائكة بالسجود لعظمة الله تعالى وبديع صنعته والمعاني التي أودعها فيه.. فلم يكن السجود لشخص آدم، والسجود ههنا معنى من معاني التكريم وليس سجود العبادة المعهود..

ولقد سجد الملائكة امتثالاً للأمر العلوي الجليل، وإكراماً لصنعة الله في آدم – عليه السلام – وهذا المبدأ الراقي الذي يبين نظرة الإسلام للإنسانية يرسمه القرآن العظيم حين يعلنها صريحةً { أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا }(المائدة: 32 ) ([[133]](#footnote-133))، فالحقيقة أن إزهاق النفس البشرية بغير حقٍ هو في الإسلام جريمةً يفسرها الإسلام على أنها إهانةً للرب العلى في نقض صنعته بغير حق، وإمتهان ما كرّمه سبحانه، وعلى النقيض فإن تكريم هذه النفس البشرية هو تكريم لصنعة الله سبحانه..ولذلك كان القتل من أعظم الذنوب في الإسلام.. فعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله: صلى الله عليه وسلم: " أول ما يقضى بين الناس يوم القيامة في الدماء". رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجه، وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله": لن يزال المؤمن في فسحة من دينه ما لم يصب دما حراما". وقال ابن عمر رضي الله عنهما: "إن من ورطات الأمور التي لا مخرج لمن أوقع نفسه فيها سفك الدم الحرام بغير حله".. رواه البخاري والحاكم وقال: صحيح على شرطهما.

هذه هى نظرة الإسلام للإنسانية..كل الإنسانية.. وحرمة دمائها وأعراضها وأموالها..فكيف يرى العالم المتحضر بكل فلسفاته ودياناته وعقائده الإنسان؟!! أبداً لن يبلغ فكرٌ أو مذهب او اعتقاد ما بلغه الإسلام من تكريمٍ للبشرية، وأى تكريم فوق ان يصرح القرآن أن الروح التي تسري في الإنسان هى خلقٌ خلقه خصوصاً للإنسان، وأن الإنسان ذاته هو صنعة مباشرةً ليد الله تعالى، وانه مخلوق في أحسن تقويم..يقول تعالى: {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (4) } (التين: 4، 5)..وقال سبحانه: {إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ (71) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (72) } (ص: 71 – 73)..

{فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين}..

وهنا تتبدى خليقة الشر مجسمة: عصيان الجليل سبحانه! والاستكبار عن معرفة الفضل لأهله. والعزة بالإثم. والاستغلاق عن الفهم.. والغرور، والحسد.. ومعارضة أمر الله تعالى بالعقل والهوى.. ومعارضة شرعه وما نص عليه بالقياس والتأويلات الفاسدة..

كلها آفات تميز الشر و( الشيطنة) في كل عصرٍ وفي كل مكانٍ.. يعلمها القرآن لكل الأجيال التي تخلف آدم كى تتعظ؛ فلا تسلك طرق العدو اللعين ولا تتبع ضلالاته وزلاته الكبرى...

{ وكان من الكافرين}.. وكفر إبليس لم يكن جهلاً بالله تعالى؛ فاللعين من أعلم الناس به، وإنما كان كفره استكباراً عن أمره، وجحوداً لحكمته وقدره، ووقوفاً مع العصيان والهوى والقياس الباطل.. وهذا المعنى من معاني الكفر يتجاهله الكثيرون وهو من أهم وأشهر معاني الكفر بالله تعالى..

ويوحي السياق أن ابليس لم يكن من جنس الملائكة، إنما كان معهم. فلو كان منهم ما عصى. وصفتهم الأولى أنهم {لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون}.. والاستثناء هنا لا يدل على أنه من جنسهم، فكونه معهم يجيز هذا الاستثناء، كما تقول: جاء بنو فلان إلا أحمد. وليس منهم إنما هو عشيرهم؛ وإبليس من الجن بنص القرآن، والله خلق الجان من مارج من نار. وهذا يقطع بأنه ليس من الملائكة.

قال جل ثناؤه:{.. إِلا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ} (سورة الأعراف: 11-12)، فأخبر جل ثناؤه أنه قد أمر إبليس فيمن أمرَه من الملائكة بالسجود لآدمَ. ثم استثناه جل ثناؤه مما أخبر عنهم أنهم فعلوه من السجود لآدمَ.. فالاستثناء هنا منقطع متعلق بأمر السجود وليس الاستثناء على حقيقته من جنس الملائكة.

قال أبو جعفر: وإبليس "إفعِيل"، من الإبلاس، وهو الإياس من الخير والندمُ والحزن، وكما قال الله جل ثناؤه: {فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ} (سورة الأنعام: 44)، يعني به: أنهم آيسون من الخير، نادمون حزنًا.. عن ابن عباس، قال: إبليس، أبلسه الله من الخير كله، وجعله شيطانًا رجيمًا عقوبة لمعصيته. وعن قتادة قال:كانت الطاعة لله، والسجدة لآدم، أكرم الله آدم أن أسْجَد له ملائكته. ([[134]](#footnote-134))

قال الطبري: وهذا، وإن كان من الله جل ثناؤه خبرًا عن إبليس، فإنه تقريعٌ لضُربائه من خلق الله الذين يتكبرون عن الخضوع لأمر الله، والانقيادِ لطاعته فيما أمرهم به وفيما نهاهم عنه، والتسليم له فيما أوجب لبعضهم على بعض من الحق. ا.ه.

روى الإمام مسلم في صحيحه – بسنده - عن أبي هريرة قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم: ( إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد؛ اعتزل الشيطان يبكي؛ يقول: يا ويله (وفي روايةٍ: يا ويلي)؛ أُمِر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة، وأُمرت بالسجود فأبيتُ ( وفي روايةٍ: فعصيت) فلي النار ).. ([[135]](#footnote-135))

أبى إبليس طاعة ربه وقاس بعقله الفاسد {قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (12)} (الأعراف: 12).. ذكر البغوي عن ابن عباسٍ قال: أول من قاس إبليس فأخطأ القياس، فمن قاس الدين بشيء من رأيه قرنه الله مع إبليس.وكذلك رواها الطبري في التفسير عن الحسن وابن سيرين.. وقال: يعنيان بذلك القياس الخطأ.. وكذلك ابن تيمية في بيان تلبيس الجهمية قال: وأصل الإشراك الذي هو من القياس الفاسد هو إبليس أول من قاس قياسا فاسدا..

كانت تلك أولى الخطايا وأكبرها: الكبر والحسد ومعرضة امر الله تعالى بالسفسطة والأقيسة العقلية الفاسدة التي تعبد الهوى.. قال ابن كثير رحمه الله: وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ: "لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةِ خَرْدَلٍ مِنْ كِبْرٍ" (رواه مسلم عن ابن مسعود).. وَقَدْ كَانَ فِي قَلْبِ إِبْلِيسَ مِنَ الْكِبْرِ -وَالْكُفْرِ -وَالْعِنَادِ مَا اقْتَضَى طَرْدَهُ وَإِبْعَادَهُ عَنْ جَنَابِ الرَّحْمَةِ وَحَضْرَةِ الْقُدْسِ. ا.ه.

والآن. لقد انكشف ميدان المعركة الخالدة. المعركة بين خليقة الشر في إبليس، وخليفة الله في الأرض. تلك المعركة الخالدة في ضمير الإنسان ومسرح الحياة على الأرض.. وتبدأ المعركة في السماء، وتستمر على الأرض، فيكون المعنى: أن الرجوع للسماء يكون حين ينتصر الإنسان على الشر ويعصي الشيطان ويطيع منهج ربه سبحانه.

إنها المعركة التي ينتصر فيها الخير بمقدار ما يستعصم الإنسان بربه ويرتقي بإرادته ويقف مع تكريم الله فيه، وينتصر فيها الشر بمقدار ما يستسلم الإنسان لشهوته. ويبعد عن ربه ويترك منهجه ونوره؛ ولعل هذا الدرس يتبين لنا في وضوح من خلال خير البشرية الأنبياء؛ وكيف أنهم حين اعتصموا بالله وحكّموا إرادتهم وقيمهم الراقية استطاعوا أن ينتصروا على الشهوة والشر.. ويكفيك هذا المثل الإنساني الراقي في يوسف عليه السلام.. {وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (23)} (يوسف: 23).. هذه هى الإرادة والقيم وأما الاعتصام بالله ففي قوله عليه السلام: {قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ (33)} (يوسف: 33)..

هذه هى المعركة، وهذه هى ضوابط النصر والنجاة والفلاح، فهل من متعظ؟!



قال تعالى: {وقلنا: يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة، وكلا منها رغدا حيث شئتما، ولا تقربا هذه الشجرة، فتكونا من الظالمين}.

قال القاضي البيضاوي: {وَلا تَقْرَبا هذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونا مِنَ الظَّالِمِينَ } فيه مبالغة تعليق النهي بالقرب الذي هو من مقدمات التناول مبالغة في تحريمه، ووجوب الاجتناب عنه، وتنبيهاً على أن القرب من الشيء يورث داعيةً، وميلاً يأخذ بمجامع القلب ويلهيه عما هو مقتضى العقل والشرع، كما روي «حبك الشيء يعمي ويصم»، فينبغي أن لا يحوما حول ما حرم الله عليهما مخافة أن يقعا فيه، وجعله سبباً لأن يكونا من الظالمين الذين ظلموا أنفسهم بارتكاب المعاصي، أو بنقص حظهما بالإتيان بما يخل بالكرامة والنعيم، فإن الفاء تفيد السببية.ا.ه.([[136]](#footnote-136))

لقد أبيحت لهما كل ثمار الجنة.. إلا شجرة.. شجرة واحدة، ربما كانت ترمز في قصة البشرية للمحظور الذي لا بد منه في حياة الأرض. فبغير المحظور لا تنبت الإرادة، ولا يتميز الإنسان المريد العاقل الذي لا تتملكه شهوته من الحيوان المسوق، ولا يُمتحن صبر الإنسان على الوفاء بالعهد الرباني، والتقيد بالشرط في تكريم الإنسان وخلافته في الأرض. فالإرادة هي مفرق الطريق. والذين يستمتعون بلا إرادةٍ ولا تحكم في شهوانهم هم من عالم البهيمة، ولو بدوا في شكل الآدميين!

وقد قرأت لبعض العلماء: أن الإنسان فيه الشهوة والعقل؛ فإن غلبت شهوته عقله صار إلى الحيوان الأعجم أقرب، وإن غلب عقله هواه وشهوته صار إلى الملائكة أقرب..

قال ابن كثير: وَأَمَّا قَوْلُهُ: {وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ} فَهُوَ اخْتِبَارٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى وَامْتِحَانٌ لِآدَمَ. وَقَدِ اخْتُلِفَ فِي هَذِهِ الشَّجَرَةِ: مَا هِيَ؟ قَالَ الْإِمَامُ الْعَلَّامَةُ أَبُو جَعْفَرِ بْنُ جَرِيرٍ، رَحِمَهُ اللَّهُ: وَالصَّوَابُ فِي ذَلِكَ أَنْ يُقَالَ: إِنَّ اللَّهَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ نَهَى آدَمَ وَزَوْجَتَهُ عَنْ أَكْلِ شَجَرَةٍ بِعَيْنِهَا مِنْ أَشْجَارِ الْجَنَّةِ، دُونَ سَائِرِ أَشْجَارِهَا، فَأَكَلًا مِنْهَا، وَلَا عِلْمَ عِنْدِنَا بِأَيِّ شَجَرَةٍ كَانَتْ عَلَى التَّعْيِينِ؟ لِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَضَعْ لِعِبَادِهِ دَلِيلًا عَلَى ذَلِكَ فِي الْقُرْآنِ وَلَا مِنَ السُّنَّةِ الصَّحِيحَةِ.([[137]](#footnote-137))

قلتُ: إن التفاصيل التي لا تفيد في جانب العظة والهداية والمغزى العقائدي والأخلاقي لا تجد لها مكاناً في القصص القرآني، وبذلك يتمحض القصص القرآني ليؤدي غرضه العظيم في منظومة النور الرباني في القرآن دون تفاصيل مملة تخرج عن المغزى والهدف..قال ابن كثير: وَغَالِبُ ذَلِكَ مِمَّا لَا فَائِدَةَ فِيهِ تَعُودُ إِلَى أَمْرٍ دِينِيٍّ؛ وَلِهَذَا يَخْتَلِفُ عُلَمَاءُ أَهْلِ الْكِتَابِ فِي هَذَا كَثِيرًا، وَيَأْتِي عَنِ الْمُفَسِّرِينَ خِلَافٌ بِسَبَبِ ذَلِكَ، كَمَا يَذْكُرُونَ فِي مِثْلِ هَذَا أَسْمَاءَ أَصْحَابِ الْكَهْفِ، وَلَوْنَ كَلْبِهِمْ، وَعِدَّتِهِمْ، وَعَصَا مُوسَى مِنْ أَيِّ الشَّجَرِ كَانَتْ؟ وَأَسْمَاءَ الطُّيُورِ الَّتِي أَحْيَاهَا اللَّهُ لِإِبْرَاهِيمَ، وَتَعْيِينَ الْبَعْضِ الَّذِي ضُرِبَ بِهِ الْقَتِيلُ مِنَ الْبَقَرَةِ، وَنَوْعَ الشَّجَرَةِ الَّتِي كلَّم اللَّهُ مِنْهَا مُوسَى، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا أَبْهَمَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْقُرْآنِ، مِمَّا لَا فَائِدَةَ فِي تَعْيِينِهِ تَعُودُ عَلَى الْمُكَلَّفِينَ فِي دُنْيَاهُمْ وَلَا دِينِهِمْ.. كَمَا قَالَ تَعَالَى: {سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلا قَلِيلٌ فَلا تُمَارِ فِيهِمْ إِلا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا} (الْكَهْفِ: 22)، فَقَدِ اشْتَمَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ عَلَى الْأَدَبِ فِي هَذَا الْمَقَامِ وَتَعْلِيمِ مَا يَنْبَغِي فِي مِثْلِ هَذَا، فَإِنَّهُ تَعَالَى أَخْبَرَ عَنْهُمْ بِثَلَاثَةِ أَقْوَالٍ، ضَعَّفَ الْقَوْلَيْنِ الْأَوَّلَيْنِ وَسَكَتَ عَنِ الثَّالِثِ، فَدَلَّ عَلَى صِحَّتِهِ إِذْ لَوْ كَانَ بَاطِلًا لَرَدَّهُ كَمَا رَدَّهُمَا، ثُمَّ أَرْشَدَ عَلَى أَنَّ الِاطِّلَاعَ عَلَى عِدَّتِهِمْ لَا طَائِلَ تَحْتَهُ، فَقَالَ فِي مِثْلِ هَذَا: {قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ} فَإِنَّهُ مَا يَعْلَمُ بِذَلِكَ إِلَّا قَلِيلٌ مِنَ النَّاسِ، مِمَّنْ أَطْلَعَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ؛ فَلِهَذَا قَالَ: {فَلا تُمَارِ فِيهِمْ إِلا مِرَاءً ظَاهِرًا} أَيْ: لَا تُجْهِدْ نَفْسَكَ فِيمَا لَا طَائِلَ تَحْتَهُ، وَلَا تَسْأَلْهُمْ عَنْ ذَلِكَ فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا رَجْمَ الْغَيْبِ. انتهى ([[138]](#footnote-138))

قال تعالى: {فأزلهما الشيطان عنها، فأخرجهما مما كانا فيه}..

جاء في الظلال: ويا للتعبير المصور: {أزلهما}.. إنه لفظ يرسم صورة الحركة التي يعبر عنها. وإنك لتكاد تلمح الشيطان وهو يزحزحهما عن الجنة، ويدفع بأقدامهما فتزل وتهوي!

عندئذ تمت التجربة: نسي آدم عهده، وضعف أمام الغواية.

وكل آفة البشرية من هذا النسيان وهذا الضعف أمام الشهوة والغواية {وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا (115) } (طه: 115، 116)

قَالَ فَخْرُ الدِّينِ الرازي في تفسيره الكبير: اعْلَمْ أَنَّ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ تَهْدِيدًا عَظِيمًا عَنْ كُلِّ الْمَعَاصِي: أَنَّ مَنْ تَصَوَّرَ مَا جَرَى عَلَى آدَمَ بِسَبَبِ إِقْدَامِهِ عَلَى هَذِهِ الزَّلَّةِ الصَّغِيرَةِ كَانَ عَلَى وَجَلٍ شَدِيدٍ مِنَ الْمَعَاصِي صغيرها وكبيرها، قَالَ الشَّاعِرُ:

يَا نَاظِرًا يَرْنُو بِعَيْنَيْ رَاقِدٍ............ وَمُشَاهِدًا لِلْأَمْرِ غَيْرَ مُشَاهِدِ.

تَصِلُ الذُّنُوبَ إِلَى الذُّنُوبِ وَتَرْتَجِي... دَرَجَ الْجِنَانِ وَنَيْلَ فَوْزِ الْعَابِدِ.

أَنَسِيتَ رَبَّكَ حِينَ أَخْرَجَ آدَمًا....... مِنْهَا إِلَى الدُّنْيَا بِذَنْبٍ وَاحِدِ.

وقَالَ: عَنْ فَتْحٍ الْمَوْصِلِيِّ يقول: كُنَّا قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَسَبَانَا إِبْلِيسُ إِلَى الدُّنْيَا، فَلَيْسَ لَنَا إِلَّا الْهَمُّ وَالْحُزْنُ حَتَّى نُرَدَّ إِلَى الدَّارِ الَّتِي أُخْرِجْنَا مِنْهَا. ([[139]](#footnote-139))

وعندئذ حقت كلمة الله، وكتب قضاؤه:

{وقلنا: اهبطوا.. بعضكم لبعض عدو، ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين}..

وكان هذا إيذاناً بانطلاق المعركة في مجالها المقدَّر لها. بين الشيطان والإنسان.. على الأرض إلى آخر الزمان.

ونهض آدم من عثرته، بما ركب في فطرته، وأدركته رحمة ربه التي تدركه دائما عندما يثوب إليها ويلوذ بها.

وتمت كلمة الله الأخيرة، وعهده الدائم مع آدم وذريته. عهد الاستخلاف في هذه الأرض، وشرط الفلاح فيها أو البوار.. لقد كان هذا القانون الذي لا يتبدل، والحق الذي لا محيص عنه..

قال ابن الجوزي:

وفي العداوة المذكورة هاهنا ثلاثة أقوال: أحدها: أن ذرية بعضهم أعداء لبعض، قاله مجاهد.

والثاني: أن إبليس عدو لآدم وحواء، وهما له عدو، قاله مقاتل.

والثالث: أن إبليس عدو للمؤمنين، وهم أعداؤه، قاله الزجاج.

وفي المستقر قولان: أحدهما: أن المراد به القبور، حكاه السدي عن ابن عباس.

والثاني: أى موضع الاستقرار، قاله أبو العالية، وابن زيد، والزجاج، وابن قتيبة، وهو أصح.

والمتاع: المنفعة. والحين: الزمان. قال ابن عباس: إِلى حِينٍ، أي: إلى فناء الأجل بالموت.([[140]](#footnote-140))

قال تعالى: {فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه، إنه هو التواب الرحيم}..

قِيلَ: إِنَّ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ مُفَسَّرَةٌ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: {قَالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ} (الْأَعْرَافِ: 23)

قال ابن كثير:وَقَوْلُهُ تَعَالَى: {إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ} أَيْ: إِنَّهُ يَتُوبُ عَلَى مَنْ تَابَ إِلَيْهِ وَأَنَابَ، كَقَوْلِهِ: {أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ} (التَّوْبَةِ: 104) وَقَوْلُهُ: {وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا} (النِّسَاءِ: 11)، وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى أَنَّهُ تَعَالَى يَغْفِرُ الذُّنُوبَ وَيَتُوبُ عَلَى مَنْ يَتُوبُ وَهَذَا مِنْ لُطْفِهِ بِخَلْقِهِ وَرَحْمَتِهِ بِعَبِيدِهِ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ.انتهى

سئل بعض سلف المسلمين عما ينبغي أن يقوله المذنب، فقال: يقول ما قال أبواه:{ رَبَّنا ظَلَمْنا أَنْفُسَنا}. وما قال موسى:{رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي} (القصص: 16). وما قال يونس: {لا إِلهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ}. (الأنبياء: 87).

والتوبة من الله تعالى الرجوع على عبده بالرحمة والتوفيق، والتوبة من العبد الرجوع عن المعصية والندم على الذنب مع تركه فيما يستأنف وإنما خص الله تعالى آدم بالذكر هنا في التلقي والتوبة، وحواء مشاركة له في ذلك بإجماع لأنه المخاطب في أول القصة بقوله: اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فلذلك كملت القصة بذكره وحده، وأيضا فلأن المرأة حرمة ومستورة فأراد الله الستر لها، ولذلك لم يذكرها في المعصية في قوله تعالى: {وَعَصى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوى} (طه: 121).([[141]](#footnote-141))

قال الغزالي رحمه الله في الإحياء: (..إن التوبة عن الذنوب بالرجوع إلى ستار العيوب وعلام الغيوب مبدأ طريق السالكين، ورأس مال الفائزين، وأول أقدام المريدين، ومفتاح استقامة المائلين، ومطلع الاصطفاء والاجتباء للمقربين، وما أجدر بالأولاد الاقتداء بالآباء والأجداد، فلا غرو إن أذنب الآدمي واجترم؛ جبر بعد ما كسر وعمر بعد أن هدم. ولقد قرع آدم – عليه السلام - سن الندم. وتندم على ما سبق منه وتقدم. فمن اتخذه قدوة في الذنب دون التوبة فقد زلت به القدم.

بل التجرد لمحض الخير دأب الملائكة المقربين. والتجرد للشر دون التلافي سجية الشياطين. والرجوع إلى الخير بعد الوقوع في الشر ضرورة الآدميين. فالمتجرد للخير ملك مقرب عند الملك الديان. والمتجرد للشر شيطان. والمتلافي للشر بالرجوع إلى الخير بالحقيقة إنسان. فقد ازدوج في طينة الإنسان شائبتان. واصطحب فيه سجيتان. وكل عبد مصحِّحٌ نَسبه إما إلى الملك , أو إلى آدم، أو إلى الشيطان. فالتائب قد أقام البرهان على صحة نسبه إلى آدم؛ بملازمة حد الإنسان. والمصر على الطغيان مسجل على نفسه بنسب الشيطان. فإما تصحيح النسب إلى الملائكة بالتجرد لمحض الخير فخارج عن حيز الإمكان. فإن الشر معجون مع الخير في طينة آدم عجنا محكما لا يخلصه إلا إحدى النارين نار الندم أو نار جهنم. فالإحراق بالنار ضروري في تخليص جوهر الإنسان من خبائث الشيطان. وإليك الآن اختيار أهون النارين والمبادرة إلى أخف الشرين؛ قبل أن يطوى بساط الاختيار وتساق إلى دار الاضطرار.. إما إلى الجنة وإما إلى النار. ) ا.ه.

لقد تاب آدم عليه السلام، وقبل الله تعالى توبته بعد أن وفَّقه لها..فلله الحمد والمنة في الأولى والآخرة..

{قلنا: اهبطوا منها جميعاً. فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون. والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون}..

يقول العلامة البيضاوي:

{قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْها جَمِيعاً }..كرر فعل الهبوط في آيتين للتأكيد، وقيل: لاختلاف المقصود، فإن الهبوط الأول دل على أن هبوطهم إلى دار البلِيّة يتعادون فيها ولا يخلدون، والهبوط الثاني أشعر بأنهم أهبطوا لأجل التكليف والامتحان، فمن اقتفى الهدى نجا، ومن ضله هلك، والتنبيه هنا على أن مخافة الهبوط المقترن بأحد هذين الأمرين ( البلية والامتحان ) وواحدها كافي للحازم أن تعوقه عن مخالفة حكم الله سبحانه وتعالى، فكيف بكلاهما، ولكن الإنسان {نسي وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً }، وأن كل واحد منهما كفى به نكالاً لّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ.

وقيل: الهبوط الأول من الجنة إلى السماء الدنيا، و الهبوط الثاني من السماء إلى الأرض.

وكلمة {جَمِيعاً } حال في اللفظ تأكيد في المعنى كأنه قيل: اهبطوا أنتم أجمعون..انتهى ([[142]](#footnote-142))

قال العلامة السعدي:

كرر الإهباط، ليرتب عليه ما ذكر وهو قوله: {فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى} أي: أيَّ وقت وزمان جاءكم مني -يا معشر الثقلين- هدى، أي: رسول وكتاب يهديكم لما يقربكم مني، ويدنيكم مني; ويدنيكم من رضائي، {فمن تبع هداي} منكم، بأن آمن برسلي وكتبي، واهتدى بهم، وذلك بتصديق جميع أخبار الرسل والكتب، والامتثال للأمر والاجتناب للنهي، {فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ}.

وفي الآية الأخرى: {فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى}.

فرتب على اتباع هداه أربعة أشياء:

نفي الخوف والحزن والفرق بينهما، أن المكروه إن كان قد مضى، أحدث الحزن، وإن كان منتظرا، أحدث الخوف، فنفاهما عمن اتبع هداه وإذا انتفيا، حصل ضدهما، وهو الأمن التام، وكذلك نفي الضلال والشقاء عمن اتبع هداه وإذا انتفيا ثبت ضدهما، وهو الهدى والسعادة، فمن اتبع هداه، حصل له الأمن والسعادة الدنيوية والأخروية والهدى، وانتفى عنه كل مكروه، من الخوف، والحزن، والضلال، والشقاء، فحصل له المرغوب، واندفع عنه المرهوب، وهذا عكس من لم يتبع هداه، فكفر به، وكذب بآياته.

فـ {أولئك أصحاب النار} أي: الملازمون لها، ملازمة الصاحب لصاحبه، والغريم لغريمه، {هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} لا يخرجون منها، ولا يفتر عنهم العذاب ولا هم ينصرون.

وفي هذه الآيات وما أشبهها، انقسام الخلق من الجن والإنس، إلى أهل السعادة، وأهل الشقاوة، وفيها صفات الفريقين والأعمال الموجبة لذلك، وأن الجن كالإنس في الثواب والعقاب، كما أنهم مثلهم، في الأمر والنهي. انتهى.([[143]](#footnote-143))

إن القضية إذن في منهج الله تعالى.. مَن تمسك به نجا وفاز، ومن رماه وراء ظهره كان فريسةً سهلةً للعدو الأبدي لأبينا آدم ولبني آدم عبر الزمان.. {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ (5) إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ (6) الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (7)} (فاطر: 5 – 7)..ففي هذا الآيات يتمحض المبدأ الراقي، ويخلص مضمون وغاية هذه القصة العظيمة، والقرآن يفسر بعضه بعضاً.. فهذه القصة هى تحذير من هذا العدو القديم وحزبه الضالين المتشيطنين الذين جحدوا نور الله في الأرض ونبذوا منهجه فضلوا ومصيرهم النار......

وانتقلت المعركة الخالدة إلى ميدانها الأصيل، وانطلقت من عقالها ما تهدأ لحظةً وما تفتر. وعرف الإنسان في فجر البشرية كيف ينتصر إذا شاء الانتصار، وكيف ينكسر إذا اختار لنفسه الخسار.([[144]](#footnote-144))

# من الدروس الخالدة والفوائد في آيات هذه القصة

في هذه الآيات من العبر والآيات; إثبات الكلام لله تعالى; وأنه لم يزل متكلما; يقول ما شاء; ويتكلم بما شاء; وأنه عليم حكيم، وفيه أن العبد إذا خفيت عليه حكمة الله في بعض المخلوقات والمأمورات فالوجب عليه; التسليم; واتهام عقله; والإقرار لله بالحكمة، وفيه اعتناء الله بشأن الملائكة; وإحسانه بهم; بتعليمهم ما جهلوا; وتنبيههم على ما لم يعلموه.

وفيه فضيلة العلم من وجوه:

منها: أن الله تعرف لملائكته; بعلمه وحكمته، ومنها: أن الله عرفهم فضل آدم بالعلم; وأنه أفضل صفة تكون في العبد، ومنها: أن الله أمرهم بالسجود لآدم; إكراما له; لما بان فضل علمه، ومنها: أن الامتحان للغير; إذا عجزوا عما امتحنوا به; ثم عرفه صاحب الفضيلة; فهو أكمل مما عرفه ابتداء، ومنها: الاعتبار بحال أبوي الإنس والجن; وبيان فضل آدم; وأفضال الله عليه; وعداوة إبليس له; إلى غير ذلك من العبر. ([[145]](#footnote-145))

## يقول الإمام القشيري في اللطائف:

هذا ابتداء إظهار سرّه في آدم وذريته. أمر سبحانه حتى سُلّ من كل بقعة طينة ثم أمر بأن يخمر طينه، وكل واحد من الملائكة يفضى العجب: ما حكم هذه الطينة؟ فلمّا ركب صورته لم يكونوا رأوا مثلها في بديع الصنعة وعجيب الحكمة، فحين قال «إِنِّي جاعِلٌ فِي الْأَرْضِ... » ترجّمت الظنون، وتقسّمت القلوب، وتجنّت الأقاويل، وكان كما قيل:

وكم أبصرت من حسن ولكن... عليك من الورى وقع اختياري

ويقال إن الله سبحانه وتعالى خلق ما خلق من الأشياء ولم يقل في شأن شىء منه ما قال في حديث آدم حيث قال: «إِنِّي جاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً»، فظاهر هذا الخطاب يشبه المشاورة لو كان الأمر من المخلوقين. والحق سبحانه وتعالى خلق الجنان بما فيها، والعرش بما هو عليه من انتظام الأجزاء وكمال الصورة، ولم يقل إنى خالق عرشا أو جنة أو ملكا، وإنما قال ذلك تشريفا وتخصيصا لآدم إني جاعل في الأرض خليفة.

[فصل] ولم يكن قول الملائكة: «أَتَجْعَلُ فِيها مَنْ يُفْسِدُ فِيها» على وجه الاعتراض على التقدير ولكن على جهة الاستفهام، فإن حمل الخطاب على ما يوجب تنزيه الملائكة أولى لأنهم معصومون... قال تعالى «لا يَعْصُونَ اللَّهَ ما أَمَرَهُمْ».

ويقال استخرج الحق سبحانه منهم ما استكنّ في قلوبهم من استعظام طاعاتهم والملاحظة إلى أفعالهم بهذا الخطاب فأفصحوا عن خفايا أسرارهم بقولهم: «وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ». ثم إن الحق سبحانه عرّفهم أن الفضيلة بالعلم أتمّ من الفضيلة بالفعل، فهم كانوا أكثر فعلا وأقدمه، وآدم كان أكثر علما وأوفره، فظهرت فضيلته ومرتبته.

ويقال لم يقل الحق سبحانه: أنهم لا يفسدون فيها ولا يسفكون الدماء؛ بل قال: «إِنِّي أَعْلَمُ ما لا تَعْلَمُونَ»، من غفراني لهم.

ويقال: في تسبيحهم إظهار فعلهم واشتهار خصائصهم وفضلهم، ومن غفرانه لمعاصي بنى آدم إظهار كرمه سبحانه ورحمته، والحق سبحانه غنى عن طاعات كل مطيع، فلئن ظهر بتسبيحهم استحقاق تمدحهم ثبت بالغفران استحقاق تمدح الخالق سبحانه واستحقاقه وحده الحمد على خلقه وأمره.

ويقال: إني أعلم ما لا تعلمون من صفاء عقائد المؤمنين منهم في محبتنا، وذكاء سرائرهم في حفظ عهودنا وإن تدنّس بالعصيان ظاهرهم؛( قلت: فمَن من البشر لا يأتي بمعيب؟ وإنما ذلك دليل الكمال لله تعالى وحده.. وهذا درس مهم في المعاملة مع الله تعالى غافر الذنب وقابل التوب )، كما قيل: وإذا الحبيب أتى بذنبٍ واحد... جاءت محاسنه بألف شفيعِ

ويقال: إني أعلم ما لا تعلمون من محبتي لهم، وأنتم تظهرون أحوالكم، وأنا أخفى عليهم أسراري فيهم ( أقول: وهو درس آخر فهمته الملائكة وجاءنا به القرآن العظيم في فقه المعاملة مع الله تعالى بوجوب التسليم لأمره وحكمه، فهو سبحانه العليم الحكيم )، وفى معناه أنشدوا: ما حطّك الواشون عن رتبةٍ... عندي ولا ضرك مغتابُ

كأنهم أثنوا- ولم يعلموا-... عليكَ عندي بالذي عابوا.

ويقال: إني أعلم ما لا تعلمون من انكسار قلوبهم وإن ارتكبوا قبيح أفعالهم، وصولة قلوبكم عند إظهار تسبيحكم وتقديسكم، فأنتم في رتبة وفاقكم وفى عصمة أفعالكم، وفى تجميل تسبيحكم، وهم منكرون عن شواهدهم، متذللون بقلوبهم، وإن لانكسار قلوب العباد عندنا لذمة ووصلاً ( قلت: وهو كما يقول السلف: رب ذنبٍ أورث ذلاً وانكساراً خير من طاعةٍ أورثت عزاً واستكباراً..لأن أصل العبودية الذل والانكسار بين يدى الله تعالى، ولعل ما حصل من إبليس اللعين بعدُ يشير إلى هذا المعنى بوضوحٍ فتأمله ).

ويقال: أي خطرٍ لتسبيحكم لولا فضلي، وأي ضررٍ من ذنوبهم إذا كان عفوي؟

ويقال: لبّستكم طاعتكم ولبستهم رحمتي، فأنتم في قميص طاعتكم وفى حلّة تقديسكم وتسبيحكم، وهم في تغمد عفوي وفى ستر رحمتي؛ ألبستهم ثوب كرمي، وجللتهم رداء عفوي.. إن أسعدتكم عصمتي فلقد أدركتهم رحمتي.

وإيصال عصمتي بكم عنده وجودكم وتعلّق رحمتي بهم في أزلي.. ولئن كان محسنكم عتيق العصمة فإن مجرمهم غريق الرحمة ( قلت: رويت هذه المعاني عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من وجوه كثيرة منها: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " لَمَّا قَضَى اللَّهُ الْخَلْقَ كَتَبَ كِتَابًا فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ عَرْشِهِ: إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي «. وَفِي رِوَايَةٍ» غَلَبَتْ غَضَبي " متفق عليه، وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللَّهُ بِكُمْ وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ فَيَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ». رَوَاهُ مُسلم)..

ويقال: اتكالهم علىّ زكّى أحوالهم ألجأهم إلى الاعتراف بالجهالة حتى يتبرأوا عن المعارف إلا بمقدار ما مَنّ به الحق عليهم فقالوا: «سُبْحانَكَ لا عِلْمَ لَنا إِلَّا ما عَلَّمْتَنا» ( قلت: وفي هذا المعنى حتى يتعلق المتعلقون برحمة الله تعالى وعلمه وحكمته ويسلمون قياد أمورهم إليه فتصح منهم عرى العبودية.. عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " لَنْ يُنَجِّي أَحَدًا منكمٌ عَمَلٌ". قَالُوا: وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ! صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: " وَلَا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ مِنْهُ بِرَحْمَةٍ، فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَاغْدُوا ورُوحُوا, وَشَيْءٌ مِنَ الدُّلجة والقصد والقصدَ؛ تبلغوا".).

قال الله تعالى:{وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْماءَ كُلَّها ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْماءِ هؤُلاءِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (31)}..

عموم قوله تعالى "الأسماء" يقتضى الاستغراق، واقترانه بقوله سبحانه "كلها" يوجب الشمول والتحقيق، وكما علّمه أسماء المخلوقات كلها- على ما نطق به تفسير ابن عباس وغيره- علّمه أسماء الحق سبحانه، ولكن إنما أظهر لهم محل تخصصه في علمه أسماء المخلوقات، وبذلك المقدار بان رجحانه عليهم، ومَن ليس له رتبة مساواة آدم في معرفة أسماء المخلوقات فأى طمعٍ في مداناته في أسماء الحق، ووقوفه على أسرار الغيب؟

وإذا كان التخصيص بمعرفة أسماء المخلوقات يقتضى أن يصحّ به سجود الملائكة ( تشريفاً لصنعة الله وعلمه وحكمته تعالى في آدم وذريته) فما الظن بمن أكرمه الله بمعرفة أسماء الحق سبحانه وصفاته؟

ويقال: أكرمه في السر بما علّمه ثم بيّن تخصيصه يوم الجهر وقدّمه.

وأما قوله تعالى: «ثُمَّ عَرَضَهُمْ على الملائكة» ثم: حرف تراخ ومُهْلة.. إمّا على آدم فإنه أمهله من الوقت ما تقرر ذلك في قلبه، وتحقق المعلوم له بحقه ثم حينئذ استخبره (سأله) عما تحقّق به واستيقنه. وإمّا على الملائكة فقال لهم على وجه الوهلة: «أَنْبِئُونِي» فلمّا لم يتقدم لهم تعريف تحيّروا، ولمّا تقدم لآدم التعليم أجاب وأخبر، ونطق وأفلح، إظهارا لعنايته السابقة- سبحانه- بشأنه.

وقوله: «إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ» فيه إشارة إلى أنهم تعرّضوا لدعوى (= لإدعاء) الخصوصية، والفضيلة والمزية على آدم، فعرّفهم أن الفضل ليس بتقديم تسبيحهم لكنه في قديم تخصيصه ( لمن يخص وله الخلق والأمر). ولمّا علم الحقّ سبحانه تقاصر علومهم عن معرفة أسماء المخلوقات؛ ثم كلّفهم الإنباء عنها صار فيه أوضح دلالة على أنّ الأمر أمره، والحكم حكمه، فله تكليف المستطيع، ردا على من توهّم أن أحكام الحق سبحانه معلّلة باستحسان أرباب الغفلة بما يدعونه من قضايا العقول، لا بل له أن يلزم ما يشاء لمن يشاء، الحسن ما حكم بتحسينه والقبيح ما حكم بتقبيحه «قلت: وفي هذا رد على المعتزلة الذين يقولون –زوراً وسوء أدب مع الله تعالى-: لا يصح أن يكلف الله تعالى بما لا يُستطاع، والحسن ما حسنه العقل والقبيح ما استقبحه..كما قال القشيري في رسالته: (ولكنهم نزهوا الله من حيث العقل فأخطأوا ونزهه الصوفية من حيث العلم فأصابوا)، والمعتزلة وذيولهم يحكمون عقولهم في أمر الله وحكمته، هداهم الله ووقانا طريقهم ».

(قال الله سبحانه عن اعتذار الملائكة وتسليمهم لربهم الخلق والأمر):{ قالُوا سُبْحانَكَ لا عِلْمَ لَنا إِلاَّ ما عَلَّمْتَنا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (32)}

قدّموا الثناء على ذكر ما اعتذروا به، ونزّهوا حقيقة حكمه عن أن يُعترض عليه وهم المعترضون، يعنى: لا علم لنا بما سألتنا عنه، ، " إنك أنت العليم الحكيم " أي ما تفعله فهو حقّ صدق ليس لأحد عليك حكم، (ولا منك غير الحكمة والعلم).

قال سبحانه: { قالَ يا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمائِهِمْ قالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ ما تُبْدُونَ وَما كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (33)}

من آثار العناية بآدم عليه السّلام أنّه لمّا قال للملائكة: «أَنْبِئُونِي» داخلهم من هيبة الخطاب ما أخذهم عنهم، لا سيما حين طالبهم بإنبائهم إياه ما لم تحط به علومهم. ولما كان حديث عن آدم عليه السّلام ردّه في الإنباء إليهم فقال: «أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمائِهِمْ»، ولم يقل ( أنبئني)، ومخاطبة آدم عليه السلام الملائكة لم يوجب له الاستغراق في الهيبة (قلت: وهو أبلغ في تعليمهم الدرس في معاملة القلوب للحق سبحانه). فلما أخبرهم آدم عليه السّلام بأسماء ما تقاصرت عنها علومهم ظهرت فضيلته عليهم فقال: «أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ» يعنى ما تقاصرت عنه علوم الخلق، وأعلم ما تبدون من الطاعات، وتكتمون من اعتقاد الخيرية على آدم عليه السّلام والصلاة.

[فصل] ولمّا أراد الحق سبحانه أن ينجّى آدم عصمه، وعلّمه، وأظهر عليه آثار الرعاية حتى أخبر بما أخبر به، وحين أراد إمضاء حكمه فيه أدخل عليه النسيان حتى نسى في الحضرة عهده، وجاوز حدّه، فقال الله تعالى: «وَلَقَدْ عَهِدْنا إِلى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً» فالوقت الذي ساعدته العناية تقدم على الجملة بالعلم والإحسان، والوقت الذي أمضى عليه الحكم ردّه إلى حال النسيان والعصيان، كذا أحكام الحق سبحانه فيما تجرى وتمضى، ذلّ بحكمه العبيد، وهو فعّال لما يريد ( قلت: وهو درس جديد وخطير في أن الله تعالى يعز من يعز بعنايته، ويهلك من هلك بإهماله وتركه لجنايته، ولهذا مزيد بيان في قصة آدم وإبليس بعدُ).

[فصل] ولمّا توهموا حصول تفضيلهم بتسبيحهم وتقديسهم عرّفهم أن بساط العز الإلهي مُقدَّسٌ عن التجمل بطاعة مطيع أو التدنس بزِلة جاحدٍ عنيد، فردّهم إلى السجود لآدم أظهر الغَناء عن كل وفاقٍ وخلاف.

يقول تعالى: {وَإِذْ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبى وَاسْتَكْبَرَ وَكانَ مِنَ الْكافِرِينَ (34)}

السجود لا يكون عبادة لعينه ولكن لموافقة أمره سبحانه فيه، فكأن سجودهم لآدم عبادة لله لأنه كان بأمره، وتعظيما لآدم لأنه أمرهم به تشريفا لشأنه، فكأن ذلك النوع خضوع له ولكن لا يسمى عبادة، لأن حقيقة العبادة نهاية الخضوع وذلك لا يصحّ لغيره سبحانه.

ويقال: بيّن أن تقدّسه- سبحانه- بجلاله لا بأفعالهم، وأن التجمّل بتقديسهم وتسبيحهم عائدٌ إليهم، فهو الذي يُجِلُّ من أجلّه بإجلاله لا بأفعالهم، ويعز من أعزّ قدره سبحانه بإعزازه، جلّ عن إجلال الخلق قدرُه، وعزّ عن إعزاز الخلق ذكرُه.

قوله تعالى: «فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ» أبى بقلبه، واستكبر عن السجود بنفسه، {وكان من الكافرين} في سابق حكمه وعلمه. ولقد كان إبليس مدةً في دلال طاعته يختال في قميص موافقته، سلّموا له رتبة التقدم، واعتقدوا فيه استحقاق التخصيص، فصار أمره كما قيل:

وكان سراج الوصل أزهرَ بيننا... فهبّت به ريح من البين فانطفا

كان يحسب لنفسه استحقاق الخيرية، ويحسب استحقاق القربة والخصوصية:

فبات بخيرٍ والدُنَى مطمئنةٌ... وأصبح يوما والزمان تقلبا

فلا سالف طاعةٍ نفعه، ولا آنف رجعةٍ رفعه، ولا شفاعة شفيع أدركته، ولا سابق عناية أمسكته. ومن غلبه القضاء لا ينفعه العناء.

ولقد حصلت من آدم هفوةٌ بشرية، فتداركته رحمةٌ أحدية، وأما إبليس فأدركته شقوةٌ أزلية، وغلبته قسمة وقضية. خاب رجاؤه، وضلّ عناؤه.

قال تعالى: { وَقُلْنا يا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْها رَغَداً حَيْثُ شِئْتُما وَلا تَقْرَبا هذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونا مِنَ الظَّالِمِينَ (35)}

أسكنه الجنة ولكن أثبت مع دخوله شجرة المحنة، ولولا سابق التقدير لكان يبدل تلك الشجرة بالنضارة ذبولا، وبالخضرة يبسا، وبالوجود فقدا، وكانت لا تصل يد آدم إلى الأوراق ليخصفها على نفسه- ويقع منه ما يقع.

ولو تطاولت تلك الشجرة حتى كانت لا تصل إليها يده حين مدّها لم يقع في شأنه كل ذلك التشويش ولكن بدا من التقدير ما سبق به الحكم.

ولا مكان أفضل من الجنة ولا بشرٌ أكيس من آدم، ولا ناصح يقابل قولة إشارة الحق سبحانه عليه ( حين حذره الشجرة)، ولا غريبة منه قبل ارتكابه ما ارتكب، ولا عزيمة أشد من عزيمته- ولكنّ القدرة لا تُكابَر، والحكم لا يُعارَض.

ويقال: لما قال له: «اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْها رَغَداً» كان فيه إشارة إلى أن الذي يليق بالخلق السكون إلى الخلق، والقيام باستجلاب الحظ، وآدم عليه السّلام وحده كان بكل خير وكل عافية، فلمّا جاء الشكل والزوج ظهرت أنياب الفتنة، وانفتح باب المحنة فحين ساكن حواء أطاعها فيما أشارت عليه بالأكل، فوقع فيما وقع، ولقد قيل:داء قديم في بنى آدم... صبوة إنسان بإنسان

[فصل] وكلّ ما منع منه ابن آدم توفرت دواعيه إلى الاقتراب منه.

فهذا آدم عليه السّلام أبيحت له الجنة بجملتها ونهى عن شجرة واحدة، فليس في المنقول أنه مدّ يده إلى شىء من جملة ما أبيح، وكان عيل صبره حتى واقع ما نهى عنه- هكذا صفة الخلق ( قلت: كما يقال في كلامنا الدارج، الممنوع مرغوب.. هذه جبلة الله في البشر ).

[فصل] وإنما نبّه على عاقبة دخول آدم الجنة من ارتكابه ما يوجب خروجه منها حين قال: «إِنِّي جاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً» فإذا أخبر أنه جاعله خليفته في الأرض كيف يمكن بقاؤه في الجنة؟

ويقال: أصبح آدم عليه السّلام محمود الملائكة، مسجود الكافة، على رأسه تاج الوصلة، وعلى وسطه نطاق القربة، وفى جيده رباط الزلفة، لا أحد فوقه في الرتبة، ولا شخص مثله في الرفعة، يتوالى عليه النداء في كل لحظة يا آدم يا آدم. فلم يمس حتى نزع عنه لباسه، وسلب استئناسه، والملائكة يدفعونه بعنف أن اخرج بغير مكث:

وأمنته فأتاح لي من مأمني... مكرا، كذا من يأمن الأحبابا ( قلت: فسبحان من بيده الأمر يهدي ويضل، { كل يومٍ هو في شأن}.. عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَقُول إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلِّهَا بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ من أَصَابِع الرَّحْمَن كقلب وَاحِد يصرفهُ حَيْثُ يَشَاءُ ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الله مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ صَرِّفْ قُلُوبَنَا عَلَى طَاعَتِكَ». رَوَاهُ مُسلم)..

ولمّا تاه آدم عليه السّلام في مشيته لم يلبث إلا ساعة حتى خرج بألف ألف عتاب، وكان كما قيل:

لله درّهم من فتيةٍ بكروا... مثل الملوك وراحوا كالمساكين ( روى عن على بن أبي طالب – رضوان الله عليه – موقوفا قوله: " ألا أنبئكم بالفقيه؟ قالوا: بلى، قال: من لا يقنط الناس من رحمة الله، ولا يؤيسهم من روح الله، ولا يؤمنهم من مكر الله، ولا يدع القرآن رغبة عنه إلى ما سواه، ألا لا خير في عبادة ليس فيها تفقه، ولا في علم ليس فيه تفهم، ولا قراءة ليس فيها تدبر ").

[فصل] نهاه عن قرب الشجرة بأمره، وألقاه فيما نهاه عنه بقهره، ولبّس عليه ما أخفاه فيه من سرّه.

قال سبحانه: {فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطانُ عَنْها فَأَخْرَجَهُما مِمَّا كانا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتاعٌ إِلى حِينٍ (36)}

أزلهما أي حملها على الزّلة، وفى التحقيق: ما صرّفتهما (عن العصمة) إلا القدرة، وما كان تقلبهما إلا في قضاء الله تعالى، أخرجهما عما كانا فيه من الرتبة والدرجة جهرا، ولكن ما ازداد- في حكم الحق سبحانه- شأنهما إلا رفعة وقدرا.

قوله جل ذكره: {وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ}.

أوقع العداوة بينهما وبين الشيطان، ولكن كان سبحانه مع آدم (قلت: والحرب من الله على المستكبر العاصي، ومن كان الله معه و استعانه وعرف حقه فله الظفر.. قال تعالى: «إِنَّ عِبادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ» ولا يهلك الشيطان مَن وسمه وعناه ربه بالعبودية).

[فصل] لو كان لإبليس سلطان على غواية غيره لكان له إمكان في هداية نفسه، وكيف يكون ذلك، والتفرد بالإبداع لكل شىء من خصائص نعته سبحانه وحده؟.

قوله جل ذكره: {فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِماتٍ فَتابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (37)

جرت على لسان آدم مع الحق- سبحانه- كلماتٌ، وأسمع الحقّ- سبحانه- آدم كلماتٍ، وأنشدوا:

وإذا خفنا من الرقباء عينا... تكلمت السرائر في القلوب

وأجمل الحقّ سبحانه القول في ذلك إجمالا ليبقى القصة مستورة، أو ليكون للاحتمال والظنون مساغ.

ويحتمل أن تكون كلمات آدم عليه السّلام اعتذارا وتنصلا، وكلمات الحق سبحانه قبولا وتفضلا. وكذلك قوله عليه السلام: {ربنا ظلمنا أنفسنا....}، وربما كان قوله: أمخرجي يا رب من الجنة؟ فقال: نعم، فقال أتردني إليها؟ فقال: نعم.

ويقال: حين أمر بخروجه من الجنة جعل ما أسمعه إياه من عزيز خطابه زادا، ليكون له تذكرة وعتادا:

وأذكر أيام الحمى ثم انثني على... على كبدي من خشية أن تقطّعا

ومخاطبات الأحباب لا تحتمل الشرح، ولا يحيط الأجانب بها علما، وعلى طريق الإشارة لا على معنى التفسير والتأويل، والحكم على الغيب بأنه كان كذلك وأراد به الحق سبحانه ذلك يُحتَمَل في حال الأحباب عند المفارقة، وأوقات الوداع أن يُقال: إذا خرجت من عندي فلا تنس عهدي، وإن تقاصر عنك يوما خبري فإياك أن تؤثر علىّ غيرى، ومن المحتمل أيضا أن يُقال: إن فاتني وصولك فلا يتأخّرنّ عنى رسولك...

قال تعالى {قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْها جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنْ تَبِعَ هُدايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (38)}

سوء الأدب على البساط يوجب الرد إلى الباب، فلما أساء آدم عليه السّلام الأدب في عين القربة قال الله تعالى: {اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ}، بعد أن كان لكم في محل القربة قرار وَمَتاعٌ إِلى حِينٍ، يستمتعون يسيرا ولكن في آخرهم يعودون إلى الفقر، وأنشدوا:

إذا افتقروا عادوا إلى الفقر حسبة... وإن أيسروا عادوا سراعا إلى الفقر

وحين أخرجه من الجنة وأنزله إلى الأرض بشّره بأنه يردّه إلى حاله لو جنح بقلبه إلى الرجوع فقال: «فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنْ تَبِعَ هُدايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ».

{وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآياتِنا أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (39)}

والذين قابلوا النعمة بغير الشكر، وغفلوا عن التصديق والتحقيق فلهم عذاب أليم مؤجلّ، وفراق معجّل.] ا.ه. ما نقلته من اللطائف النورانية فقه معاملة الله سبحانه في هذه القطعة من القصص القرآني العظيم.. نقلته عن لطائف الإشارات للإمام القشيري بشرح وتصرف وزيادات والله وحده الهادي الودود..([[146]](#footnote-146))

## ومن دروس العقيدة في الآيات: الإيمان بالملائكة

والملائكة جمع ملك وهى في اللغة كما حكى الجوهري في الصحاح ([[147]](#footnote-147)) فقال: والملك من الملائكة واحد وجمع، قال الكسائي: أصله مألك بتقديم الهمزة، من الألوكة وهي الرسالة، ثمَّ قُلِبتْ وقدِّمتْ اللام فقيل ملأَكٌ. وأنشد أبو عبيدة لرجل من عبد القيس جاهلي يمدح بعض الملوك يقول:

فليست لإنْسِيٍّ ولكن لملأَكٍ... تنزَّلَ من جَوِّ السماءِ يَصوبُ

ثم تركت همزته لكثرة الاستعمال، فقيل مَلَكٌ، فلمَّا جمعوه ردُّوها إليه فقالوا ملائكة وملائك أيضا.) ا.ه.

والإيمان بالملائكة الكرام من أركان الإيمان الستة , فالملائكة هم عباد الله المكرمون , وهم مخلوقات من عالم الغيب خلقهم الله تعالى من نور , وهم مقربون إليه عز وجل , قال صلى الله عليه وآله وسلم:"خلقت الملائكة من نور، وخلق الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم" يعني من تراب.., والملائكة مجبولون على الطاعة معصومون من المعاصي , قال الله تعالى عنهم:{لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون} (سورة التحريم6).. وعلينا أن نؤمن بوجود الملائكة وبما ورد في حقهم من صفات وأعمال في الكتاب والسنة , ومن أنكر وجودهم فهو منكر لكلام الله تعالى وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم. فالإيمان بهم ركن من أركان الإيمان التي لا تصح عقيدة المؤمن إلا بها.. قال تعالي:{ءامن الرسول بما أنزل اليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا واليك المصير} (سورة البقرة285).

ومن صفات الملائكة الكرام التي أطلعنا عليها كتاب ربنا وسنة رسوله الصحيحة:

* العصمة من المعصية فقد عصمهم الله تعالى من المعصية , فهم في حالة طاعة دائمة , وهم ممتثلون لأوامره.
* قدراتهم الخارقة حيث أن الله تعالى أعطاهم قدرات خارقة لا يستطيع كل من الجن والإنس الإتيان بها ونستطيع أن نقف على آثار هذه القدرات من خلال معرفتنا بالعذاب الذي أنزله الله تعالى عل أيدي ملائكته ببعض الأقوام الذين استحق عليهم العذاب من الله تعالى بسبب ما وقعوا فيه من الكفر والانحراف والفساد كما فعل الله تعالى بقوم لوط وغيرهم. ومن القدرات الخارقة التي أعطاهم الله تعالى أيضا , قدرتهم على التشكل بالأشكال الجسمية المحسوسة كما حصل عندما جاء الملك جبريل عليه السلام الى سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام على صورة رجل , وشاهده من كان حاضرا من الصحابة رضوان الله تعالى عليهم.
* يختلفون عن البشر في صفاتهم فهم لا يأكلون ولا يشربون ولا ينامون ولا يتزوجون , قال تعالى:{وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا أشَهدوا خلقهم ستكتب شهادتهم ويسألون}(سورة الزخرف19).

ومن أعمال الملائكة الكرام:

ومن حيث أعمال الملائكة الكرام فالملائكة كثر ولا يعلم عددهم الا الله تعالى ويكفينا إشارة إلى كثرتهم ما أخبر به الرسول صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي يقول فيه:"فرفع لي البيت المعمور فسألت جبريل: فقال: هذا البيت المعمور يصلي فيه كل يوم سبعون ألف ملك إذا خرجوا لم يعودوا اليه", وقد أوكل الله تعالى لملائكته أعمالا ليقوموا بها ومن هذه الأعمال:

* تبليغ رسالات الله تعالى فقد أوكل الله تعالى هذه المهمة العظيمة الى جبريل عليه السلام , وقال تعالى:{نزل به الروح الأمين , على قلبك لتكون من المنذرين}(سورة الشعراء 193,194).
* الطاعة الدائمة لله والتسبيح له تعالى فهم في حلة تسبيح وطاعة وحمد دائمة لله تعالى: فقال تعالى:{وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم وقضي بينهم بالحق وقيل الحمدلله رب العالمين}(سورة الزمر75).
* كتابة أعمال البشر إذ أن لكل إنسان ملكان موكلان بمراقبة أعماله وكتابتها وإحصائها وحفظها , سواء أكانت خير أم شر , قال تعالى:{ما يلفظ من قول الا لديه رقيب عتيد}(سورة ق18).
* الدعاء والاستغفار للمؤمنين فمن رحمة الله تعالى بعباده أن سخر الملائكة يستغفرون للمؤمنين ويسألون الله لهم الرحمة والمغفرة , قال تعالى:{ويستغفرون للذين ءامنوا ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم}(سورة غافر7).
* تأييد المؤمنين إذ أن الله تعالى ينزلهم لنصرة المؤمنين من عباده كما حصل مع النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته في غزوة بدر , قال تعالى:{إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين}(سورة الأنفال9).
* حضورهم مجالس الذكر فالذكر من اعظم العبادات التي يتقرب بها العبد الى الله تعالى , والمؤمنون اذا جلسوا يذكرون الله تعالى حفتهم الملائكة بأجنحتها حتى ينتهوا , ثم يكون هؤلاء الملائكة شهودا لهم عند الله تعالى يوم القيامة.
* حفظ الناس ومن الملائكة من هم موكلون بحفظ الإنسان من نومه ويقظته , قال تعالى:{وإن عليكم لحافظين , كراما كاتبين , يعلمون ما تفعلون}(سورة الانفطار10-12).
* قبض الأرواح حيث أوكل الله تعالى مهمة قبض أرواح الناس الذين انتهى أجلهم الى ملائكته , فإذا جاء أجل الإنسان بادر الملك إلى تنفيذ أمر الله تعالى من غير تقديم ولا تأخير , قال تعالى:{قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم ثم الى ربكم ترجعون}(سورة السجدة11).

## نقطة أخرى:

أما عن حقيقة الحوار الذي حدث بين الله تعالى والملائكة فالأولى فيه التسليم لما أخبرنا الله تعالى به من غير بحثٍ في الكيفية وما لا دليل لنا عليه من حس أو خبر غير الغيب الذي وصلنا عن طريق القرآن العظيم وفي هذا يقول العلامة رشيد رضا في تفسير المنار:

إن أمر الخلقة وكيفية التكوين من الشئون الإلهية التي يعز الوقوف عليها كما هي، وقد قص الله علينا في هذه الآيات خبر النشأة الإنسانية على نحو ما يؤثر عن أهل الكتاب من قبلنا، ومثل لنا المعاني في صور محسوسة، وأبرز لنا الحكم والأسرار بأسلوب المناظرة والحوار كما هي سنته في مخاطبة الخلق وبيان الحق، وقد ذهب الأستاذ إلى أن هذه الآيات من المتشابهات التي لا يمكن حملها على ظاهرها؛ لأنها بحسب قانون التخاطب: إما استشارة وذلك محال على الله - تعالى، وإما إخبار منه سبحانه للملائكة واعتراض منهم ومحاجة وجدال وذلك لا يليق بالله - تعالى - أيضا ولا بملائكته، ولا يجامع ما جاء به الدين من وصف الملائكة ككونهم ( لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ) ( 66: 6 ) وقد أورد الأستاذ مقدمة تمهيدية لفهم القصة فقال ما مثاله:

أما الملائكة فيقول السلف فيهم: إنهم خلق أخبرنا الله - تعالى - بوجودهم وببعض عملهم فيجب علينا الإيمان بهم، ولا يتوقف ذلك على معرفة حقيقتهم فنفوض علمها إلى الله - تعالى -، فإذا ورد أن لهم أجنحة نؤمن بذلك، ولكننا نقول: إنها ليست أجنحة من الريش ونحوه كأجنحة الطيور؛ إذ لو كانت كذلك لرأيناها، وإذا ورد أنهم موكلون بالعوالم الجسمانية كالنبات والبحار فإننا نستدل بذلك على أن في الكون عالما آخر ألطف من هذا العالم المحسوس، وأن له علاقة بنظامه وأحكامه، والعقل لا يحكم باستحالة هذا بل يحكم بإمكانه لذاته، ويحكم بصدق الوحي الذي أخبر به.

( قال الأستاذ ): وقد بحث أناس في جوهر الملائكة وحاولوا معرفتهم ولكن من وقفهم الله - تعالى - على هذا السر قليلون. والدين إنما شرع للناس كافة، فكان الصواب الاكتفاء بالإيمان بعالم الغيب من غير بحث عن حقيقته؛ لأن تكليف الناس هذا البحث أو العلم يكاد يكون من تكليف ما لا يطاق، ومن خصه الله - تعالى - بزيادة في العلم فذلك يؤتيه من يشاء، فقد ورد في الصحيح عن أمير المؤمنين علي - كرم الله وجهه - في هذا العلم اللدني الخاص وقد سئل: " هل خصكم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بشيء من العلم؟ فقال: لا والذي فلق الحبة وبرأ النسمة إلا أن يؤتي الله عبدا فهما في القرآن... إلخ. "..

وأما ذلك الحوار في الآيات فهو شأن من شئون الله - تعالى - مع ملائكته، صوره لنا في هذه القصة بالقول والمراجعة والسؤال والجواب، ونحن لا نعرف حقيقة ذلك القول ولكننا نعلم أنه ليس كما يكون منا، وأن هناك معاني قصدت إفادتها بهذه العبارات، وهي عبارة عن شأن من شئونه - تعالى - قبل خلق آدم وأنه كان يعد له الكون، وشأن مع الملائكة يتعلق بخلق نوع الإنسان، وشأن آخر في بيان كرامة هذا النوع وفضله. انتهى.

أقول: وقد أردت تبيان هذه القاعدة لتكون معنا مطردة في مثل هذه الغيبيات والمتشابهات في القرآن العظيم لننبذ بها ما جرت به عقول المتفلسفين والملاحدة والباطنيين وجارت من تأويل ما لم تبلغه أفهامهم أو تدركه عقولهم بجائرٍ من الضلالات والبحث الكلامي العقيم..

فهرس المحتويات

[**تفسير سورة البقرة (1) 1**](file:///E:\كتابة%20منقحة\تفسير%20سورة%20البقرة%20-الأحدث.docx#_Toc379974914)

[**سلسلة تدبر معاني 1**](file:///E:\كتابة%20منقحة\تفسير%20سورة%20البقرة%20-الأحدث.docx#_Toc379974915)

[**وبلاغة القرآن الكريم 1**](file:///E:\كتابة%20منقحة\تفسير%20سورة%20البقرة%20-الأحدث.docx#_Toc379974916)

[**الفقير إلى عفو ربه/ 1**](file:///E:\كتابة%20منقحة\تفسير%20سورة%20البقرة%20-الأحدث.docx#_Toc379974917)

[**محمد عبد المعطي محمد 1**](file:///E:\كتابة%20منقحة\تفسير%20سورة%20البقرة%20-الأحدث.docx#_Toc379974918)

[**نظرة موضوعية عامة على سورة البقرة 5**](#_Toc379974919)

[**أسماؤها ونبذة عنها 5**](#_Toc379974920)

[**فضائلها 6**](#_Toc379974921)

[**مناسبتها للفاتحة قبلها، ولماذا جاءت الأولى بعد أم الكتاب 7**](#_Toc379974922)

[**ترتيبها في النزول 8**](#_Toc379974923)

[**خصوص النزول وعموم اللفظ وروعة النظم.. إعجاز عظيم 10**](#_Toc379974924)

[**الوحدة العضوية في القرآن الكريم.. وعلم المناسبة القرآنية المعجزة. 13**](#_Toc379974925)

[**ما هو سر ترتيب سورة البقرة بعد الفاتحة مباشرة في المصحف الشريف.. وهو ترتيب توقيفي كما هو معلوم؟ 24**](#_Toc379974926)

[**القرآن المكي والمدني في النزول؟!. 28**](#_Toc379974927)

[**ما هى حكمة ترتيب سورة البقرة في النزول في أول ما نزل بعد الهجرة المباركة؟ 31**](#_Toc379974928)

[**ولماذا كثر الحديث عن بني اسرائيل في سورة البقرة، وفي القرآن عموما؟ 38**](#_Toc379974929)

[**نبدأ – بعون الله تعالى – في تدبر معاني سورة البقرة، والحمد لله رب العالمين 41**](#_Toc379974930)

[**{ ألم }.. والحروف المقطعة. 42**](#_Toc379974931)

[**في صفات المؤمنين ( الآيات 2-5) 52**](#_Toc379974932)

[**تفصيلات لغوية ومنهجية لابد منها 54**](#_Toc379974933)

[**من درر البلاغة ولطائف المعاني في هذا المقطع القرآني 56**](#_Toc379974934)

[**وقفة مع بعض معاني التقوى في القرآن الكريم 62**](#_Toc379974935)

[**وقال تعالى في أهل الكفر والتكذيب: ( الآيات 6-8) 66**](#_Toc379974936)

[**فوائد ولطائف: 69**](#_Toc379974937)

[**أما المنافقون (الآيات 8-16) 74**](#_Toc379974938)

[**المنَاسَبَة 74**](#_Toc379974939)

[**التفسير 75**](#_Toc379974940)

[**اللغَة والمعاني 79**](#_Toc379974941)

[**مثلان رائعان في وصف المنافقين 81**](#_Toc379974942)

[**المثل الأول 81**](#_Toc379974943)

[**ومن الملح واللطائف في هذا المثل 85**](#_Toc379974944)

[**المثل الثاني 87**](#_Toc379974945)

[**لمحات بلاغية إعجازية 91**](#_Toc379974946)

[**{ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ..} 96**](#_Toc379974947)

[**{ يا أيها الناس}.. عالمية الإسلام في نداءات الرحمن. 97**](#_Toc379974948)

[**التفسير 101**](#_Toc379974949)

[**في ملامح منهج القرآن في تثبيت العقيدة 109**](#_Toc379974950)

[**مثلٌ في بعوضة 114**](#_Toc379974951)

[**المثل والإعجاز 114**](#_Toc379974952)

[**وعن سبب نزول الآية 116**](#_Toc379974953)

[**المناسبة في الآيات 117**](#_Toc379974954)

[**التفسير والمعاني الراقية 117**](#_Toc379974955)

[**ومن فقه المعاني واللغة في الآية 121**](#_Toc379974956)

[**وعودة للتوحيد دائماً ( الآيات 28، 29) 131**](#_Toc379974957)

[**نكتٌ بلاغية ومعنوية 134**](#_Toc379974958)

[**من مباحث العقيدة: إثبات صفة العلم لله تعالى 136**](#_Toc379974959)

[**قصة الخليقة.. والصراع القديم بين الخير والشر ( الآيات 30-39) 140**](#_Toc379974960)

[**من نكت التدبر والتأمل لهذه الآيات 140**](#_Toc379974961)

[**عبقرية السياق القرآني 140**](#_Toc379974962)

[**القصة في القرآن الكريم.. وقفات مبدأية 142**](#_Toc379974963)

[**حروف المعاني واثر اللغة في تدبر القرآن، واختلاف الاستنباطات من آياته 145**](#_Toc379974964)

[**هل الإنسان خليفة الله في الأرض؟ 148**](#_Toc379974965)

[**ومع الآيات نسير... 157**](#_Toc379974966)

[**لطيفة 168**](#_Toc379974967)

[**قصة الصراع 169**](#_Toc379974968)

[**من الدروس الخالدة والفوائد في آيات هذه القصة 180**](#_Toc379974969)

[**يقول الإمام القشيري في اللطائف: 180**](#_Toc379974970)

[**ومن دروس العقيدة في الآيات: الإيمان بالملائكة 187**](#_Toc379974971)

[**نقطة أخرى: 190**](#_Toc379974972)

1. حسنه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها برقم (588 )/(2/ 135) [↑](#footnote-ref-1)
2. قال الألباني في صحيح الترغيب: حسن لغيره ، وقال في التعليقات الحسان: صحيح ـ دون ((ثلاثة ليال... ))، راجع ((السلسلة الصحيحة)) رقم(588)و ((الضعيفة)) رقم(1349). [↑](#footnote-ref-2)
3. رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وصححه وَأَبُو دَاوُدَ وَابْنُ مَاجَهْ وَالدَّارِمِيُّ ، وقال الألباني: حسن، صحيح أبي داود (1343). [↑](#footnote-ref-3)
4. مستفادٌ من تفسير الألوسي = روح المعاني (1/ 101) بتصرف وصياغةٍ وتلخيص. [↑](#footnote-ref-4)
5. التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور رحمه الله (1/ 202) بتصرف يسير. [↑](#footnote-ref-5)
6. التحرير والتنوير للعلامة الطاهر بن عاشور (1/ 201) الدار التونسية للنشر – تونس ، 1984 هـ. [↑](#footnote-ref-6)
7. في ظلال القرآن (1/ 27) [↑](#footnote-ref-7)
8. تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (4/ 373) [↑](#footnote-ref-8)
9. تفسير ابن كثير ت سلامة (1/ 585) [↑](#footnote-ref-9)
10. راجع ( التناسب في سورة البقرة ) - رسالة ماجستير- للباحث طارق مصطفى محمد حميدة - جامعة القدس/فلسطين. [↑](#footnote-ref-10)
11. الإتقان في علوم القرآن (3/ 369) بتصرف يسير [↑](#footnote-ref-11)
12. الإتقان في علوم القرآن (3/ 370) [↑](#footnote-ref-12)
13. في كتابه الرائع نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (1/ 18) بتصرف يسير، ط. دار الكتاب الإسلامي، القاهرة. [↑](#footnote-ref-13)
14. [ قلتُ ( الباحث): خذ مثلا.. وثاقة الصلة بين الآية و الآية في سورة البقرة:

    فإذا امعنا النظر في الآيات وقفنا على الأمور الآتية:

    1- قد تكون الآية التالية صفة لكلمة فى الآية الأولى كقوله تعالى:

    إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آَمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ (26) الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (27)

    فنلاحظ هنا حسن التخلص الرائع في الانتقال من المثل القرآني لوصف حال هؤلاء الفاسقين الذين لا يؤمنون بآيات الله الباهرة وأمثاله الرائعة..

    2- و قد تكون الآية الثانية توكيدا لفكرة فى اللآية الأولى كقوله تعالى:

    " قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآَخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (94) وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (95) وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (96)".. فنرى الآيات تنتقل من خطاب اليهود الذين يظنون أن لهم حقاً على الله أن يدخلهم الجنة.. يقول لهم: تمنوا الموت ولقاء الله إن كنتم صادقين ، ثم ينتقل الخطاب ليعلق على ذلك الذي ادعوه بأنهم ؛ ولسوء فعالهم لن يتمنوا لقاء الله أبداً ، فهم أحرص الناس على الحياة المادية الفانية ؛ لأنهم يعلمون من قرارة أنفسهم أنهم في الآخرة هم الأخسرون ، فهم يتمنون أكبر قدر من عيشهم الفاسد ولا يرد ذلك النار في الآخرة عنهم.. فأى عظمة يجدها المتدبر لكلام الله وهو يذوب بين أمواجه تسلمه موجة لأخرى بكل سلاسةٍ وجمال...

    3 – وقد تكون الآية الثانية ردا على ما فى الآية الأولى كقوله تعالى:

    "وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (80) بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (81)".. فتأمل رحمك الله – تطالعك عظمة التناسق والتفاعل البلاغي الجليل بين حكاية الاعتقاد الفاسد لليهود ، وتفنيده الرباني الحكيم.. وتقرير الحقيقة الالهية الكبرى في أبلغ أسلوب من التصوير أن الذين أكثروا من الكفر والذنوب حتى أحاطتهم كالموج يحيط بالغريق حتى يغرقه في النار بما كسبت يداه...

    4- و قد تحمل الآية الثانية فكرة مضادة لفكرة سبقتها كقوله تعالى:

    "فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (24) وَبَشِّرِ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (25)".. هذا الاتزان بين البشارة والنذارة.. بين الترهيب والترغيب.. يجلي الحقيقة الالهية العظيمة التي فيها يُعاقب الكافرون ويُثاب المؤمنون..

    5- وقد تكون الآية الثانية تعليلا لحكم ورد فى الآية الولى كقوله تعالى:

    " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ (178) وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (179)".. فقد أردف الحكم الرباني العظيم في القصاص.. بما يبين الحكمة الجليلة منه أنه أى حكم الله أنه عند العقلاء الحكماء حياةٌ ونجاةٌ وصلاح..

    6 – وقد تكون الآية الثانية تحبيبا أو تبغيضا لفكرة وردت فى الآية الأولى كقوله تعالى:

    "الم (1) ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ (2) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (3) وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآَخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (4) أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (5) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (6) خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (7)".. ولا يخفى ما في الآيات من تسلسل واتصال لطيف جميل يصف حال المستجيبين لنور السماء ويردفه بحال الهالكين في ظلمات الكفر والهوى.

    7 – وقد تكون الآية الثانية دليلا على صحة ما ورد فى الآية الأولى وشاهدا داعما لها كقوله تعالى:

    " وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (163)إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآَيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (164)".. فنحن نرى أن الله قرر الحقيقة العليا في ثبوت إلهيته له وحده لا لسواه.. ثم أردف ذلكم التقرير للحقيقة السماوية العظمى بالاستدلال الواقعي العملي على ذلك بما لا يدع مجالا للشك أو التفنيد.

    و من كل هذا يتبين لنا أن الصلة وثيقة بين الآية و الآية ولكن إدراك هذه الصلة يتطلب تريثا و تدبرا.. وقراءةً واعية متأملة في كلام الله العظيم.. وإلا فالكثير منا محجوب عن نور آيات الله بقذر نفسه ودرن ذنوبه.. قال تَعَالَى:" سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأرض بغير الحق".. قيل في التفسير: سأرفع فهم القرآن عن قلوبهم، وفي بعض التفاسير ؛ وقال ابن جريج سأصرفهم عن أن يتفكروا فيها ويعتبروا بها..يقول ابن كثير في تفسيره: يقول تعالى آمرا بتدبر القرآن وتفهمه ، وناهيا عن الإعراض عنه ، فقال: " أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها "(سورة محمد24) أي: بل على قلوب أقفالها ، فهي مطبقة لا يخلص إليها شيء من معانيه.ا.ه. وكما قال عثمان رضي الله عنه: (لو طهرت نفوسنا ما شبعت من كلام الله).. [↑](#footnote-ref-14)
15. أخبرنا محمد بن إبراهيم المُزكي، أخبرنا أبو عمرو بن مطر، أخبرنا أبو خليفة، حدَّثنا أبو الوليد والحوضي قالا: حدَّثنا شعبة قال: أنبأنا أبو إسحاق، قال سمعت البراء [بن عازب] يقول: كانت الأنصار إذا حجوا فجاءوا لا يدخلون من أبواب بيوتهم ولكن من ظهورها، فجاء رجل فدخل من قِبَلِ باب، فكأنما عير بذلك، فنزلت هذه الآية.

    رواه البخاري عن أبي الوليد. ورواه مسلم عن بُنْدَار، عن غُنْدَر عن شعبة.

    أخبرنا أبو بكر التميمي، حدَّثنا أبو الشيخ، حدَّثنا أبو يحيى الرازي، حدَّثنا سهل بن عُبيد، حدَّثنا عبيدة، عن الأعمش، عن أبي سفيان؛ عن جابر قال: كانت قريش تدعى الحُمُس، وكانوا يدخلون من الأبواب في الإحرام، وكانت الأنصار وسائر العرب لا يدخلون من باب في الإحرام؛ فبينما رسول الله صلى الله عليه وسلم، في بستان إذ خرج من بابه، وخرج معه قُطْبَةُ بن عامر الأنصاري، فقالوا يا رسول الله: إن قطبة بن عامر رجل فاجر، وإنه خرج معك من الباب. فقال له: ما حملك على ما صنعت؟ قال: رأيتك فعلته ففعلت كما فعلت، فقال: إني أَحْمِسيّ، قال: فإن ديني دينُك، فأنزل الله { وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُواْ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا}.

    وقال المفسرون: كان الناس في الجاهلية وفي أول الإسلام إذا أحرم الرجل منهم بالحج أو العمرة، لم يدخل حائطاً ولا بيتاً ولا داراً من بابه، فإن كان من أهل المدن نَقَب نَقْباً في ظهر بيته منه يدخل ويخرج، أو يتخذ سلماً فيصعد فيه، وإن كان من أهل الوبر خرج من خلف الخيمة والفسطاط، ولا يدخل من الباب حتى يحل من إحرامه، ويرون ذلك ديناً إلا أن يكون من الحمس وهم قريش، وكِنَانَة، وخُزَاعةَ وثَقِيف، وخَثْعَم، وبنو عامر بن صَعْصَعَة، وبنو النَّضرْ بن معاوية؛ سموا حمساً لشدتهم في دينهم قالوا: فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم، ذات يوم بيتاً لبعض الأنصار، فدخل رجل من الأنصار على أثره من الباب وهو محرم، فأنكروا عليه، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: لم دخلت من الباب وأنت محرم؟ فقال: رأيتك دخلت من الباب فدخلت على أثرك، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إني أحمسي، قال الرجل: إن كنت أحْمسياً فإني أحمسي، ديننا واحد، رضيت بهديك وسمتك ودينك، فأنزل الله تعالى هذه الآية. [↑](#footnote-ref-15)
16. راجع الإتقان في علوم القرآن (3/ 371-389) بتصرف كثير وتلخيص. [↑](#footnote-ref-16)
17. مناهل العرفان في علوم القرآن (1/ 202-203) [↑](#footnote-ref-17)
18. مناهل العرفان في علوم القرآن (1/ 204) [↑](#footnote-ref-18)
19. نقلا عن الإتقان في علوم القرآن (3/ 370): [↑](#footnote-ref-19)
20. الرحيق المختوم (ص: 128) [↑](#footnote-ref-20)
21. من مقال بعنوان: أضواء على تفسير سورة البقرة للدكتور صبحي الصالح رحمه الله ، المصدر: مجلة الفكر الإسلامي-العدد2....

    ثم قال رحمه الله تعالى: ما الذي نختاره إذن لتفسير هذه الفواتح أو لتبيان الحكمة من إيرادها في بعض السور على الأقل؟

    يخيّل إلينا – ونسأل الله ألا نكون مخطئين – أن رأي الإمام السيد رشيد رضا في هذه الفواتح هو أقربها إلى الصواب. ونرى لزاماً علينا أن ننقل عبارته بنصها من تفسير المنار: ((من حسن البيان وبلاغة التعبير، التي غايتها إفهام المراد مع الإقناع والتأثير، أن ينبّه المتكلمُ المخاطبَ إلى مهمّات كلامه والمقاصد الأولى بها، ويحرص على أن يحيط علمه بما يريده هو منها، ويجتهد في إنزالها من نفسه في أفضل منازلها. ومن ذلك التنبيه لها قبل البدء بها لكيلا يفوته شيء منها. وقد جعلت العرب منه هاء التنبيه وأداة الاستفتاح، فأيّ غرابة في أن يزيد عليها القرآن الذي بلغ حد الإعجاز في البلاغة وحسن البيان، ويجب أن يكون الإمام المقتدى، كما أنه هو الإمام في الإصلاح والهدى؟! ومنه ما يقع في أثناء الخطاب من رفع الصوت وتكييفه ما تقتضيه الحال من صيحة التخويف والزجر، أو غُنّة الاسترحام والعطف، أو رنّة النعي وإثارة الحزن، أو نغمة التشويق والشجو، أو هيعة الاستصراخ عند الفزع، أو صخب التهويش وقت الجدل، ومنه الاستعانة بالإشارات وتصوير المعاني بالحركات، ومنه كتابة بعض الكلمات أو الجمل بحروف كبيرة أو وضع خط فوقها أو تحتها...)) إلى آخر ما ذكره.

    وإن إنطباق هذه الحكمة على الواقع النفسي لمن كان القرآن موجهاً إليهم حين نزول الوحي، لا يزيدنا إلا استمساكاً بهذا الرأي. ولأمر ما افتتحت جميع السور التي في أولها حروف مقطّعة بذكر الكتاب، وهذا ينطبق حتى على سور: مريم، والعنكبوت، والروم، ون، لأنها – وإن لم تفتتح بذكر الكتاب – قد اشتملت على معان تتعلق بإثبات الوحي والنبوة.

    ومن المعلوم أن هذه السور كلها مكية إلا البقرة التي نفسرها وآل عمران التي تليها. فأما المكية فلدعوة المشركين إلى إثبات النبوة والوحي، وأما الزَهّرَاوَان (أي البقرة وآل عمران) فلمجادلة أهل الكتاب بالتي هي أحسن، وتحريك دواعي النظر عندهم للإيمان بالدين الحنيف. ويزداد هذا الرأي وضوحاً إذا سلّمنا بأن الزَهْرَاوَيْن كانتا من أوائل السور نزولاً في المدينة كما هو المشهور، وبنزولهما مفتتحتَيْن بهذه الحروف المقطّعة تمّت الحكمة الإلهية من تنبيه اليهود إلى الدعوة الجديدة وإثارة اهتمامهم بها، فلم يعد في استمرار الإفتتاح بتلك الحروف بعد الزهرواوَيْن حكمة ظاهرة باهرة، ولذلك نزل الوحي بعدهما خالياً من تلك الفواتح.

    فإذا استُهلّت سورة البقرة بهذه الحروف المقطّعة (الم) فالحكمة – والله أعلم وأحكم – إثارةُ أهل المدينة، ولا سيما اليهود وبعض العرب الذين لمَّا يعتنقوا الإسلام، إلى الاهتمام بما يوحيه الله إلى نبيّه في القرآن "ذلك الكتاب لا ريب فيه، هدى للمتقين". ا.ه. وراجع كلام العلامة الشوكاني في المتن فهو المختار عندي بعد البحث العميق والله تعالى أعلم... [↑](#footnote-ref-21)
22. راجع فتح القدير للشوكاني (1/ 34-38). [↑](#footnote-ref-22)
23. في الكشاف (1/ 34-37). [↑](#footnote-ref-23)
24. محمد الغزالي السقا / نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم /ص9. [↑](#footnote-ref-24)
25. في أنوار التنزيل (1/ 36). [↑](#footnote-ref-25)
26. في ظلال القرآن (1/ 39) [↑](#footnote-ref-26)
27. من {التحرير والتنوير حـ 1 صـ 223 ـ 225} [↑](#footnote-ref-27)
28. تفسير ابن كثير ت سلامة (1/ 165) [↑](#footnote-ref-28)
29. في ظلال القرآن (1/ 39) بتصرف يسير. [↑](#footnote-ref-29)
30. {تنوير الأذهان حـ1 صـ 18} [↑](#footnote-ref-30)
31. مستفاد من تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (1/ 37). [↑](#footnote-ref-31)
32. نقلا عن تفسير القاسمي = محاسن التأويل (1/ 244). [↑](#footnote-ref-32)
33. رَوَاهُ البُخَارِيّ وَمُسلم عَن حَكِيمٍ بْنِ حِزَامٍ رضى الله عنه. [↑](#footnote-ref-33)
34. (صحيح)...رواه ابن ماجة عن أبي هريرة. وأبو داود (صحيح أبي داود 1238). [↑](#footnote-ref-34)
35. تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (1/ 43) [↑](#footnote-ref-35)
36. نقلا عن كتاب ( النصائح الإيمانية ) للشيخ عبد الله بن علوي الحداد (1044-1132هـ) (ص 25-29) دار الحاوي ط. الثانية 1418هـ. [↑](#footnote-ref-36)
37. راجع {التحرير والتنوير حـ 1 صـ 244} و {مفاتيح الغيب حـ 2 صـ 38 ـ 39} باختصار وتصرف [↑](#footnote-ref-37)
38. {مفاتيح الغيب حـ 2 صـ 37} [↑](#footnote-ref-38)
39. راجع {التحرير والتنوير حـ 1 صـ 250 ـ 251} ، {تفسير القرطبى حـ 1 صـ 185 ـ 186} ، {مفاتيح الغيب حـ 2 صـ 48} بتصرف. [↑](#footnote-ref-39)
40. تفسير البغوي - طيبة (1/ 64) [↑](#footnote-ref-40)
41. ا هـ {التحرير والتنوير حـ 1 صـ 245 ـ 246} [↑](#footnote-ref-41)
42. {مفاتيح الغيب حـ 2 صـ 39} [↑](#footnote-ref-42)
43. {تفسير القرطبى حـ 1 صـ 187} [↑](#footnote-ref-43)
44. {دفع إيهام الاضطراب صـ 6 ـ 7} [↑](#footnote-ref-44)
45. راجع {تفسير القرطبى حـ 1 صـ 187 ـ 189} ،{التحرير والتنوير حـ 1 صـ 252 ـ 253} [↑](#footnote-ref-45)
46. {البحر المحيط حـ 1 صـ 178 ـ 179} بتصرف يسير. [↑](#footnote-ref-46)
47. في ظلال القرآن (1/ 42-3) [↑](#footnote-ref-47)
48. من التفسير القرآني للقرآن ، د/ عبد الكريم الخطيب ، ط دار دمشق ، ج 1 ، ص: 32. بتصرف يسير مع زيادات ما بين القوسين الدائريين() من تفاسير أخرى. [↑](#footnote-ref-48)
49. ( في حاشيته على الجلالين ج1ص38دار الحديث مصر) [↑](#footnote-ref-49)
50. في ظلال القرآن (1/ 42) [↑](#footnote-ref-50)
51. صفوة التفاسير (1/ 28) [↑](#footnote-ref-51)
52. صفوة التفاسير (1/ 32) [↑](#footnote-ref-52)
53. تفسير البغوي 1/69. [↑](#footnote-ref-53)
54. في التفسير القرءانى للقرآن1\39. [↑](#footnote-ref-54)
55. والاستدراك على الشيخ المفسر يكمن في أن سياق الآية لا يجيز أن يكون المستوقد للنار هو الرسول.. وذلك لأن إبهام ذكره وهو المعنىُّ الأول بالخطاب القرآني فيه ما فيه ، وكذا الآية تقول " أضاءت ما حوله" والإسلام أضاء قلب الرسول قبل كل شئ وليس ما حوله فقط.. ومن ثم فرأى جمهور المفسرين أصوب.ولعله يشهد له- وإن كان بعيد الإشارة - ما في (مسند الإمام أحمد) من حديث أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال:( مثلي ومثلكم كمثل رجل استوقد نارا، فلما أضاءت ما حوله جعل الفراش وهذه الدواب التي يقعن في النار، يقعن فيها. وجعل يحجزهن ويغلبنه فيقتحمن فيها. قال: فذلكم مثلي ومثلكم. أنا آخذ بحجزكم عن النار: هلمّ عن النار! فتغلبوني فتتقحّمون فيها )... وأخرجاه في (الصحيحين) أيضا. [↑](#footnote-ref-55)
56. ويقول الطبري في جامع البيان ت شاكر (1/ 318-321):

    ( في الموضع الذي مثَّل ربُّنا جل ثناؤه جماعةً من المنافقين، بالواحد الذي جعله لأفعالهم مثلا فجائز حسنٌ، وفي نظائره (جائز حسن أيضًا) كما قال جل ثناؤه في نظير ذلك: (تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ) [سورة الأحزاب: 19] ، يعني كَدَوَرَان عيْنِ الذي يُغشى عليه من الموت - وكقوله: (مَا خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ) [سورة لقمان: 28] بمعنى: إلا كبَعْث نفسٍ واحدة.

    وإنما جاز، لأن المرادَ من " مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا.. الآية" الخبرُ عن مَثَل استضاءتهم... والاستضاءَةُ - وإن اختلفت أشخاص أهلها - معنًى واحد، لا معانٍ مختلفة. فالمثل لها في جمع المنافقين في معنى المثَل للشخص الواحد.

    وتأويل ذلك: مَثلُ استضاءة المنافقين بما أظهروه من الإقرار بالله وبمحمد صلى الله عليه وسلم وبما جاء به قولا باللسان ؛ وهُم به مكذبون بقلوبهم اعتقادًا، كمثَل استضاءة المُوقِد نارًا. ثم أضيف المثَلُ إليهم...

    قلتُ: ( ربما يقصد الشيخ أن المراد الأصلي هو مثل الإستضاءة وفقد النور بعد ذلك؛ وليس أعيان المستضيئين،فحسن بذلك الاشارة إلى فعلهم بفعل أياً منهم وكل مشترك معه في صفته ثم رد المصير إلى كل من يفعل فعلهم.. وأراه تعميما في غاية الموعظة والبلاغة ، ولو أنه قصد أعيان الأشخاص لوجب الاتساق بين المشبه والمشبه به جمعا وإفراداً) ا.ه.بتصرف وحذف. [↑](#footnote-ref-56)
57. أفاده العلامة ابن القيم رحمه الله في اجتماع الجيوش الإسلامية بتصرف يسير. [↑](#footnote-ref-57)
58. (محاسن التأويل ج1ص259) [↑](#footnote-ref-58)
59. (نقلا عن محاسن التأويل ج1ص264). [↑](#footnote-ref-59)
60. راجع (التفسير القرآني للقرآن ، الدكتور عبد الكريم الخطيب ج 1 ، ص 39،40)و (محاسن التأويل ج1ص259،260). [↑](#footnote-ref-60)
61. في ( اجتماع الجيوش الإسلامية ج2ص68 مطابع الفرزدق بالرياض ) [↑](#footnote-ref-61)
62. راجعت كثيراً من هذه النكت البلاغية ونقلت منها في تفسير الكشاف ج 1من ص 85إلى 88ـ دار الكتاب العربى ـ بيروت ـ [↑](#footnote-ref-62)
63. (في الظلال ج1ص46دار الشروق بيروت القاهرة ). [↑](#footnote-ref-63)
64. صفوة التفاسير (1/ 34). [↑](#footnote-ref-64)
65. في ظلال القرآن (1/ 37) باختصار وتصرف يسير. [↑](#footnote-ref-65)
66. قال السمرقندي في تفسيره: الشيطان والكاهن والصنم وكل من يدعو إلى ضلالة. [↑](#footnote-ref-66)
67. [ قال العلامة أحمد شاكر: يريد الطبري أن العرب تستعمل "لعل" أحيانا بغير معنى الشك، بمعنى لام الغاية = كي، كما قال ابن الشجري في أماليه ] [↑](#footnote-ref-67)
68. قال العلامة أحمد شاكر في تحقيقه تفسير الطبري: والحديث الذي يشير إليه ابن كثير، رواه أحمد في المسند بأسانيد صحاح، عن ابن عباس: 1839، 1964، 2561، 3247. وكذلك رواه البخاري في الأدب المفرد ص: 116 ونسبه الحافظ ابن حجر في الفتح 11: 470 للنسائي وابن ماجه. [↑](#footnote-ref-68)
69. مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة (1/ 5) [↑](#footnote-ref-69)
70. تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (1/ 96) بتصرف يسير. [↑](#footnote-ref-70)
71. راجع كتاب ( النبأ العظيم ) للعلامة الدكتور محمد عبد الله دراز فإن فيه تفصيل رائع لهذه النقطة وغيرها من إعجازات القرآن الكريم. يقول العلامة ابن كثير في تفسيره الماتع:

    ( ومن تدبر القرآن وجد فيه من وجوه الإعجاز فنوناً ظاهرة وخفيه، من حيث اللفظ ومن جهة المعنى قال تعالى: {كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير} فأُحكمَت ألفاظه، وفُصِّلت معانيه، فكلٌّ من لفظه ومعناه فصيح لا يُحاذَى ولا يُدانى..

    فقد أخبر عن مغيباتٍ ماضية كانت ووقعت طبق ما أخبر سواءً بسواء، وأمر بكل خيرٍ ونهى عن كل شرٍ كما قال تعالى: {وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا} أي صدقا في الأخبار، وعدلا في الأحكام، فكلُّه حقٌ وصدق، وعدل وهدى، ليس فيه مجازفةٌ ولا كذب ولا افتراء، كما يوجد في أشعار العرب وغيرهم من الأكاذيب والمجازفات التي لا يحسن شعرهم إلا بها ، كما قيل في الشعر (إن أعذبه أكذبه) وتجد في القصيدة الطويلة المديدة قد استعمل غالبها في وصف النساء أو الخيل أو الخمر، أو في مدح شخصٍ معينٍ أو فرس أو ناقة أو حرب، أو شيء من المشاهدات المتعينة التي لا تفيد شيئاً ، ثم تجد له فيه بيتاً أو بيتين أو أكثر هي بيوت القصيد، وسائرها هذرٌ لا طائل تحته..

    وأما القرآن فجميعه فصيحٌ في غاية نهايات البلاغة عند من يعرف ذلك تفصيلاً وأجمالاً، ممن فهم كلام العرب وتصاريف التعبير، فإنه إن تأملتَ أخباره وجدتها في غاية الحلاوة سواء كانت مبسوطة أو وجيزة، وسواء تكررت أم لا، وكلما تكرَّر حلا وعلا، لا يخلُق عن كثرة الرد، ولا يَملُّ منه العلماء..

    وإن أخذ في الوعيد والتهديد جاء منه ما تقشعر منه الجبال الصم الراسيات، فما ظنك بالقلوب الفاهمات؟

    وإن وعد أتى بما يفتح القلوب والآذان، وشوّق إلى دار السلام ومجاورة عرش الرحمن كما قال في الترغيب: {فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون}، وقال: {وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وأنتم فيها خالدون}..

    وقال في الترهيب: {أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البر}، {أأمنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هي تمور أم أمنتم من في السماء أن يرسل عليكم حاصبا فستعلمون كيف نذير}، وقال في الزجر: {فلا أخذنا بذنبه}، وقال في الوعظ: {أفرأيت إن متّعناهم سنين ثم جاءهم ما كانوا يوعدون ما أغنى عنهم ما كانوا يُمتَّعون} إلى غير ذلك من أنواع الفصاحة والبلاغة والحلاوة.

    وإن جاءت الآيات في الأحكام والأوامر والنواهي اشتملت على الأمر بكل معروفٍ حسنٍ نافع طيب محبوب، والنهي عن كل قبيحٍ رذيل دنيء؛ كما قال ابن مسعود وغيره من السلف: إذا سمعت اللّه تعالى يقول في القرآن: يا أيها الذين آمنوا فأرْعها سمعك فإنها خيرٌ يأمر به أو شر ينهى عنه، ولهذا قال تعالى: {يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم} الآية..

    وإن جاءت الآيات في وصف المعاد وما فيه من الأهوال وفي وصف الجنة والنار وما أعد اللّه فيهما لأوليائه وأعدائه من النعيم والجحيم، والملاذ والعذاب الأليم، بشرت به وحذرت وأنذرت؛ ودعت إلى فعل الخيرات واجتناب المنكرات، وزهَّدت في الدنيا ورغَّبت في الأُخرى، وثبتت على الطريقة المثلى، وهدت إلى صراط اللّه المستقيم، وشرعه القويم، ونفت عن القلوب رجس الشيطان الرجيم.

    ولهذا قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: "ما من نبي من الأنبياء إلا وقد أُعطي من الآيات ما آمن على مثله البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحيا أوحاه اللّه إليّ فأرجوا أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة (رواه الشيخان عن أبي هريرة واللفظ لمسلم) "، وقوله صلى اللّه عليه وسلم: "وإنما كان الذي أوتيتُه وحياً" أي الذي اختصصت به من بينهم هذا القرآن المعجز للبشر أن يعارضوه، بخلاف غيره من الكتب الإلهية فإنها ليست معجزة عند كثير من العلماء واللّه أعلم، وله عليه الصلاة والسلام من الآيات الدالة على نبوته وصدقه فيما جاء به ما لا يدخل تحت حصر، وللّه الحمد والمنة. انتهى مُختصراً من تفسير العلامة ابن كثير. [↑](#footnote-ref-71)
72. في تفسيره الجامع لأحكام القرآن 1/227 [↑](#footnote-ref-72)
73. قال القرطبي: وعلى التأويل الأول يكونون معذبين بالنار والحجارة ( قلتُ: وكأن المعنى: فاتقوا النار التي وقودها الناس ، و الحجارة أعدت للكافرون يعذبون بها في النار..ويكون الوقف جائز على الناس؛ ولعله وجه جيد ولكنه بعيد ويحتاج لتمحيص وتحقيق). [↑](#footnote-ref-73)
74. نكتة بلاغية ذكرها القرطبي في تفسيره 1/228: أجمع العلماء على أن المكلف إذا قال: من بشرني من عبيدي بكذا فهو حر ، فبشره واحد من عبيده فأكثر فإن أولهم يكون حرا دون الثاني. واختلفوا إذا قال: من أخبرني من عبيدي بكذا فهو حر فهل يكون الثاني مثل الأول ، فقال أصحاب الشافعي: نعم ; لأن كل واحد منهم مخبر. وقال علماؤنا: لا ; لأن المكلف إنما قصد خبرا يكون بشارة ، وذلك يختص بالأول ، وهذا معلوم عرفا فوجب صرف القول إليه. وفرق محمد بن الحسن بين قوله: أخبرني ، أو حدثني ، فقال: إذا قال الرجل أي غلام لي أخبرني بكذا ، أو أعلمني بكذا وكذا فهو حر - ولا نية له - فأخبره غلام له بذلك بكتاب أو كلام أو رسول فإن الغلام يعتق ; لأن هذا خبر. وإن أخبره بعد ذلك غلام له عتق ; لأنه قال: أي غلام أخبرني فهو حر. ولو أخبروه كلهم عتقوا ، وإن كان عنى - حين حلف - بالخبر كلام مشافهة لم يعتق واحد منهم إلا أن يخبره بكلام مشافهة بذلك الخبر. قال: وإذا قال أي غلام لي حدثني ، فهذا على المشافهة لا يعتق واحد منهم. [↑](#footnote-ref-74)
75. ورجح الطبري القول الأول أنهم كلما رزقوا من ثمارها رزقا قالوا: هذا كما رزق الدنيا وثمارها ؛ وإنما اشتبه عليهم ، لأن الله أجرى لهم ما يعرفون شكله ، ولكن طعم ثمار الجنة فوق الوصوف حلاوةً..وذلك لكون الكلام لا يستقيم أن يقولوا ذلك عن ثمار الجنة وتشابهها شكلا ولونا مرةً بعد مرةً في أول دخولهم فيها ولم يذوقوا من ثمارها شئ.. هكذا وجه الطبري رأيه وهو حسن في باب النظر في وجوه الكلام. [↑](#footnote-ref-75)
76. راجعت في تفسير هذه الآيات ابن جرير الطبري = جامع البيان ت شاكر (1/ 362- 369) ، وتفسير القرطبي ج1 ص 125-129، وتفسير الكشاف للزمخشري ج1 / ص95-104. [↑](#footnote-ref-76)
77. التفسير القيم = تفسير القرآن الكريم لابن القيم (ص: 132) [↑](#footnote-ref-77)
78. يقول الحافظ ابن كثير في تفسيره: [ وهذه الآية ( الآيات 21،22 البقرة) دالة على توحيده تعالى بالعبادة وحده، فإنَّ من تأمل هذه الموجودات عَلِم قدرةَ خالقها وحكمته، وعلمه وإتقانه، وعظيم سلطانه، كما قال بعض الأعراب وقد سئل: ما الدليل على وجود الرب تعالى؟ فقال: يا سبحان اللّه إن البعر ليدل على البعير، وإن أثر الأقدام لتدل على المسير فسماءٌ ذات أبراج، وأرضٌ ذات فجاج، وبحارٌ ذات أمواج! ألا يدل ذلك على وجود اللطيف الخبير؟.

    وحكى الرازي عن الإمام مالك أن الرشيد سأله عن ذلك فاستدل له باختلاف اللغات، والأصوات، والنغمات. وعن أبي حنيفة أن (بعض الزنادقة) سألوه عن وجود الباري تعالى فقال لهم: دعوني فإني مفكر في أمرٍ قد أُخبرت عنه، ذكروا لي أن سفينة في البحر موقرة فيها أنواع من المتاجر وليس بها أحد يحرسها ولا يسوقها - وهي مع ذلك تذهب وتجيء وتسير بنفسها وتخترق الأمواج العظام حتى تتخلص منها وتسير حيث شاءت بنفسها من غير أن يسوقها أحد. فقالوا: هذا شيء لا يقوله عاقل! فقال: ويحكم هذه الموجودات بما فيها من العالم العلوي والسفلي وما اشتملت عليه من الأشياء المحكمة ليس لها صانع؟! فبهت القوم ورجعوا إلى الحق وأسلموا على يديه.

    وعن الشافعي أنه سئل عن وجود الصانع فقال: هذا ورق التوت طعمُه واحدٌ تأكله الدود فيخرج منه الإبريسم (و الإبريسم هو الحرير.) وتأكله النحل فيخرج منه العسل، وتأكله الشاة والبقر والأنعام فتلقيه بعراً وروثاً، وتأكله الظباء فيخرج منها المسك وهو شيء واحد..

    وعن الإمام أحمد بن حنبل أنه سئل عن ذلك فقال: ههنا حصنٌ حصين أملس ليس له باب ولا منفذ، ظاهره كالفضة البيضاء وباطنه كالذهب والإبريز، فبينا هو كذلك إذ انصدع جداره فخرج منه حيوان سميع بصير ذو شكلٍ حسن وصوت مليح ؛ يعني بذلك البيضة إذا خرج منها الدجاجة.. وسئل أبو نواس عن ذلك فأنشد:

    تأملْ في نبات الأرض وانظر \* إلى آثار ما صنع المليك

    عيونٌ من لُجَيْن شاخصاتُ \* بأحداق هي الذهب السبيك

    على قضب الزبرجد شاهدات \* بأنَّ اللّه ليس له شريك

    وقال ابن المعتز:

    فيا عجبا كيف يعصى (الإله)\* أم كيف يجحده الجاحدُ

    وفي كل شيء له آيةٌ \* تدل على أنه واحدُ

    وقال آخرون: من تأمّل هذه السماوات في ارتفاعها واتساعها وما فيها من الكواكب الكبار والصغار النيرة من السيارات ومن الثوابت، وشاهدها كيف تدور مع الفلك العظيم في كل يوم وليلة دويرة ولها في أنفسها سير يخصها، وانظَر إلى البحار المكتنفة للأرض من كل جانب، والجبال الموضوعة في الأرض لتقر ويسكن ساكنوها مع اختلاف أشكالها وألوانها، كما قال تعالى: {ومن الجبال جُدَدٌ بيضٌ وحمر مختلفٌ ألوانها وغرابيبُ سود}، وكذلك هذه الأنهار السارحة من قطر إلى قطر للمنافع، وما ذرأ في الأرض من الحيوانات المتنوعة والنبات المختلف الطعوم والأشكال والألوان مع اتحاد طبيعة التربة والماء، استدل على وجود الصانع وقدرته العظيمة، وحكمته ورحمته بخلقه، ولطفه بهم وإحسانه إليهم، لا إله غيره ولا ربَّ سواه، عليه توكلت وإليه أنيب، والآيات في القرآن الدالة على هذا المقام كثيرة جداً.

    روى الإمام أحمد في ذلك مثلاً عجيبا اوحى الله به إلى يحيي بن زكريا عليه السلام فقال يحيي: " إن اللّه أمرني بخمس كلمات أن أعمل بهن وآمركم أن تعملوا بهن.

    أولهن: أن تعبدوا اللّه ولا تشركوا به شيئاً فإن مَثَل ذلك كمثل رجل اشترى عبداً من خالص ماله بَوَرِق أو ذهب فجعل يعمل ويؤدي غلّته إلى غير سيده،، فأيكم يسرّه أن يكون عبده كذلك؟ وإن اللّه خلقكم ورزقكم فاعبدوه ولا تشركوا به شيئاً.. ثم سرد باقي الحديث" رواه الإمام أحمد بسنده عن الحارث الأشعري ، وهو حديث صحيح جليل رواه الترمذي في كتاب الأمثال عن البخاري وابن حبان والنسائي بعضه وابن خزيمة والحاكم وصححه ووافقه الذهبي وصححه الألباني في الصحيحة... [↑](#footnote-ref-78)
79. راجع شرح الطحاوية ت الأرناؤوط (1/ 29-36). [↑](#footnote-ref-79)
80. تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (1/ 96) [↑](#footnote-ref-80)
81. راجع البرهان في علوم القرآن (2/ 24-27) الطبعة: الأولى، 1376 هـ - 1957 م، الناشر: دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبي وشركائه [↑](#footnote-ref-81)
82. راجع مشكورا مبحث: الجدل وتقرير العقيدة في القرآن العظيم.. من جزء المقدمة من كتابنا هذا.. والله ولى التوفيق... [↑](#footnote-ref-82)
83. تفسير القرطبي جامع أحكام القرآن: ج1/ص228. [↑](#footnote-ref-83)
84. من أبحاث المؤتمر العالمي العاشر للإعجاز العلمي في القرآن والسنة بدولة تركيا 1432هـ - 2011م.. بحث للأستاذ الدكتور/ مصطفى إبراهيم حسن/ أستاذ علم الحشرات الطبية ومدير أبحاث ناقلات الأمراض كلية العلوم – جامعة الأزهر. [↑](#footnote-ref-84)
85. نقلا عن الموقع الالكتروني على الشبكة العنكبوتية http://www.eajaz.org/index.php/Encyclopedias/Research-Scientific-Miracles-Encyclopedia/Medicine-and-Life-Sciences/146-بعوضة-فما-فوقه [↑](#footnote-ref-85)
86. راجع التفسير الوسيط للدكتور طنطاوي ج1ص 47. [↑](#footnote-ref-86)
87. تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (2/ 361) [↑](#footnote-ref-87)
88. تفسير السمرقندي = بحر العلوم (1/ 38) [↑](#footnote-ref-88)
89. جامع البيان ت شاكر (1/ 399) [↑](#footnote-ref-89)
90. تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (1/ 111) [↑](#footnote-ref-90)
91. تفسير السمرقندي = بحر العلوم (1/ 36-38). [↑](#footnote-ref-91)
92. قال فخر الدين الرازي جريا على مذهب الأشاعرة:[ وَهُوَ الْقَانُونُ فِي أَمْثَالِ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ، أَنَّ كُلَّ صِفَةٍ ثَبَتَتْ لِلْعَبْدِ مِمَّا يَخْتَصُّ بِالْأَجْسَامِ فَإِذَا وُصِفَ اللَّهُ تَعَالَى بِذَلِكَ فَذَلِكَ مَحْمُولٌ عَلَى نِهَايَاتِ الْأَعْرَاضِ لَا عَلَى بِدَايَاتِ الْأَعْرَاضِ مِثَالُهُ أَنَّ الْحَيَاءَ حَالَةٌ تَحْصُلُ لِلْإِنْسَانِ لَكِنَّ لَهَا مَبْدَأً وَمُنْتَهًى، أَمَّا الْمَبْدَأُ فَهُوَ التَّغَيُّرُ الْجُسْمَانِيُّ الَّذِي يَلْحَقُ الْإِنْسَانَ مِنْ خَوْفِ أَنْ يُنْسَبَ إِلَى الْقَبِيحِ، وَأَمَّا النِّهَايَةُ فَهُوَ أَنْ يَتْرُكَ الْإِنْسَانُ ذَلِكَ الْفِعْلَ، فَإِذَا وَرَدَ الْحَيَاءُ فِي حَقِّ اللَّهِ تَعَالَى فَلَيْسَ الْمُرَادُ مِنْهُ ذَلِكَ الْخَوْفُ الَّذِي هُوَ مَبْدَأُ الْحَيَاءِ وَمُقَدَّمَتُهُ، بَلْ تَرْكُ الْفِعْلِ الَّذِي هُوَ مُنْتَهَاهُ وَغَايَتُهُ، وَكَذَلِكَ الْغَضَبُ لَهُ، عَلَامَةٌ وَمُقَدَّمَةٌ وَهِيَ غَلَيَانُ دَمِ الْقَلْبِ، وَشَهْوَةُ الِانْتِقَامِ وَلَهُ غَايَةٌ وَهُوَ إِنْزَالُ الْعِقَابِ بِالْمَغْضُوبِ عَلَيْهِ، فَإِذَا وَصَفْنَا اللَّهَ تَعَالَى/ بِالْغَضَبِ فَلَيْسَ الْمُرَادُ ذَلِكَ الْمَبْدَأَ أَعْنِي شَهْوَةَ الِانْتِقَامِ وَغَلَيَانَ دَمِ الْقَلْبِ، بَلِ الْمُرَادُ تِلْكَ النِّهَايَةُ وَهُوَ إِنْزَالُ الْعِقَابِ، فَهَذَا هُوَ الْقَانُونُ الْكُلِّيُّ فِي هَذَا الْبَابِ. ».ا.ه. من تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (2/ 361). [↑](#footnote-ref-92)
93. [ قال الزمخشري في الكشاف: وكذلك معنى قوله: { إِنَّ الله لاَ يَسْتَحْىِ } أي لا يترك ضرب المثل بالبعوضة ترك من يستحيي أن يتمثل بها لحقارتها. ويجوز أن تقع هذه العبارة في كلام الكفرة ، فقالوا: أما يستحيي رب محمد أن يضرب مثلاً بالذباب والعنكبوت ؛ فجاءت على سبيل المقابلة وإطباق الجواب على السؤال.. وهو فنّ من كلامهم بديع ، وطراز عجيب.. ومنه قول أبي تمام: مَنْ مُبْلِغٌ أَفْنَاءَ يَعْرُبَ كُلَّها... أَنِّي بَنَيْتُ الجَارَ قَبْلَ المَنْزِلِ

    (فلما ذكر بناء الدار جعل البناء للجار أيضاً مجازاً عن اختياره من باب المقابلة والمشاكلة).. وشهد رجل عند شريح. فقال: إنك لسبط ( من سهولة الشعر ونعومته) الشهادة. فقال الرجل: إنها لم تجعد ( من الجعودة وهى خشونة الشعر وتجعده) عني. فقال: لله درك ، وقبل شهادته.. فالذي سوغ بناء الجار وتجعيد الشهادة هو مراعاة المشاكلة. ولولا بناء الدار لم يصح بناء الجار. ولولا سبوطة الشهادة لامتنع تجعيدها ) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (1/ 112). [↑](#footnote-ref-93)
94. راجع العقيدة الواسطية لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى وشروحها. أقول: وعلى الرغم من عبقرية الزمخشرى في استنباط اللمحات البلاغية واللغوية الممتعة في القرآن ؛ إلا أن تفسيره امتلأ بمفاهيم المعتزلة ، فوجب الحذر من ذلك ، أو قراءته مع حواشي العلماء المدركين لخطره كإبن المنير السكندري وحاشيته الانتصاف على الكشاف جزاه الله خيرا... [↑](#footnote-ref-94)
95. [ تفسير المنار ص: 212 ] [↑](#footnote-ref-95)
96. تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (1/ 113-114) [↑](#footnote-ref-96)
97. تفسير السمرقندي = بحر العلوم (1/ 37) [↑](#footnote-ref-97)
98. تفسير السمرقندي = بحر العلوم (1/ 37-38) [↑](#footnote-ref-98)
99. تفسير البيضاوي = أنوار التنزيل وأسرار التأويل (1/ 64) [↑](#footnote-ref-99)
100. كما في قوله سبحانه: « وَ إِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَ أَشْهَدَهُمْ عَلى أَنْفُسِهِمْ أَ لَسْتُ بِرَبِّكُمْ قالُوا بَلى شَهِدْنا » (172 الأعراف).. [↑](#footnote-ref-100)
101. (راجع تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (1/ 111-114)؛ واحذر من اعتزالياته في تفسيره لمعنى الفاسقين وأحكامهم ) [↑](#footnote-ref-101)
102. تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (1/ 405) [↑](#footnote-ref-102)
103. تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (1/ 404) و تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (1/ 113) [↑](#footnote-ref-103)
104. معاني القرآن للفراء (1/ 22) [↑](#footnote-ref-104)
105. تفسير المنار (1/ 205-209). [↑](#footnote-ref-105)
106. تفسير ابن جزي = التسهيل لعلوم التنزيل (1/ 78) [↑](#footnote-ref-106)
107. ومن براعة الأداء البلاغي في هذه الآية الكريمة:

     عَبَّرت الآية الكريمة بحرف العطف "ثم" لوجود مدة زمنية, ففي قوله تعالى: "ثُم يُمِيْتَكم" لتخلل مدة العمر بين نفخ الروح والإماتة.. وفي قوله تعالى: "ثُم يُحِيَكم" لتخلل مدة البرزخ, وفي قوله تعالى: " ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ" لتخلل مدة الحشر والحساب, لأن حرف العطف "ثم" يفيد التراخي ووجود مدة زمنية بين المعطوفات , بينما عبَّرت الآية بحرف العطف "الفاء" في قوله: "فأحياكم" لأنها تفيد التعقيب, فالموت الأول في الآية هو العدم, الذي يسبق الحياة, والحياة الأولى هي الخلق, والمراد بالموت الثاني في الآية هو الموت المعهود, وهو خروج الروح من الجسد, والمراد بالحياة الثانية هي الحياة للبعث, فجاء حرفا العطف "الفاء وثمَّ" متناسبين مع المقام في أداء بلاغي رائع لحروف الربط في الآية.. [↑](#footnote-ref-107)
108. تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: 48-49)باختصار..

     عن العباس بن عبد المطب رضي الله عنه قال: كنا عند النبي الله صلى الله عليه وسلم فقال: ( هل تدرون كم بين السماء والأرض ؟ قلنا: الله ورسوله أعلم قال: بينهما مسيرة خمسمائة سنة، وبين كل سماء إلى سماء مسيرة خمسمائة عام ، وكثف كل سماء خمسمائة عام ، وفوق السماء السابعة بحرٌ بين أسفله وأعلاه كما بين السماء والأرض ، ثم فوق ذلك ثمانية أوعال بين ركبهن وأظلافهن كما بين السماء والأرض ، ثم فوق ذلك العرش بين أسفله وأعلاه كما بين السماء والأرض ، والله سبحانه وتعالى فوق ذلك ، وليس يخفى عليه من أعمال بني آدم شئ) رواه الخمسة وحسنه الترمذي.. وعن ابن عباس قال: "الكرسي موضع القدمين والعرش لا يقدر أحد قدره" رواه الفريابي وابن المنذر والحاكم وصححه.. وروى مسلم عن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال:قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والارض بخمسين ألف سنة ، وكان عرشه على الماء".. ثم استوى عليه استواء يليق بجلاله وعظمته من غير تأويل ولا تحريف ولا تمثيل ولا تشبيه. [↑](#footnote-ref-108)
109. والنكتة في اللغة معناها: النُّكْتَةُ: الأَثَرُ الحاصلُ من نَكْتِ الأَرض. و النُّكْتَةُ النُّقْطَةُ في الشيء تخالف لَوْنَه. و النُّكْتَةُ العلامةُ الخفيَّة. و النُّكْتَةُ الفكرةُ اللطيفة المؤثِّرَة في النفس. و النُّكْتَةُ المسأَلةُ العلميَّةُ الدَّقيقةُ يُتَوصَّلُ إِليها بدقَّة وإِنعامِ فِكْر. و النُّكْتَةُ شِبْهُ وسَخٍ في المِرآة أَو السَّيف. و النُّكْتَةُ شِبْهُ وَقْرَةٍ في قَرْنيَّةِ العين ، يسميها العامة: نقطة. والجمع: نُكَتٌ ، ونِكاتٌ. انتهى من المعجم الوسيط. [↑](#footnote-ref-109)
110. مختصر معارج القبول ، هشام عبد القادر آل عقدة ، مكتبة الكوثر – الرياض ، ص(31،32). [↑](#footnote-ref-110)
111. تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: 39). [↑](#footnote-ref-111)
112. في سلسلته الرائعة عن العقيدة (كتاب: العقيدة في الله ( 1/203-204). دار النفائس للنشر والتوزيع، الأردن ، الطبعة: الثانية عشر، 1419 هـ - 1999 م [↑](#footnote-ref-112)
113. في ظلال القرآن (1/ 55) و يراجع بتوسع فصل: «القصة في القرآن» في كتاب: «التصوير الفني في القرآن» «دار الشروق» [↑](#footnote-ref-113)
114. تفسير القرطبي (1/ 261) [↑](#footnote-ref-114)
115. عنوان الصفحة على الشبكة العنكبوتية http://qaradawi.net/component/content/article/6346.html. [↑](#footnote-ref-115)
116. تفسير ابن كثير- دار طيبة - سنة النشر: 1422هـ / 2002م – ج1/ص217. [↑](#footnote-ref-116)
117. تفسير البيضاوي = أنوار التنزيل وأسرار التأويل (1/ 67) دار إحياء التراث العربي - بيروت [↑](#footnote-ref-117)
118. راجع تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (1/ 116،17) دار الكتب العلمية – بيروت ، ط. الأولى 1422ه. ويقول القاضي بن عطية في هذا الموضع: قال معمر بن المثنى: «إذ زائدة، والتقدير وقال ربك». وقال أبو إسحاق الزجاج: «هذا اجتراء من أبي عبيدة». قال القاضي أبو محمد بن عطية: وكذلك رد عليه جميع المفسرين. وقال الجمهور: ليست بزائدة وإنما هي معلقة بفعل مقدر تقديره واذكر إذ قال، وأيضا فقوله تعالى: { خَلَقَ لَكُمْ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً..} الآية، يقتضي أن يكون التقدير: وابتداء خلقكم إذ قال ربك للملائكة،... ثم قال: وخَلِيفَةً معناه من يخلف.

     قال ابن عباس: «كانت الجن قبل بني آدم في الأرض فأفسدوا وسفكوا الدماء فبعث الله إليهم قبيلا من الملائكة قتلهم وألحق فلّهم بجزائر البحار ورؤوس الجبال، وجعل آدم وذريته خليفة».

     وقال الحسن: «إنما سمى الله بني آدم خليفة لأن كل قرن منهم يخلف الذي قبله، الجيل بعد الجيل».

     قال القاضي أبو محمد عبد الحق رضي الله عنه: ففي هذا القول، يحتمل أن تكون بمعنى خالفة وبمعنى مخلوفة.

     وقال ابن مسعود: «إنما معناه خليفة مني في الحكم بين عبادي بالحق وبأوامري» يعني بذلك آدم عليه السلام ومن قام مقامه بعده من ذريته. ا.ه. [↑](#footnote-ref-118)
119. رواه البخاري كتاب فضائل القرآن: باب كيف نزل الوحى وأول ما نزل.. [↑](#footnote-ref-119)
120. جاء في التحرير والتنوير 1/400 بتصرف يسير. [↑](#footnote-ref-120)
121. راجع تفسير البيضاوي = أنوار التنزيل وأسرار التأويل (1/ 68) [↑](#footnote-ref-121)
122. تفسير المنار [ ص: 213 ] [↑](#footnote-ref-122)
123. تفسير الثعالبي = الجواهر الحسان في تفسير القرآن (1/ 208،207) [↑](#footnote-ref-123)
124. تفسير البيضاوي = أنوار التنزيل وأسرار التأويل (1/ 68) [↑](#footnote-ref-124)
125. في كتابه مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة (1/ 4) [↑](#footnote-ref-125)
126. تفسير ابن كثير- دار طيبة - سنة النشر: 1422هـ / 2002م – ج1/ص،217،218. [↑](#footnote-ref-126)
127. العلامة: محمد بن علي بن محمد الشوكاني ، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية.. ، دار المعرفة ، سنة النشر: 1423هـ / 2004م ، ج1ص45. [↑](#footnote-ref-127)
128. تفسير السمعاني (1/ 65) دار الوطن، الرياض – السعودية ، ط. الأولى 1997م. [↑](#footnote-ref-128)
129. في ظلال القرآن (1/ 56) [↑](#footnote-ref-129)
130. تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (31/ 129) بتصرف وحذف. [↑](#footnote-ref-130)
131. في ظلال القرآن (1/ 57) [↑](#footnote-ref-131)
132. تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (1/ 500 ، 501).. قال رضى الله عنه: ومن قال إن معنى ذلك كتمانُ الملائكة بينهم لن يخلق الله خلقًا إلا كنا أكرم عليه منه. فالذي حكي عن الحسن وقتادة ومن قال بقولهما في تأويل ذلك، غيرُ موجودةٍ الدلالةُ على صحته من الكتاب، ولا من خبر يجب به حجة. [↑](#footnote-ref-132)
133. قال فيها البغوي في تفسيره: من قتل نفسا بغير نفس: أي بغير قتل نفس يوجب الاقتصاص ، أو فساد في الأرض: أو بغير فساد فيها كالشرك أو قطع الطريق، فكأنما قتل الناس جميعا من حيث أنه هتك حرمة الدماء وسن القتل ، وجرأ الناس عليه ، أو من حيث إن قتل الواحد وقتل الجميع سواء في استجلاب غضب الله سبحانه وتعالى والعذاب العظيم ، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا: أي ومن تسبب لبقاء حياتها بعفو أو منع عن القتل أو استنقاذ من بعض أسباب الهلكة فكأنما فعل ذلك بالناس جميعا ، والمقصود منه تعظيم قتل النفس وإحيائها في القلوب، ترهيبا عن التعرض لها، وترغيبا في المحاماة عليها. اهـ. [↑](#footnote-ref-133)
134. راجع تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (1/ 509-512) ، واختلاف العلماء في هل إبليس من جنس الملائكة أم غيرهم وما ارتضيته أثبته في المتن..

     فائدة: في سجود الملائكة جاء في تفسير ابن كثير ت سلامة (1/ 232): وَقَالَ بَعْضُ النَّاسِ: كَانَ هَذَا سُجُودُ تَحِيَّةٍ وَسَلَامٍ وَإِكْرَامٍ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: {وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا} (يُوسُفَ: 100) ، وَقَدْ كَانَ هَذَا مَشْرُوعًا فِي الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ وَلَكِنَّهُ نُسِخَ فِي مِلَّتِنَا، قَالَ مُعَاذٌ: قَدِمْتُ الشَّامَ فَرَأَيْتُهُمْ يَسْجُدُونَ لِأَسَاقِفَتِهِمْ وَعُلَمَائِهِمْ، فَأَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَحَقُّ أَنْ يُسْجَدَ لَكَ، فَقَالَ: "لَا لَوْ كُنْتُ آمِرًا بَشَرًا أَنْ يَسْجُدَ لِبَشَرٍ لَأَمَرْتُ الْمَرْأَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا مِنْ عِظَمِ حَقِّهِ عَلَيْهَا" (رواه أحمد ومسلم ) وَرَجَّحَهُ الرَّازِيُّ. [↑](#footnote-ref-134)
135. فائدة: قال الإمام النووي في شرحه صحيح مسلم: مقصود مسلم - رحمه الله - بذكر هذين الحديثين هنا أن من الأفعال ما تركه يوجب الكفر إما حقيقة وإما تسمية. فأما كفر إبليس بسبب السجود فمأخوذ من قول الله تعالى: {وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين} قال الجمهور: معناه وكان في علم الله تعالى من الكافرين ، وقال بعضهم: وصار من الكافرين ، كقوله تعالى وحال بينهما الموج فكان من المغرقين.

     وأما تارك الصلاة فإن كان منكرا لوجوبها فهو كافر بإجماع المسلمين ، خارج من ملة الإسلام إلا أن يكون قريب عهد بالإسلام ، ولم يخالط المسلمين مدة يبلغه فيها وجوب الصلاة عليه ، وإن كان تركه تكاسلا مع اعتقاده وجوبها كما هو حال كثير من الناس فقد اختلف العلماء فيه ، فذهب مالك والشافعي رحمهما الله والجماهير من السلف والخلف إلى أنه لا يكفر بل يفسق ويستتاب فإن تاب وإلا قتلناه حدا كالزاني المحصن ، ولكنه يقتل بالسيف. وذهب جماعة من السلف إلى أنه يكفر وهو مروي عن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه وهو إحدى الروايتين عن أحمد بن حنبل - رحمه الله -. وبه قال عبد الله بن المبارك وإسحاق بن راهويه. وهو وجه لبعض أصحاب الشافعي رضوان الله عليه. وذهب أبو حنيفة وجماعة من أهل الكوفة والمزني صاحب الشافعي رحمهما الله أنه لا يكفر ، ولا يقتل ، بل يعزر ويحبس حتى يصلي واحتج من قال بكفره بظاهر الحديث: " إن بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة " ، وبالقياس على كلمة التوحيد. واحتج من قال لا يقتل بحديث لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث وليس فيه الصلاة. واحتج الجمهور على أنه لا يكفر بقوله تعالى: إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء وبقوله - صلى الله عليه وسلم -: من قال لا إله إلا الله دخل الجنة ومن مات وهو يعلم أن لا إله إلا الله دخل الجنة ولا يلقى الله تعالى عبد بهما غير شاك فيحجب عن الجنة. حرم الله على النار من قال لا إله إلا الله وغير ذلك.

     واحتجوا على قتله بقوله تعالى: فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم وقوله - صلى الله عليه وسلم -: أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم وتأولوا قوله - صلى الله عليه وسلم -: بين العبد وبين الكفر ترك الصلاة على معنى أنه يستحق بترك الصلاة عقوبة الكافر وهي القتل ، أو أنه محمول على المستحل ، أو على أنه قد يؤول به إلى الكفر ، أو أن فعله فعل الكفار. والله أعلم. انتهى من شرح النووي على مسلم: [كتاب الإيمان](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?idfrom=86&idto=637&lang=&bk_no=53&ID=9) ؛ باب: بيان إطلاق اسم الكفر على من ترك الصلاة. [↑](#footnote-ref-135)
136. تفسير البيضاوي = أنوار التنزيل وأسرار التأويل (1/ 72) [↑](#footnote-ref-136)
137. تفسير ابن كثير ت سلامة (1/ 234) [↑](#footnote-ref-137)
138. تفسير ابن كثير ت سلامة (1/ 9) [↑](#footnote-ref-138)
139. تفسير ابن كثير ت سلامة (1/ 238) [↑](#footnote-ref-139)
140. زاد المسير في علم التفسير (1/ 57) [↑](#footnote-ref-140)
141. تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (1/ 131) [↑](#footnote-ref-141)
142. تفسير البيضاوي = أنوار التنزيل وأسرار التأويل (1/ 73) [↑](#footnote-ref-142)
143. تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: 50) [↑](#footnote-ref-143)
144. راجع سيد قطب في ظلال القرآن.. عفا الله عنا وعنه وجعلنا جميعا من المرحومين. [↑](#footnote-ref-144)
145. تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: 49) [↑](#footnote-ref-145)
146. لطائف الإشارات = تفسير القشيري (1/ 74- 83) بتصرف ، الهيئة المصرية العامة للكتاب – مصر، ط. الثالثة. [↑](#footnote-ref-146)
147. الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (4/ 1611) دار العلم للملايين – بيروت. [↑](#footnote-ref-147)